الكتاب الذهبي



أشياء لا تشترى

أمين يوسف غراب

الثمن ١٠ قروش

أمين يوسف غراب

أشياء للذكرى

الكتاب الذهبى
ديسمبر سنة ١٩٦٣

الاهداء



« لئن كنت أهديت اليك بعض كتبى »

« ونحن زهرتان يبللهما القطر ؟

« فلا أقل من أن أهدى اليك هذا الكتاب »

« ونحن زهرة واحدة يحرقها الظما »

« .. ترى هل يسمع من فى الرمس ؟؟ »

« أمين يوسف غراب »

الزجاجة الفارغة

لو أنه كان يعرف شيئا عن سبب هذه الازمة التي يعيش فيها، فربما كان قد وصل الى حل ٠ أو لو أنه كان يعرف شيئا عن الازمة ذاتها ، فربما أيضا كان قد وصل الى حل ٠

ولكنه لايعرف شيئا أبدا ٠٠

كل الذى يعرفه أنه يعيش فى أزمة ٠

لماذا ؟

لأن شيئا ما ينقصه ٠
لأن شيئا ما يفتقده ٠

لأن شيئا ما يجعله يعيش فى جحيم ٠
وأنه ان لم يسترد هذا الشيء الذى افتقده ، فسوف يظل يعيش كما يعيش الآن ٠٠ بلا روح ٠٠ بلا حياة ٠٠ بلا دنيا ٠٠ بلا وجود ٠٠
ان هذا فقط هو الذى يعرفه ٠

وشيء آخر يعرفه أيضا ..

وهو أنه يريد أن يدفع أغلى ثمن في سبيل استكمال هـــذا الشيء الذى ينقصه .. استرجاع هذا الشيء الذى يفتقده .. انه يريد أن يدفع آخر أنفاسه ..

ولكن ماهذا الشيء الذى يريد أن يدفع فيه حياته ؟

.. انه لايعرف ..

انه لايعرف هل هو جائع .. أو شبعان ؟

انه لايعرف هل هو مريض .. أو معافى .

انه لايعرف هل هو يحب زوجته .. أو لايحب زوجته ..

انه لايعرف هل زوجته تحبه .. أو انها لاتحبه ..

انه لايعرف هل هو .. ؟ أو لا هو ..؟!

أجل انه لايعرف ..

ولكن اذا كان لايعرف .. فهل سيظل يعيش هكذا لايعرف ؟

هل سيظل يحترق بهذه النار التى تأكله ؟ .. هل سيظل يتعذب هكذا ؟

يتعذب ان هو أمسى ..

يتعذب ان هو أصبح ..

يتعذب أن هو أكل ..

يتعذب ان هو شرب ..

يتعذب ان هو ضحك ..

يتعذب ان هو خلا الى نفسه وبكى حتى تبيض عيناه ..

هل هو سيظل كذلك ؟ ..

انه سيعثر عليه .. يظفر به .. ويعيش كما تعيش أنت .. وأعيش أنا .. ويعيش الناس جميعا ..

حتى هذا كان لايعرفه ..

***

ومع أنه كان لايحب أبدا أن يتحدث الى نفســـه .. حتى لو اختلى بها سنين .. لانه كان يعتبر هذا ضربا من الهذيان .. ان لم يكن من الجنون ، فانه كان كثيرا ، ولا سيما فى أخريات هذه الايام التى يتعذب فيها ، كان ينفرد الى نفسه ويتحــدث اليها ، ويلقى عليها دائما هذا السؤال الذى لم يتغير :

ـ لماذا أنا غير سعيد ؟

وكان عندما يلقى على نفسه هذا السؤال يغمض عينيه ويرجع ببصره الى أعماقه ، الى أغوار نفسه هذه التى تتعذب لينظر ماذا يكون الجواب ويروح ينتظر وينتظر ، وقد يطول الانتظار حتى يجيء من الأعماق الجواب الذى لم يتغير هو أيضا :

ـ ولماذا أنت شقى ؟

عند ذلك كان يفتح عينيه ، ولم يكن ليدرى انها تتعذب هى الاخرى الاعندما يجدها ممتلئة بالدموع التى تنفرطوتغرقوجهه وتنساب على خديه ٠

عند ذلك فقط كان يعرف أنه يبكى ٠

وعندما كان يعرف أنه يبكى ٠٠ كان يعرف كيف أنه يتعذب حقيقـــة ٠

والغريب أنه كان لايفعل ذلك ، ولا يعرفه الا عندما يعود الى البيت فقط ، ويطالعه وجه زوجته الجميل ، الحبيب الى نفســه ٠ ومن العجيب الذىكان هو نفسه يدهش له ، ان هذا كانيضايقه كثيرا ، ويزيد فى توجعه ، لانه كان يتصـــور كل شيء ، الا أن يتسبب هو فى شيء يؤلم زوجته التى يحبها كل هذا الحبالكبير، ومن غير شك أنها ستتألم ان عـرفت أنه يعاني ـ لا كل هـــذا العذابـ بل بعض هذا العذاب ، ولكن مننعمة الله عليه ،انهكان دائما أمامها قادرا على أنيحول كلهذه الدموع وهذهالجروح الى بسمات تشع النور فى عينيها الجميلتين ٠

***

٠٠ ولكن لماذا لايحدث هذا كله الا عندما يعود الى البيت ، الا عندما يرى زوجته ، الا عندما يطالعه وجهها الجميل ، الا عندما يرى عينيها الكبيرتين الواسعتين الهامستين ؟

لماذا ؟

ولماذا هو يضعف أمامها كل هذا الضعف ٠٠ تخور قواه ٠٠ وتتفتت حتى لتكاد تصبح رمادا تتطـاير ذراته عـلى وهج ذلك الاشعاع القوى الذى ينبعث من عينيها الواسعتين الباسمتين ؟

وبماذا تهمسهذه العيون ٠٠ وبماذاأيضا تهمسهذه الشفاه؟

ومن غير أن يجيء الجواب ٠٠ تذكر شيئا دهش له ٠٠ دهش له دهشة كبيرة ٠٠ دهشة زائدة ٠٠

لماذا هذا العذاب الكبير الذى يعيش فيه ٠٠ لاتتجمع ناره ،

وتتقد جمراته .. وتحرقه حرقا موجعا الا عندما يسكن اليها .. يسكن الى هذا الصدر ، يشد عليه بأحضانه ؟ .. الا عندما يقبل هذه الشفاه .. يرتوى من هذا المنهل العذب ؟ ..

لماذا هو عند ذلك فقط تحرقــه نار الظمأ .. بدل أن تروى غلته ؟ .. بل لماذا لايتجمع عذاب الدنيا كله فى صدره الا اذا لثم هذه الشفاه ؟ ..

حقيقة مابال هذه الشفاه هكذا ؟ .. هل هى جرداء الى هــذا الحــد ؟ .. هل هى جافة كل هذا الجفاف ؟ .. كل هذا الجفاف القاتل .. هذا الجفاف المميت ..

وهل شفاه النساء جميعا .. هكذا كأوراق الشجر التى تتساقط فى الخريف ، جافة خشنة .. شاحبة .. ميتة .. لا حياة ولا روح .. حتى ولا لون ؟ ..

حقيقة هل شفاه النساء جميعا هكذا .. أو هى شفاه زوجته فقط ؟

وأغمض عينيه كعادته بعد ان ألقى هذا السؤال على نفسه ، ورجع ببصره الى أعماقه ، الى أغوار نفسه التى تتعذب ، لينظر ماذا يكون الجواب ، الذى جاء سريعا هذه المرة :

ـ لا انها شفاه زوجك فقط !

عند ذلك فتح عينيه ، ولم يكن ليدرى انها ازدادت عذابا هى الاخرى ، الا عندما وجدها ممتلئة بالدموع ، التى راحت تغرق وجهه ، وتنساب على خديه فى سكون الليل .

وكعادته .. عندما عرف أنه يبكى ، عرف أنه يتعذب .

ومد عينيه فى هدأة الليل الطويل ، ونظر الى يده التى كانت نائمة فى شبه اغفاءة أمامه فوق المائدة ، ولمــا أطال النظر اليها وتحركت أناملها ، ولما وجدها كذلك ، مدها الى وجهه ، ومسح عنيه ، ومسح أيضا على بعض الدموع ، ولكنه حرص بصفة خاصة على أن يبقى على الدموع التى تجمعت فوق شفتيه .. لمــاذا .. لايدرى .. ألأنها دافئة وهو فى حاجة الى هــذا الدفء ؟ ألأنها ترويه وهو فى حاجة الى الارتواء ؟ ألأن هذه الشفاه تحرقها نار الظمأ .. وهذه الدموع تخفف حدة هذه النار ؟ . ولكن ألى هذا الحد تستطيع الدموع أن تفعل مالا تفعله الشفاه .. شفاه المرأة التى تحب ؟

ـ من غير المعقول أن يكون ذلك ٠

ـ ولماذا لا ؟ ٠٠ اننا عندما نفتقد المطر ٠٠ نفتقـــد الماء ٠٠ وعندما نفقد الحب نفقد كل شيء حي ٠

ووقف جامدا أمام هذا التعبير ٠٠ وكأن شيئا ما أطبق عـلى شفتيه ٠٠ لأنه صمت ولم ينطق ٠٠ لم ينبس ٠٠ لم يتحرك ٠٠ حتى أنفاسه وقفت عند شفتيه ٠٠ ولم تنبس هي الاخرى ٠٠ كل ذلك وهو شاخص الى الأفق البعيد أمامه يتطلع فيه الى شيء بعيد ٠٠ بعيد جدا ٠٠ ولكنه يراه ٠٠ ويراه لأول مرة ٠٠وكلما وضحت الرؤية لعينيه ازدادت دهشته ، كيف هو لم يرهذاكله الا الآن ؟ ٠٠ كيف ظل هو يجهل هذا الى الآن ؟ ٠٠

هذا الشباب الفتى ، الذى يتدفق صاخبا كما يتدفق النهـر الثائر ٠٠ أنه خائر ٠٠ أنه ضـعيف ٠٠ انه منهك ٠٠ فتوته سراب ٠٠ وشبابه حلم ٠٠ وصخبه ذكرى ماض بعيد ٠

وهذه الأنوثة الصاخبة ، هذه الانوثة الفياحة ، التى تقـذف حممها كالأتون ، كالنار التى تستعر ، كالجمر الذى يتقد ، انها باردة ، متجمدة ، لاتقذف غير رذاذ الماء ٠ وحبات‌التلج ٠٠ انها تقذف النار أحيانا ، ولكنها كنار مسدس الصوت ، لاتشتعل ، لاتمتد ، لاتحرق ، لاتضر ، لاتنفع ، انها وهم ، انها نار باردة٠٠ ان اليد تكاد تتجمد من فرط برودتها ٠٠

وهذه العيون النجل ٠٠ هـذه العيون التي تشـــبه عيون البقر ، هذه العيون التى تشع الضياء ، البهجة ، النـور الذى يخطف الابصار ، هذه العيون مابالها ٠٠ ماقصتها ٠٠؟ لماذا هى خابية ٠٠ شاحبة ٠٠ لاتكاد نظراتها المتهافتة تمتد الى أكثر من هذين الرمشين الطويلين ٠٠ ثم هى تموت على الفور بعد ذلك ، تخر صرعى فوق الخدين ، مضرجة فى هذا الحزن الـكبير ، الذى يملؤها ظلاما ؟ ٠ مابال هذه العيون ، هكذا كلما رأيتها تمثلت لعينى ظلمة الصحراء ، عندما يطبق ســـوادها عـلى ضال فى مغاورها ؟ ٠٠

وهذا الثغر الجميل ٠٠ هذا الثغر الذى اذا ابتسم ابتسمت الدنيا ، واذا ضـحك ترنم الكون ٠٠ مابال ابتســامته هكذا مختنقة كأنها ابتسامة القمر من وراء الغمام ؟ ٠٠

ياللعجب !٠٠ وهل يستطيع‌الغمام أن يحجب كل هذاالنور؟

•• ترى ماهذا الغمام ؟ •• ماكنهه ، مالونه •• وما قدرته التى تستطيع ان تحجب كل هذا البهاء عن عيني ؟ ••

وصمت لحظات •• فرأى الزجاجة التى أمامه على الطاولة ،

وظل متجمدافىمكانه ، ينظر هذهالمرة الى لاشيء ، الىأنحانت منه التفاتة ، فرأى الزجاجة التى أمامه على الطاولة ، ومع أن هذه الزجاجة أمامه منأولالليل ، يفرغ منها الكأس تلو الكأس فانه لم يرها الا الآن ، الا هذهالمرة ، ودون أن يدرى راحيتأملها، وكأنه يتأمل أحب الاشياء الى نفسه ، انها فعلا حبيبة الىنفسه، انها جميلة المنظر ، رائعة اللون ، حلوة المذاق ، شهية الطعم ، انه يحبهاكثيرا ، ويحب ألا يفارقها أبدا•• ومد يدهليتحسسها، ليمسك بها ، ليتذوق طعمها الشهي ، رحيقها العذب ، ولكن الزجاجة كانت فارغة ، فارغة •• هذه الزجاجة فارغة ••

وصمت لحظات •• وراح ينظر الى الزجاجة ثانية •

وفي لحظة تشبه الغمض ، ينقلب هذا الجمال كله الى هذا القبح ، تصبحهذه الزجاجةكريهة •• بشعة •• قبيحةالمنظر ••

ـ ولكن ، هكذا سريعا ؟ ••

ـ أجل ••

ـ لماذا ؟

ـ لأنها فارغة •• معطلة •• لاتؤدى وظيفتها ••

ـ ولكنها زجاجة ••

ـ ولكنها من غير خمر •• مثلها تماما كمثل امرأة من غير قلب •

ـ وهل توجد امرأة من غير قلب ؟

ـ كما توجد زجاجة من غير خمر •

ـ فرق كبير ••

ـ ما الفرق ؟

ـ هذه الزجاجة هناك من أفرغ خمرها ؟ ••

ـ وتلك المرأة هناك من أفرغ قلبها ••؟

ـ وهل يفرغ القلب ؟

ـ كما تفرغ الزجاجة تماما ••

ـ وكيف يعيش من لا قلب له ؟ ••

ـ كما تعيش هذه الزجاجة في عيني الآن ؟ ..
ونظر الى الزجاجة ، ونهض متخاذلا ..
وعند انباب استقبله مدير المشرب الكبير الذى كان يجلس فيه .. فحياه وقال :
ـ منذ أيام قلت لى أن أرسل اليك غدا فى البيت بعض أنواع الحلوى والجاتوه والشوكلاته .
ـ أنا قلت لك هذا ؟

ـ أجل .
ـ وقلت لك غدا بالذات ؟
ـ أجل .

ـ أى الايام غد ؟
ـ التلاثاء ..
ـ وما تاريخه ؟
ـ التاسع عشر من نوفمبر .
ـ أجل .. أجل .. قلت لك هذا .. ولا تنس أننى أريدها حفلة رائعة .

وتركه وانصرف الى سيارته .. وفى قلب السيارة السوداء الكبيرة ، رن فى أذنه مرة أخرى هذا التاريخ الذى سمعه ـ التاسع عشر من نوفمبر ..

كيف نسى هذا التاريخ ، هذا التاريخ الحبيب الى نفسه ، هذا التاريخ الذى مازال يعيش على ذكراه الى اليوم .. تاريخ العيد الثالث لزواجه السعيد ؟ .. ولكن اذا هو كان قد نسيه لأمر عارض ، لحالة طارئة ، لأزمة نفسية يعيش فيها ، فكيف نسيته هى أيضا ؟ كيف لم تذكره ولم تذكره به ؟ كيف هى لم تعد له العدة ، كما أعدها هو ويعدها دائما ؟ .. انها نسيته أيضا فى العام الماضى ، نسيت هذا التاريخ ، ولم تذكره به الاعندما ذكرها هو به ، وكانت حجتها فى ذلك أنها كانت مريضة ، ترى هل هى مريضة أيضا هذا العام ؟ .. ولكن ما نوع هذا المرض الذى ينسيها كل شىء حلو ، كل شىء جميل .. ينسيها هذه الذكرى السعيدة ، هذا اليوم الخالد فى تاريخ حياتها ، أجل ، مانوع هذا المرض ؟
وأشعل سيجارة من أخرى كانت نائمة تشتعل بين أصابعه ،

واعتدل في جلسته أمام مقود السيارة السـوداء الكبيرة التي تسير به في الظلام كما يسير القدر بانسان الى مصيره المحتوم ·· ثم سرح ثانية بخياله الواسع ·· الى ماضيه ·· ماضيه البعيد ·· الى ثلاث سنوات مضت ، الى اليوم الذى رآها فيه لأول مرة ·· على البلاج فى سيدى بشر ، وكيف أنها كانت كزجاجة من العطر الالهى ، كلماتماوج عطرها ترنحت النفس ، وكلما تضوع مسكها سكر القلب ؟ وكيف أنه وقف يومها مشدوها أمام هذا الجمال ، الذى كان يصخب كالموج ، ويترقرق كالغدير ، ويغيب فتغيب الدنيا ، ويظهر فتشرق الشمس ، وتنبلج نورا يملأ القلب ؟ وكيف أنه ظل كذلك عدة أيام لم ينم ، ولم يغمض له جفن ، الا بعد أن عرف كل شيء عنها ؟ من أهلوها ؟ ومن اخوتها ؟ ومن أبوها ؟ ومن أمها ؟ وما الأيدى الكثيرة التى تقدمت ؟ وكيف أنها لم تستكبر ولم تستعل ، ولم تختر من بين هذه الأيدى الكثيرة الا أقلها شأنا وأدناها جاها ؟ وقالت :

ـ اننى أختار هذا الموظف الصغير ـ فتحي ـ الذى يعمل فى وزارة الخارجية ، وهو فقط الذى أمد يدى اليه ·

ولكنها كانت من حسن الحظ لم تمد يدها بعد ، فسارع هو ومد يده ، لم يمددها اليها فقط ، وانما مدها الى الاهل أيضا ، ومدها ممتلئة تفيض بالمال والجاه ، والاسم الكبير الذى هو ملء السمع والبصر والفؤاد ، وكان لابد لهذا كله من أن يرجح كفته ، وقد رجحت فعلا ، وظفر بها ، ومنذ أن تزوجها الى الآن ·· منذ ذلك التاريخ الطويل ·· منذ السنوات الثلاث التى مضت ، وهو باسط لها هذه اليد ، التى تفيض بهذا كله ·· تفيض بزينة الحياة الدنيا ·· فما الذى فعله حتى تنسى هذا كله ·· ترى هل نسيته فعلا ؟ ··

وأراد أن يقول لنفسه أشياء أخرى ، وأن يتذكر أشياء أخرى ·· أشياء مرت خلال هذه السنوات الثلاث التى مضت ، ولكنه دون أن يدرى وجد نفسه ممددا على الفراش ، بجانب زوجته التى تسبح فى النوم ، كما تسبح الملائكة نائمة فوق ضوء القمر ·· وتأملها ، وأعجبه هذا الطهر ، وأعجبته هذه القداسة ، وأسكرته هذه الانفاس المضمخة كانفاس العبير ، فراح ينظر

اليها ، يتأملها .. يطيل النظر .. يديم التأمل .. الا أنــه فجأة أغمض عينيه ، لأنه لم ير غير زجاجة فارغة مازالت أمامه على المائدة التى كان يجلس اليها .

وظل كذلك مغمض العينين .. ثم فتحهما بعد حــين ، فاذا بالدهشة الزائدة تكاد تأخذه .. انه وجـد نفسه فى الفراش بجانب زوجته النائمة ، وليس كما يظن فى المشرب أمام زجاجة فارغة .. يالله ! ..

وحانت منه التفاتة وهو كذلك ، فرأى شـيئا كان يحلو له كل ليلة أن يتطلع اليه قبل أن ينام ، رأى وردتين حمـراوين جميلتين تعودت زوجته كل ليلة ان تضعهما فى آنية جميلة على الكومودينو بجانب الفراش تماما ، فتأملهما ، وتأملهما طويلا ، ولكنه فجأة رأى شيئا عجيبا ، عجيبا جدا ، رأى وردة واحـدة فقط هى التى فى الآنية ، أين ذهبت الاخرى ؟ قد تكون سقطت من يدها بجانب الكومودينو ، بجانب الفراش .. بجانب هذا المقعد الطويل الذى تعودت أن تجلس اليه حينا قبل أن تنــام .. لا ، لا .. ليست هنا ، ولا هنا ، ولا هنا .. ان المخــدع جميعه ليس فيه غير وردة واحدة !

وفى الصــباح لم يستيقظ ، لأنه لم ينم ، وانمـــا نهض واغتسل ، وارتدى ثيابه ، وقال لزوجته :

- اننى أريد أن أذهب الى مكان ما ، أو تأتين معى ؟
وكأنها كانت متفقة معه على هذا .. لأنها قالت :
- هيا بنا .

وســألها وهى تجلس بجانبه فى قلب السيارة الســوداء الكبيرة :
- هل تعلمين الى أين نحن ذاهبان ؟
- يكفى أن تعلم أنت .
وأمام طاولة صغيرة جلس اليها شيخ من شيوخ الدين جلسا هما أيضا ، وأمام الثــلاثة أعطى كل من الزوجين الحــق فى أن يتصرف فى حياته من جديد ..

ولايدرى هو هــل خرج معها بعدذلك أو لا ؟ . وهــل هو رآها بعد ذلك اليوم أو لا . ؟ وهل مضى على ذلك زمن طويل

أولا ؟ . وأنما الذى يدريه جيدا الى الآن أنه كان ذات يوم يسير فى طريق ما .

رآها واقفة أمام متجر كبير للتحف والهدايا ، فأوقف سيارته وهبط منها ، وذهب اليها وصافحها ، فصافحته فى شوق ، وفى حرارة من يعرف كيف يحفظ الجميل ، قالت له وكل شىء فى زجاجة العطر الالهى يتضوع عطرا ومسكا وطيبا :

ــ جميل أن رأيتك الآن .

ــ خيرا ..

ــ انك صاحب ذوق ، ولذلك أريدك أن تنتقى لى هدية جميلة لفتحى .

وكان قد نسى .. فقال :

ــ من فتحى ؟

ــ زوجى .

ــ هل تزوجتما ؟

ــ واليوم بداية عام جديد ..

ودخل معها المتجر ، ووقع اختيارهما على هدية جميلة أعجبت هى بها كثيرا ولما تناولتها وذهبت لتدفع الثمن ، وجدته مدفوعا فالتفتت اليه وقالت :

ــ هل أشكرك مرة أخرى ؟

ولكنها لم تجده .. كان قد انصرف .

وفى قلب السيارة السوداء الكبيرة ، ضايقه كثيرا رذاذ المطر الذى ينساب على الزجاج ، ويلوثه ويشيع فيه الظلمة ، ولما تعذرت الرؤية أدار محرك المساحات الامامية ، فتحركت ولكنها لم تمسح قطرة واحدة من قطرات المطر التى على الزجاج ، ترى هل المساحات معطلة ؟ .. ولكنها تتحرك .. تروح وتجىء ..

وأوقف السيارة وهبط منها ليمسح بيده ماء المطر الغزير .. ولكنه لم يجد على الزجاج نقطة واحدة .. لقد كانت نقاط الماء جميعا فى عينيه ..

فى عينيه هو ..

الدهليز

لم يكن لنا في ذلك الحين بيت نقطنه ، ولا حتى بعد ذلك الحين . ومع ذلك لم نيئس .. ولم نحرم شيئا يقينا ـ أنا وأمي ـ النار صيفا والزمهرير شتاء . ومن فضل الله علينا أنه كان شيئا مريحا فعلا .. ولذلك فرحنا به ورضينا عنه رضا كثيرا .

كان هذا الشيء ، الذي لم نحرمه والذي تصدق علينا به أحد أبناء الحلال من أهل القرية ، عبارة عن غرفة من غير نافذة ومن غير باب أيضا ، يغلق أو يفتح على من فيها ، في قلب دهليز فسيح ، يطلقون عليه في القرية ، دهليز الباخشونجي ، ولم تكن غرفتنا فقط هي التي كذلك ـ من غير باب ومن غير نافذة ـ وانما كانت كذلك أيضا غرف الدهليز المتعددة التي اصطفت على الجانبين في قلب الدهليز والتي تزيد على العشرين غرفة .. وهي وجدت كذلك ، لأنها ـ كما قالت لي أمي ـ كان هذا الدهليز فيما مضى من الزمان ، حظيرة كبيرة لماشية من سمى الدهليز باسمه الى اليوم ..

وأيضا لم أكن أنا وأمي فقط اللذين يقطنان احدى غرف هذه الحظيرة ، حقيقة كانت أكثر غرفها خالية ، ولكن بعضـــها كان ممتلئا بالسابلة من أمثـــال « بهانه العجانة » وهو اسـم أمي ووظيفتها ، وطفلها « سلامة » الذى لم يتجاوز الثامنة من عمره وهـو أنا ، ولم أذكر وظيفتي لأنني كنت بعـد لا وظيفة لي ٠٠ وكان ممكنا جدا أن تكون لي وظيفة ، لان الكثير جدا من الاطفال أمثالي في القرية كانت لهم وظائف ، وكان أيضا لهم آباء ، وأنا كنت لا أب لي ، فقد مات أبي قبل أن أولد ، ولست أدرى حتى الآن لماذا ولدت ، مادام الذى وضع الغرس لن يجني الثمار ، ولن تجـــد الثمرة من يتذوق لذة قطافها ، وتترك هكذا عـــلى الشجرة حتى يصيبها العفن ؟ ٠٠

ومن الذين يقطنون معنا في الدهليز ـ غـــير بهانة وطفلها سلامة ـ اللذين تحدثت عنهما بما فيه الكفاية ـ عم جمعة السقاء ٠٠ وكنت أحب هذا الرجل كثيرا ، وكنت أيضا أشفق عليه من قلبي ، فهو رجل قد تقدمت به السن كثـــيرا جدا ، ومع ذلك مازال يحمل القربة فوق ظهره ، وكأنه يحمل متاعب الدنيـا جميعا ، وعــــداد السنين الطويلة التى عاشها ، فـــوق ظهره المقوس ، ويطوف بها من زقاق الى حارة ومن حارة الى زقـــاق ، وكلما نضبت قواه أو تنزى ذلك الجرح الابدى الذى كان لايبرأ أبدا ، في قدمه اليمنى وسالت منه الدماء ، ولوثت تلك الخرقة البالية القذرة التى كان يلفها حول الجرح الكبير الغائر في القدم ، كان كلما استشعر حرقة نار ذلك الجرح ، وهو يسير في القرية يحمل القربة فوق ظهره ، ولم يجلـــس أو يستريح ، لانه كان لايستطيع الجلوس والقربة فوق ظهره ، وانما كان كل الذى يستطيع أن يفعله ، هو أن يقف لحظات في الطريق ، أو يرتكن الى جـــدار ، ويروح ينظر الى الجـــرح الذى فى قدمـه بعينين محزونتين ، وكأنه يترجى ذلك الجرح أن يمهله من هذا العـذاب حتى يضع الحمل الذى فوق ظهره ، ومن ثم يتفرغ اليه ، وفي كثير من الاحيان كان هذا الجرح اللعين لا يقبل هذه الضراعة ٠٠ .

كما كان يقطن معنا أيضا ـ وفي الغرفة التى تواجه غرفتنـا كذلك ـ « الحاجة مقبولة » ، ولا أدرى الى اليوم ، هل هذا اللقب حقيقة ؟ وهل هذه المرأة حجت فعلا الى بيت الله الحرام ، أو أن هذا اللقب مستعار ، أو أنها ورثته عن احدى جداتها ؟ فقـــد

قالت لى أمي ذات مرة : ان هذا اللقب ، « الحاج أو الحاجة » كان فيما مضي وراثيا ، يتوارثه الابن عن الأب والابنة عن الأم ، فقد كان يكفي أن يكون في الأسرة جميعها حاج واحد أو حاجة واحدة ، فتصبح الأسرة كلها حجاجا ، وأغلب الظن أن الحاجة مقبولة كانت كذلك ، وأن الذى حج من أسرتها الى بيت الله الحرام لابد أن يكون الجد الخامس عشر أو الخامس بعد العشرين ، لأنه لا يمكن أن يكون هذا الجد أو الجدة قريبة العهد ، وتكون هذه المرأة من الغلظة وتحجر القلب الى هذا الحد ، فقد كان قلب هذه المرأة العجوز فى غلظة أشبه بجسمها البدين بدانة مخيفة ، فقد كانت بدينة الى حد يجعل جسمها يشبه جسم الفيلة تماما - وكانت لها ساق واحدة ، وكانت هذه الساق من الضخامة بحيث يروعك منظرها ان هي تحركت أو دبت فوق الأرض ، أما ساقها الأخرى فقد بترت في حادث قديم جدا ٠ ولعل الوحيد الذى استفاد من هذا الحادث ومن بتر هذه الساق ، هو الأرض التى ارتاحت من عناء دبيب هذه الساق فوق رأسها ، وان كانت مازالت تعانى من ثقل الساق الاخرى التى مازالت تدب فوقها ، وتزعجها الى اليوم كل هذا الازعاج كما تزعجنى أنا أيضا سواء بسواء ، فقد كانت الحاجة مقبولة تشتغل ببيع الكراملة والسكر النبات والترمس وكيزان الحلبة والسودانى لأطفال القرية ، وكانت تتخذ لها محلا مختارا على رأس الزقاق وناصية الحارة المقابلة له ، فهى فى كل يوم تنقل بضاعتها في الصباح الى هناك وتضع الطبلية الخشب الكبيرة وترص فوقها هذه البضاعة ، ومن ثم تجلس أمامها ، وتركن جسدها الثقيل الى الحائط وتمسك بمذبتها الخوص المتآكلة تذب بها أسراب الذباب التى تتجمع فوق الطبلية ، وفوق وجه الحاجة مقبولة أيضا ٠ وما ان كانت تفعل ذلك وترتاح الى جلستها هذه بجوار الحائط وتتيقن أنها ممسكة المذبة في يدها حتى تغط فى النوم ويتعالى شخيرها الذى تستمع اليه من بعيد ، كما تستمع تماما الى خوار ثور مذبوح ٠٠

والغريب الذى كنت أدهش له ، هو أنها كانت تفعل وهى تغط فى النوم العميق ما تفعله تماما وهى فى اليقظة ، فيدها التى تمسك بالمذبة تقوم بالعمل نفسه ٠٠ تروح يمينا وتجىء شمالا ، وكذلك صوتها ٠٠ كانت ترسله من حين الى حين وهى

تغط فى نومها ، منادية على بضاعتها بالصوت الاجش البغيض الذى كانت تنادى به فى اليقظة تماما ·· لب وسودانى وكراملة يا أولاد ··

وكان الدهليز يبعد عن رأس الزقاق مسيرة خطوات طويلة ، وكان يتحتم على كل يوم أن أتحمل العناء الشديد ·· فقد كان على ـ بحكم صداقة أمى لهذه المرأة الكريهة الى نفسى ـ أن أحمل معها الطبلية والقفص وبعض الحاجات الاخرى ، وذراعها الثقيلة التى كانت تضعها على كتفى ، وتثقل على بها حتى لتكاد تسقطنى من فرط ثقلها ·

كان يتحتم على كل يوم أن أحمل معها هذا كله حتى نبلغ رأس الزقاق ، ثم أعود فى آخر النهار فأحمل معها هذا كله حتى تعود الى الدهليز ··

ومع هذا الشقاء الكبير الذى كتب على أن أعانيه بسبب هذه المرأة اذا جاء النهار وأعانيه أيضا اذا جاء الليل ، كنت أقف أو أجلس بجانبها بالساعات وأحيانا طول اليوم كله ، ولعابى يسيل وفؤادى يكاد يتمزق من أجل الحصول على نصف « كرملاية » أو بعض حبات من الترمس أو السودانى ، ومع ذلك لا أذكر لهذه المرأة ، ولو مرة واحدة فى حياتها ، أنها أشفقت على هذا القلب الجائع ، أو رحمت الفؤاد الذى يتمزق ، ولعل هذا كان واحدا من الأسباب التى وطدت بغضى وكراهيتى لهما وجعلت لهما صفة الدوام ··

أما الغرفة التى كانت تجاور غرفتنا تماما فى الدهليز ، فقد كان يقطنها « عم زكريا » وهو عجوز فى السبعين من عمره ضرير لا يبصر ، يقولون انه ولد من غير عينين ، ويقول هو انه فقد بصره أثر اصابته بمرض الحصباء وهو طفل ، وعم زكريا ـ أو الشيخ زكريا ، أو سيدنا كما يطلقون عليه ـ ملحوظ العناية فى القرية الى حد كبير ، وليس من أحد الا يعرفه ، وليس من عمل فى القرية الا يقوم هو به !

فهو فقيه المسجد وهو الذى يؤذن فى الناس ويوقظهم للصلاة ، وهو الذى يغسل الموتى ويقرأ على رءوسهم القرآن ، ويقرؤه أيضا على قبورهم ، ويقرؤه كذلك كل صباح فى بيوت الاثرياء من أهل القرية ، وهو المعلم الذى يعلم أبناء الاغنياء فك الخط ، ويحفظهم بعض ما يتيسر من آى الذكر الحكيم ، وبعد

ذلك اذا جاء رمضان فهو « مسحراتى » القرية ، الذى يجوب حواريها وأزقتها حارة حارة ، وزقاقا زقاقا ، ويدق أبواب بيوتها جميعا بابا بابا ، يتحسس الارض بعصاه السنط الغليظة التى كانت أشبه بقدم ثالثة تقيه عثرات الطريق ، ويحمل على كتفه الضامرة المتعبة من تعاقب السنين عليها ، الجوال الذى يضع فيه الصدقات ، وكانت خليطا عجيبا من كسر الخبز وقطع الجبن وحبات العنب ، وعظم الدجاج ، والتين ، والبلح والخيار ، وبعض شرائح البطيخ والشمام ، ويظل كذلك حتى مطلع الفجر ، ويعود الى الدهليز منهك القوى ، خائر الاعصاب ، قد بح صوته من كثرة المناداة على الناس ، ومديحهم ، وصفات الألوهية والقداسة التى يضفيها عليهم جميعا ، حتى يستطيع أن يظفر بقطعة من الجبن أو حبات من العنب أو بقايا من شريحة بطيخ !

وكانت صداقتى لعم زكريا لا بأس بها طوال العام ، ولكن هذه الصداقة كانت تتوطد كثيرا اذا جاء رمضان ، فقد كنت أحمل له الفانوس ، وأقوده الى الحوارى والازقة وأعرفه معالم البيوت التى كان يعرف أسماء أصحابها جميعا اسما اسما ، وأظل معه كل ليلة حتى أعود به عند الفجر الى الدهليز .. وكنت أفعل ذلك عن طيب خاطر ، بل وبسرور زائد الحد ، وكانت أمى تشاركنى فى هذه الفرحة ، لان هذا يعود علينا ، أنا وأمى ، بالخير العميم ، فقد كنا فى كل ليلة نقتسم مع عم زكريا الخير الذى يمتلىء به قلب الجوال ، والحقيقة أن هذا الخير كان كثيرا ، وفى بعض الليالى كان يزيد على الحد ، اذ كنا نجد أحيانا بعض قطع اللحم ، أو بعض فضلات منه ما زالت عالقة بجناح دجاجة . أو رقبة وزة ، أو ساق بطة عجوز ، لم يكن لحمها قد استوى بعد . وهذا يتيح الخير الكثير لغيرنا ، ولا سيما الذين يعيشون معنا فى قلب الدهليز ، ولذلك كانت علاقتى أنا وأمى بعم زكريا علاقة ود وحب واخاء حقيقى لم تشبه شائبة طوال هذا العمر الذى عشناه .

كانت هذه حياتنا فى هذا الدهليز ، أو لعلها كانت هى حياتى أنا بالذات . وكنت بها جد سعيد ، وكان من الممكن أن تدوم سعادتى ، وأن تظل كذلك دوما ، لولا ذلك الشىء القاتل الذى كان يجثم على أنفاسى ، ويكاد يبدد سعادتى ، ويذروها ترابا يتبدد فى غياهب هذه الظلمة التى تعيش فى قلب الدهليز

.. كان هذا هو الوحدة البغيضة الى النفس التى كنت أعانيها ، فقد كان هذا الدهليز على سعته ، وكثرة الذين يقطنون فيه خلوا من الاطفال . الطفل الوحيد الذى يعيش فيه هو أنا فقط ، ولذلك كنت لا أجد من ألعب معه ، أو حتى أتحدث اليه ، وهذا شيء ليس من سبيل الى وجود الطاقة التى تحتمله ، حتى طاقة الكبار ..

وكان من الممكن أن أخرج الى النور ولو الى ساعات ، أذهب مثلا الى الجرن ، حيث الاطفال والصبية يرتعون ويلعبون ، ويركض بعضهم خلف البعض ، أو أذهب الى الترعة وأستحم وأغوص فى الماء ، وأركب الموج .. كان من الممكن أن أفعل ذلك ، لولا أن أمى كانت تحرم على الخروج الى الطريق ومشاركة الاطفال في لعبهم .. وبرغم أننى كنت أظهر لها ضيقي بهذا السجن الذى تفرضه على ، فاننى كنت فى قرارة نفسي أقرها عليه ، فقد كان الثوب الرث الذى أرتديه ، من البلى والقذارة بحيث تعاف العين أن تراه ، وكنت أنا أشعر بذلك وأخجل منه كثيرا ، وأحس بهذا الخجل يتزايد ، حتى ليكاد يخفت أنفاسى .. اذا ما رأيت عينا تنظر الى ، فاذا بها تنظر الى جسمى الصغير الذى تبدى عاريا تماما ، من خلال المزق والثقوب ، التى كنت أحس بها أحيانا مزقا وثقوبا فى جسمى نفسه ، وليست فى الثوب ، ولعل هذا الاحساس هو الذى يجعلنى أفضل دائما الوحدة والبقاء طوال النهار فى فناء الدهليز الرطب المظلم ، الذى كان كلما ارتفعت الشمس فى الخارج الى كبد السماء وانبلج نورها ، ادلهم سواده هو ، وأطبقت ظلمته .

ومن سوء الحظ أن الدهليز كان من الصباح الباكر يفرغ كما يفرغ الاناء تماما : فعم زكريا من الفجر يذهب الى المسجد ليؤذن فى الناس ويؤمهم فى الصلاة ، ثم يظل بعد ذلك فى الجولات النهارية حتى يجيء الليل ..

وأمى كنت من النادر أن أراها ، أو تجيء الى الدهليز الا لكى تطمئن على فقط ، وتقدم لى بعض الارغفة من الخبز ..

والحاجة مقبولة .. لعنها الله ، كانت تخرج من الصباح ومعها حانوتها المتنقل ، ثم لا تعود الا اذا جاء الليل وتغرق الذباب المتجمع فوق الطبلية .

وكذلك أيضا كان عم جمعة السقاء ، فهو يستيقظ كل يوم مع الفجر ، ويحمل القربة فوق ظهره المقوس ، ويسير لاهثا يدق

أبواب البيوت ليسقى أهلها الماء ، كما تدق قدمه الجريح الارض لتسقيها الدماء ، حتى اذا ما جاء الظهـــر وخارت قواه ولهثت أنفاسه وجأرت شيخوخته بالشكوى من هذا العناء الذى تلاقيه كل يوم ، عاد الى الدهليز وعلق القربة فوق المسمار الحـديدى الكبير الذى أعده في الحائط لهذا الغرض ، ومن ثم يستلقى على ظهره فوق الارض الرطبة • وما ان يفعل ذلك حتى يروح كرشه الكبير المنتفخ ، كما لو كان القربه تماما ، عنـدما تمتلىء بالمـاء وتفرغ منه ، ويروح صوت شخيره يتعـالى رويدا رويدا ، حتى يبلغ منتهاه ويصبح كخوار الثور المذبوح تماما • وأظل أنا فى مكانى ، أنظـر الى هـذا البطن الذى يرتفـع وينخفـض أمامى كالقربة ، وأصـــغى الىذلك الصـــوت الاجش الذى يجلجل فى فناء الدهليز ، الى أن يغلبنى النعاس ، فأتكور فى مكانى ومن ثم أغط فى نوم عميق ، لايوقظنى منه سوى ذلك الكلب الاجرب الكريه جدا الىنفسي والذى كان ينتهزفرصة هذا الفراغويتسلل الى الدهليز فى الظلام ، ولا يحلو له النوم الا فوق رأسى تماما •

ومع مرور الايام التى كانت من سوء الحظ طويلة متناهية فى الطول ، وبطيئة ممعنة فى البطء ، أحسست بضيق لاحد له ، وظل هذا الضيق يمسك بخناقي لدرجة أننى بدأت أستشـعر عدم القدرة على احتماله ، مما جعلنى أبكى بصفة دائمة ، وجعل دموعى لا تكاد تجف حتى فى الساعات التى أغمض فيها عينى •

وظللت كذلك الى أن حدث ذات يوم أن تعرفت على «بهيجة» وما كنت لأتصور أننى سأتعرف على أحد فى حياتى ، فأصادقه وألاعبه ، وألهو معه ، وحتى اذا تجرأ يوما عقلى الصغير على أن يفكر أفكارا كبيرة ، فما كان قط ليفكر فى التعرف الى بهيجة • فقـد كانت بهيجة بنت كبير القوم فى قريتنـا ، كانت ابنـــة الاستاذ السوافيرى ناظر المدرسة الالزامية فى القرية ، ولـكن أحدا كان لا يجرؤ أن يناديه بغير لقبـه المفضل : حضرة الناظر •• وكان هو القدح المعلى فى القرية ، وكان هو والعمدة صنوين •• اذا فتح باب بيت أحدهما يوما فانما ليدخـل منه الآخر •

وهل فى القرية كلها غير حضرة العمدة وحضرة الناظر ؟ •• هذا باستثناء حضرة الجاويش عوضين الذى كانت طلعته تهـل على قريتنا ، كما تهل ليالى القمر ، عندما يجىء الى القرية فى دورية من دورياته الليلية يهتز عجبا فوق ظهر جواده المطهم ، ويتيـه

خيلاء بالرصاصات العشر التى برزت أطرافها الصفراء تلتمع فوق صدره ، كما يلتمع الذهب والماس فوق صدر الحسناء ٠٠ عدا فقط هو الذى كان يفتح له باب بيت العمدة على مصراعيه عندما يجىء ، وكثيرا أيضا ماكان يفتح له باب بيت حضرة الناظر ، وعلى مصراعيه كذلك ٠٠

لهذا كان عقلى الصغير لا يجرؤ على أن تتطرق اليه مثل هذه الافكار الكبيرة ، أو أتطلع حتى مجرد التطلع الى اللعب ذات يوم مع ابنة حضرة الناظر ٠ حقيقة كان بيتها فى الحارة التى فيها الدهليز ، بل وكان هو البيت الذى يجاور الدهليز تماما ، ولكنه كان بيتا جميلا ، كان أجمل بيت فى الحارة ، كان هو البيت الوحيد الذى طليت واجهته بالجير الابيض ، ورسمت عليه « بالزهرة » الزرقاء الكثير من الرسوم الجميلة ، التى منها ما يمثل فارس الفرسان (أبو زيد الهلالى سلامة) ممتطيا صهوة جواده الآشهب ، ممتشقا سيفه الباتر ، ومنها ما يمثل العاشق الزناتى خليفة الذى يقتل كل يوم فارسا أمام ناعسة الاجفان ، لعل الحبيب القاسى يرحم الفؤاد المعذب ويشفق على القلب الجريح ، ويلقى بنظرة ينبثق نورها من وراء الخمار فيضىء القلب كما ينبثق بهاء القمر من وراء الغمام فيضىء الكون ٠٠

وكنت أرى بهيجة من حين الى آخر وهى تدخل هذا البيت الجميل وتخرج منه فى ثوبها الانيق وصندلها الاصفر الفاقع ، فكنت لا أجرؤ على التطلع اليها ، أماهى فكانت بين الحين والحين ، اذا رأتنى أمام باب الدهليز أو واقفا أمام صندوق الحاجة مقبولة ، على ناصية الزقاق أتطلع الى قطع الكراملة الجميلة أو أنظر الى حبات الحمص التى كانت فى عينى كحبات الذهب تماما ، كانت تلقى على بعض النظرات ، ولكنها سريعا ما كانت تستردها فيما يشبه الضيق لمنظر كريه ، وكنت لا أدرى هل كان مبعث هذا الضيق هو منظرى الذى كان يبعث على الضيق فعلا ، أو هو منظر ذلك الكلب الاجرب الكريه الذى كان يلازمنى دائما ، ويلتصق بى دائما ، كما لو كناأخوين ، أو كما لو كان بيننا حب قديم مفقود ٠٠ غير أنها ذات مرة رأتنى وكنت أجلس القرفصاء أمام الدهليز ، ومن حسن الحظ لم يكن الكلب بجوارى هذه المرة ، فوقفت ونظرت الى فى حنان كبير ، وقالت ووجهها الطفل يكتنفه شىء ، شأن من يتأسف حقيقة :

ـ لماذا تبكي يا ٠٠ ؟
وأردت أن أقول شيئا ٠٠ ولكنني قلت :

ـ لانني لم أر أمي من يومين ٠٠
فقالت وهي تنظر الي فيحنان :

ـ ولماذا تجلس وحدك ؟

ـ ماذا أعمل ؟
ـ العب

ـ مع من ؟
ـ معي ٠

وما كدت أصدق أذني ، ولما حاولت أن أنظر اليها ثانية ، كانت قد وضعت يدها على كتفي وجرتني الى جوارها ، ومن ثم رحنا نركض جنبا الى جنب في الزقاق ، وما هي الا لحظات حتى بلغنا الجرن ، وكان ممتلئا بالاطفال ، يلهون ويلعبون ، فاشتركنا معهم ، ولكننا ـ دون أن ندري ـ وجدنا انفسنا أنا وبهيجة نتخلص من اللعب مع الاطفال جميعا ، وألعب أنا وهي فقط ٠ ولا أدري كيف مر هذا اليوم أو هذه الليلة ، ؟ لانني كنت من فرحتي لا أعرف كيف أفرق بين نهار أوليل ، ولكن الذي أعرفه جيدا ، أنني عندما ذهبت الى الدهليز في وقت متأخر من الليل ، واستلقيت على ظهري فوق أرضه الرطبة وأطبق على ظلامه ، أحسست بأنني فـرح ، وأنني مبتهج ، وأنني أسعد الناس بكل شيء حتى هـذه الارض الرطبة التي أنام فوقها ، وبهذا الظلام الكريه الذي يطبق على ٠٠

ومن فضل الله أن هذه السعادة دامت واتصلت أسبابها ، فقد أصبحت أنا وبهيجة كأننا أخوان برغم هذا الفارق الكبير الذي بيننا ، وأسعدني أكثر من هذا كله ، أنها كانت عطوفا بي ، حنونا على ، تحاول دائما أن تجعل الابتسامة لاتفارق ثغـري ، وكانت تحاول ألا تظهر لي عطفها حتى لا أستشعر بعض الخجل اذا ماغمرني هذا العطف الذي لا أستحقه ، وكانت في هذا ـ برغم طفولتها وصغر سنها ـ لبقة الى حد كبير ، فمثلا عندما كنا نذهب معا الى الحاجة مقبولة لنشتري منها الكراملة أو الفول السـوداني أو الحمص ، كانت تشتري ماتريد وتضعه في جيبها دون أن تأخذ منه شيئا ، ولما ننصرف ونصبح في عزلة عن الناس تخرجه من

جيبها وتقتسمه معي مناصفة ، وقسمة عادلة ، لايزيد أحدنا على الآخر حتى حبه واحدة من السوداني أو الحمص ٠٠

وأذكر مرة أنها اشترت بمليم ، كانت لاتملك غيره في ذلك اليوم ، اشترت به ثلاث حبات من الكراملة ، ولما أرادت أن تقتسمها معي اعترضتها الحبة الثالثة التى عجزت أسنانها عن كسرها ، ولما ضايقتها هذه كثيرا ، وأتعبت أسنانها ، ورفضت أنا أن آخذها كاملة ، ألقت بها في الطريق !

ومازلت أذكر هذا الحادث جيدا ، وأذكره بشيء كثير من الألم ، لانني يومها تصرفت تصرفا سخيفا للغاية ، ولا أدرى الى الآن كيف تصرفت هذا التصرف السخيف ؟ فقد غافلتها يومها وانتظرت حتى دخلت بيتها ، وعدت الى المكان الذى كنا نقف فيه في الزقاق وبحثت عن الكراملة الى أن عثرت عليها في قلب التراب ، فنظفتها وأكلتها عن آخرها ٠٠ ولكن بعد أن فعلت هذا تألمت كثيرا ، حقيقة أنا أحب هذا النوع من الحلوى ، ولعل حبى له هذا الحب المتزايد هو الذى أقام هذا السد المنيع من الكراهية والبغض بيني وبين بائعته الحاجة مقبولة ، ولكني احب بهيجة أيضا ، فكيف آكل شيئا رفضت هي أن تأكله دون أن أشاركها فيه ؟ وقد بلغ من شدة أسفى لهذا الجرم الذى ارتكبته في حقها أنني فكرت جديا في أن أشترى لها شيئا من هذه الحلوى أو غيرها أرد لها به ولو واحدا من آلاف هذه الجمائل التى أغدقتها على ٠٠ ولكن أنى لى ذلك ؟ وكيف لمثلي أن يتحقق له مثل هذا الامل ؟

والغريب أنني كنت برغم الايمان المطلق بالعجز عن تحقيق هذه الغاية ، كنت بين الحين والآخر أنظر الى الارض ، ولا سيما كلما اصطدمت قدمى بشيء ، ومن المؤسف أن قدمي كانت تصطدم دائما بأشياء ، ومكثت كذلك الى أن جاء رمضان ، وما كنت لأظن أنه سيجيء بكل هذه السعادة ، فقد امتدت كثيرا الساعات التى كنت أقضيها في اللعب مع بهيجة ، في الجرن ٠

كما امتد عطفها أيضا ، وراحت تغدق على من كل انواع الحلوى التى كانت تأكل منها أسرتها ولا سيما قطع الكنافه التى كانت تحتفظ لى بها في جيبها كلما صنعت أمها شيئا من هذا الطعام اللذيذ ، كما ادخرت من مصروفها اليومي مبلغا واشترت لى فانوسا ، يماثل فانوسها تماما ، فقد عز عليها أن تراني الوحيد دون جميع أطفال القرية الذين يلعبون في الجرن لايحمل فانوسا ،

وما زلت أذكر تلك الفرحة التي هزت كياني حتى جعلتني أكاد أرتعش من الفرحة وأنا أراني لأول مرة في حياتي أحمل في يدى فانوساً في رمضان وأسير به بين الاطفال جميعا وكأنني واحد منهم لا فرق بيني وبينهم ٠

غير أن الشيء الوحيد الذيكان يضايقني ، لانه كان يحرمني هذه السعادة ، هو عم متولى ، الذى كان يتحتم على أن أذهب به الى المسجد بعد ان ينتصف الليل لادور معه فى الازقة والحوارى نوقظ الناس لتناول طعام سحورهم ٠٠

كان هذاأيضا يضايقني حقيقة لأنه كان يحرمني بهيجة ، وكان يحرمنى اللعب فى الجرن مع الاطفال ، وكان يحرمني أيضا أن أحمل هذا الفانوس الجميل الذى اختلفت ألوانه والذى كانت ألوانه هذه تزداد بهاء ، والشمعة مضاءة في قلبه ، وكأنها تماما مضاءة في قلبي أنا ، غير أنني كنت مضطرا الى مرافقة عم متولى فقد كنت أنا وأمي كما قدمت ننتظر طلعة هذاالشهر كما ينتظر الحائر في الظلام طلعة النور تماما ، وأى نور هذا الذى كان يعم ويملأ قلوبنا ونحن نستروح بعد طول انتظار رائحة الشـواء ، وننعم بشهيتها التى كانت تغمر أنوفنا ونحن نمصمص عظـم الدجاج وأجنحة الاوز التى كان يمتلىء بها جوال عممتولى فى بعض ليالى هذا الشهر المبارك ٠ ومع ذلك فقد كان شعورى بالضيق عندما أفترق في الليل من بهيجة ، وأذهب الى عممتولى يكاديثقل على من ليلة الى أخرى ، الى أن انفجر هذا الضيق فجأة ذات ليلة، وتفجر عن سعادة ماكنت أظنها ستكتب لى ، حتى لو ظللت آلاف السنين أنظر الىالسماء أو أتطلع الى الارض ٠٠ فقد كنت أسير فى هذه الليلة متعبا مرهقا ومعى عم متولى الذى أجره خلفي وندور حول البيوت كما تدور الماشية في الساقيه تماما ، أنا أدق له على الطبلة ، وهو ممسك بالفانوس والجوال على كتفه ، يترنم بصوته الأجش منادياعلى أصحاب المنازل بأسمائهم التى كان يضفى عليها من الرتب والالقاب كل ما واتته به ذاكرته التى كانت تستوعب الكثير من ألفاظ الثناء والمديح يهيلها على كل صاحب بيت ، فقيرا كان أم غنيا ، خادما كان أم سيدا ٠

كنا نسير كذلك الى أن تصادف وألقيت نظرة الى بعيد ، فرأيت شيئا تعالت له دقات قلبي ، وابتهجت له ابتهاجا كثيرا ٠ فقـد رأيت العمدة متربعا فوق المصطبة يتناول السحور فى الهواء

الطلق ، وقد امتدت أمامه الطبلية حافلة بعدد من ألوان الطعام الشهي الذى انتشرت رائحته الحلوة من بعيد وانسابت كالعطر في الهواء ، وهمست سريعا لعمتولي وقلت له كل شيء في كلمات قلائل ، وكان سريع الفهـــم ٠٠ وما أن قلت له ماقلت ، حتى انتفخت أوداجه وانطلقت أسارير وجهــه ، وما هي الا لحظـات استرد بها أنفاسه حتى كانت عقيرته في الليل تجلجـــل في الفضاء ، تعدد مناقب العمدة ، وتشيد بسجاياه ، وترفـع مـن قدره وتذكر أفضاله وتضعه في موضع الرسل والانبياء والملائكة أيضا ، بل والآلهة كذلك ، وكان العمدة يستمع الى ذلك كله ، فتنتفخ أوداجه وتعلو بطنه تماما ، ويهز رأسه فخرا وطربا ، وكان هذا المديح أنساه نفسه لأنه ظل يهتز فخرا وهو يأكل ، وعمتولى تتعالى عقيرته الى أن تعب الرجل وجف حلقه وخفت صوته حتى غدا كصوت مواء القط الذى يموت٠

وعند ذلك رفع العمدة يده وأشار الى فاندفعت اليه ككلب الصيد يقفز في جنون ، ولما مثلت أمامه ، ناولني ورك دجاجـــة سمينة تسيل منه رائحة الادام وكأنها رائحة المسك ، ففرحت لذلك ، حتى كدت أتعثر وأسقط على الارض ، وأنا عائد الى عم متولى ، وهل هذه الفرحة التي اخرجتني عن طـــوري هي التي جعلتنى أفعل مافعلته ؟ فبدل أن أضع ورك الدجاجه في الجوال وضعته في جيبي ، ولما تناولت يد عم متولى وبدأنا السير سألني الرجل عما أغدقه علينا الحسيب النسيب عمدة القرية ، وكذبت عليه وقلت وأنا أتصنع الغضب :

ـ لقد أعطاني بقايا من عضم الدجاج ٠

فأربدت سحنة الرجل وقال وهو يســترد أنفاسه في أســف عميـــق :

ـ ياله من رجل وغد ٠ ويالها من دنيا لئيمة يابني ٠ !

وكدت أحس بشيء من الالم لانني كذبت على الرجل ، ولـــكن رائحة الادام التي كانت لاتزال تتصاعد من بين أصابعي وتملأ خياشيمي جعلتني أفضل هذا الكذب على أي شيء سواه !

وظللنا نسير حتى بلغنا الدهليز ، وتركت الرجل وهربت ، ومن ثم اختفيت عن الانظار جميعا ، وجلست بجانب الحائط في الظلام ، وأخرجت من جيبي ورك الدجاجة ، وما أن عمت رائحته الزكية وكدت أقربه من شفتي ، حتى تذكرت شيئا ، أوقفني عن

الأكل ، وجعل يدى ترتد بالكنز الذى فيها ، وتذكرت بهيجة ، وتذكرت عناية السماء التي أتاحت لى هذه الفرصة ، ومكنت لى دون أن أدرى أن أقدم هدية لبهيجة ، التي قدمت لى آلاف الهدايا.

حقيقة ان هذه الهديه ليست عندها بالشيء الغالى أو الشيء الجديد ، فهي كما حدثتني ، كثيرا ماتأكل الدجاج واللحم وغيره من أطايب الطعام ، وهي صادقة في ذلك ، لانني كثيرا ماكنت أرى ريش الدجاج ملقى فى الحارة أمام بيتها ، ولكن أليست هذه هدية على أية حال ؟ انها من غير شك هدية قيمة ، والا ماسال لها لعابى الى هذا الحد ٠٠ حتى لو كانت تأكل هى منها كل يوم كما تقول ٠ وحمدت الله لانني تمكنت من أن أقدم شيئا لبهيجة ٠ ولكن أين هى الآن ؟ ٠٠ هل عادت من الجرن ؟ ٠٠ هل نامت ؟ ٠٠ هل أنتظرها الى الصباح وأبقى الهدية معى حتى ألتقي بها ؟

وبينما أنا افكر فى هذا كله ، اذا بى ألمح بهيجة مقبلة من بعيد تحمل فانوسها الاحمر الجميل ، فهممت أن أناديها ، ولكنى رأيت أمى تخرج من باب الدهليز تبحث عنى ، فخشيت أن ترانى دون أن أتمكن من اعطاء الهدية الى بهيجة ، وهي لو رأتها معى ، فسوف تؤنبني تأنيبا كبيرا ، لأنني سأخص غيرها بهذه الهديه الغالية ، لذلك انزويت في الحائط والتصقت به ، فلم ترنى من حسن الحظ وعادت ثانية الى الدهليز ، وكانت بهيجة قد أقبلت ، فسحبتها من يدها سريعا وعدت بها راكضا الى الحارة حتى نبتعد عن باب الدهليز ، وهي تسألنى الخبر فلم أذكر لها شيئا ، حتى بلغنا نهاية الحارة في مقابلة المسجد الذى كان مضاء وحافلا بالمصلين، وهناك سألتني ماذا أريد ؟ فلم أقل لها شيئا في أول الامر ، فقد كنت أريد أن أمدفي عمر هذه الفرحة طويلا ، وهل كنت أصدق انني سأفرح الى هذا الحد ؟ ولهذا رحت أحاورها وأداورها ، وكلما سألتني وألحت في السؤال أنكرت عليها ، فمرة أقول لها كراملة، ومرة ترمس ، ومرة سودانى ، ومرة كنافة ، الى أن سمعت فجأة صوتا من خلفي يخاطب بهيجة قائلا :

ـ أما زلت ساهرة الى الآن ؟

فالتفت سريعا، فاذا به حضرة الناظر ، ومعه عم متولى ، يسيران جنبا الى جنب بعد أن انتهت الصلاة ، فتركتنى بهيجة ، وارتمت فى أحضان والدها ، وهى تقول له وتضحك فوق صدره : كنت

أنتظر حتى تخرج من المسجد ٠٠ وهما بالسير ، وأنا من خلفهما، أتحين لحظة أنفرد فيها ببهيجة ، ولكننى فجأة وقفت وكأن قدمى قد سمرتا فى الارض ٠٠ فقد سمعت عم متولى يقول للناظر وكأنه يتمم حديثا كان متصلا :

ـ وان شاء الله الاقامة ستكون فى مصر ذاتها ؟
ـ ان شاء الله ٠
ـ والسفر غدا ٠٠ غدا ؟
ـ فى قطار الثامنة مساء باذن الله ٠

سمعت فلم اصدق ٠٠ ودارت بى الارض ٠٠ وظلت تدوربى بقية الليل ، والنهار كله ، النهار الذى افتقدت فيه بهيجة فقدانا تاما ، كما ظلت عيونى اليوم بطوله مسلطة على باب دارها ، فلم أر سوى أشباح من النساء والرجال يخرجون ويدخلون بيت الناظر يودعون سكانه ، الى أن رأيت قبيل الغروب جمعا كبيرا يتقدمه العمدة يفد على بيت الناظر ، وظلت الدار تموج بالناس الى أن اقتربت الساعة من الثامنة ، فرأيت حنطور العمدة يقف على باب الحارة ، جاء لينقل أسرة الناظر الى محطة الدلتا فى القرية، ورأيت الست زوجة الناظر ومعها بهيجة تخرجان وسط جمع من نساء القرية حتى ركبتا الحنطور ، ومن ثم خرج حضرة الناظر ، وبجانبه العمدة ، ثم ذلك الجمع الغفير من أهل القرية فى طريقهم الى المحطة ، ورأيتنى دون أن أدرى أسير فى أعقاب هذا الجمع ، وفى صدرى شىء لاأدرى ماهو ، وظللت أسير خلفهم وفى صدرى هذا الشىء ، الى أن بلغ هذا الجمع الصغير محطة القرية وأنا معه، ووقفت أتلفت ذات اليمين وذات الشمال وأقف على أطراف قدمى ٠٠ لماذا ؟ ٠٠ لاأدرى ٠٠ هل أنا أريد أن أتفرج على القطار ، كما كنت أفعل اذا ذهبت الى المحطة ، أو أنا أريد أن أتفرج على هـذا الجمع الكبير الذى جاء ليودع حضرة الناظـر ٠٠ أو أنا أريد أن أروح عن صدرى وأخلصه من هذا الذى يرتج فى قلبه ؟ ٠٠

وظللت كذلك الى أن أقبل القطار ورأيته هذه المرة ، على غير العادة ، بشعا كريها يزحف على بطنه فى الليل ، وهو يرسـل صفيره الذى كان فى أذنى يشبه نواح الثكالى تماما ، وكما جاء كذلك انصرف أيضا كذلك ، ولما كاد يغادر القرية ويسير فى قلب الفضاء ، تعالى نواحه ، وأخذ ينعق كما تنعق البومة فى فضـاء

الليل ، ولم أدر لماذا تعلقت عيناي به ، وظلتا معلقتين في أذياله حتي تلاشي وأصبح هذا القطار الضخم في عيني أشبه بذبابة تتناهبها في الليل عاصفة هوجاء ، ووقفت صامتا وكأنني أتأمل شيئا أو كأنني أبحث عن شيء فقد مني في هذا المكان بالذات ·· وظللت كذلك لم أفطن الي وجودي ، الا بعد أن رفعت الي أعلى عيني المبللتين بالدموع ، فرأيت ساحة المحطة التي كانت منذ لحظات تغص بالناس ، موحشة مقبضة للنفس ، ورأيت عم فرج خفير المحطة يقبل من عند الصهريج البعيد يحمل فانوسه في يده ، بعد أن أغلق الطريق خلف القطار ، وأرجع التحويلة الى مكانها ، ورأيته يسير مطأطيء الرأس هو الآخر ويردد مغنيا في عتمة الليل بصوت حزين ينساب موجعا في أذني وأنا أغادر المحطة وأسير ببطء في طريقي الى القرية :

زعق الوابور ع السفر قلت رايحين فين
رايحين تغيبوا سنة ولا تغيبوا اتنين
ياللي قليتوا الفؤاد ياكحلة جوا العين

وظللت أسير ·· وأسير · الى أن بلغت فناء الدهليز ، ومع انني أعلم الناس بوحشة ظلمته في الليل ، فان ظلامه في هذه الليلة كان كريها ومخيفا الي حد بعيد ومع ذلك استلقيت لأتخلص من هذه الدموع التي مازالت تسيل فوق خدي ، ومن هذا الشيء الثقيل الذي يرتج في صدري ، وبينما أنا كذلك أتقلب فوق أرضه الرطبة ذات اليمين وذات الشمال ، اصطدمت يدي بشيء ثقيل في جيبي ، فتبينته ، فاذا به ورك الدجاجة فنظرت اليه ، فاذا برائحة العفن الكريهة التي تتصاعد منه تكاد تخنق أنفاسي ، فمددت يدي في هدوء وألقيت به الي الكليب الاجرب الذي لم يقلع عن عادته بعد ، وهي النوم بجواري في فناء الدهليز ·· ومن ثم رحت أنظر اليه وهو يأكله ·· ويأكله عن آخره أمام عيني ··

أشياء لا تشترى

كنت اذ ذاك قد شغلت وظيفة طبيب أول في مستشفى معروف من مستشفيات القاهرة ، واستقر بي المقام فيه ، كما استقرت حياتي في القاهرة بعد عشرين عاما قضيتها في الريف متنقلا بين قراه ومستشفياته ووحداته الصحية ، وعمل الطبيب في الريف مرهق الى حد كبير ، ولكنه مريح أيضا الى حد كبير . ولعل سبب ذلك كثرة المرضى ، وزيادة الدخل ، وقلة النفقات . انك في الريف لاتحتاج أبدا الى مايسمونه موازنة الدخل ، ايرادات ، ومصروفات ..

ان ميزانيتك كلها ايرادات فقط .. وليس من باب يذكر للمصروفات فيها الا نادرا .. وأين تنفق نقودك ؟ .. ان أكثر القرى التي أقمت فيها كانت تكاد تعيش على الشمس .. فان هي غربت غربوا ، حتى ليكاد يتعذر عليك أن ترى فيها شخصا يسير أو تسمع فيها حركة بعد صلاة العشاء ..

أما الاندية التي كانت تسهر الليل في المدن .. فكانت جميعا تعيش على أسمائها .. وانما الذي تجده فيها الميسر .. حتى

لكأنها أنشئت لهذا الغرض .. وأنا بطبعي لا أميل الى المقامرة .. وقد نتج عن ذلك أنني أثريت ثراء كبيرا ، وجمعت أموالا طائلة لم أكن لأظن عندما بدأت حياتي العملية أنني في يوم سأجمعها ، حتى بعد مئات السنين . وقد فرحت بذلك فرحا لايقدر .. وسعدت بما جمعت من مال سعادة كادت تفوق طاقة احتمالي فيها ..

غير أنني عندما استقر بي المقام في القاهرة تكشفت لي حقيقة مروعة .. حقيقة أذهلتني وجعلتني لا أعض بناني فقط وانما أعض على أصابعي كلها غيظا وندما ، على العمر الذي مضى والشباب الذي ضاع والسن التي تقدمت .. فقد عرفت أنني لم أكن على قيد الحياة طيلة هذه السنين ، ولم أعش منها يوما واحدا .. وانما كنت ميتا ومدفونا هناك في أغوار الريف ، تحت ترابه وظلامه ووحشته ومرضاه وأوجاعه ومآسيه ..

وما أن تكشفت لي هذه الحقيقة حتى فجعت ، وزاد من فجيعتي أنني وجدت نفسي ــ ولا أدري كيف حدث هذا ــ أقف بقدمي فوق عتبة الخمسين .. وهذه سن تتغير فيها دائما أشياء ضخمة في حياة كل انسان .. فهي بداية الهبوط الى الارض ..

وأقسى مافي هذه البدايه انها تذكرك بالحياة .. حياة الفتوة والشباب والآمال العراض التي كانت تنير لك الطريق وأنت تصعد الى القمة .. وأقسى مافيها أيضا انها تجعلك تستيقظ فجأة على حقيقة واقعك ، وهو فقدانك لهذا كله .. لا فتوة ولا صحة ولا شباب ، ولا حتى أي أمل .. فقد مر كل هذا دون أن أفطن اليه أو أحس .. وكل الذي فطنت اليه وأحسسته . هو هذه العتبة العجوز التي أقف عليها ، وقدمي هذه المرتعشة التي بدأت تهبط الى الارض .. وهذا واقع مرير وا أسفاه .

ونظرت الى القمة التي أغادرها وسكبت بعض الدموع .. ونظرت حولي فلم أجد الا فراغا موحشا زادني ظلمته لوعة ومرارة .. ونظرت أيضا الى بعيد فرأيت المحطة . محطة العمر . رأيت القطار واقفا .. ولكن هل أستطيع اللحاق به ؟ وجاء الجواب قاسيا .. وقد أثر هذا في نفسي تأثيرا كبيرا . غير أن تعزيتي الوحيدة كانت في شيء واحد فقط .. هو انني مازلت أرى القطار ... وان عيني مازالت قادرة على أن تتعرف على عرباته .. وهذه

تعزية من غير شك .. تعزية فكرت في أن أستغلها ولن أجعلها هي الاخرى تفلت من يدى .. كما أفلتت من يدى الزهرةالاولى .. زهرة العمر .

وكان أن عشت فعلا .. قطنت وحدى في بيت أنيق على النيل تحوطه حديقة واسعة ذات أشجار وزهور .. ونسقت البيت تنسيقا جميلا ، وأثثته أثاثا فاخرا بحيث يستطيع البلبل أن يسكن اليه ويملأه تغريدا .. كما اشتريت سيارة فاخرة كانت لجمالها وروعتها تكاد تكون محط أنظار كل عين .. ولما رتبت هذا كله ونظرت اليه .. أحسست أن شيئا ما ينقصنى .. أحسست أن شيئا ما آخر أنا في حاجة اليه . ولكن ماهذا الشيء الذى ينقصنى .. الذى أحس به .. الذى يلح على هذا الالحاح الغريب ؟ وأخيرا عرفته .. عرفت أنه البلبل الذى يسكن هذا العش ..

وراودتنى فكرة .. هى أن أتزوج .. وألحت على هذه الفكرة الحاحا غريبا .. غير اننى بشيءمن الصبر .. ومن التريثوالأناة .. نحيتها بعيدا .. نحيتها في عنف وقسوة .. ولم أسمحلها أن تعاودنى ثانية .. ان الفتاة التى تتزوجنى وأنا في هذهالسن .. في الخمسين من عمرى .. لابد أن تكون واحدة من اثنتين .. اما طامعة في مالى .. وهذا أسوأ مايمكن أن يحسه أى زوج ويعيش فيه .. اننى في هذه الحال سأكون زوجا بلا زوجة .. وتكون هى ايضا زوجة بلا زوج .. اذ سيصبح عالمانا منفصلين كل الانفصال .. وان التقيا يوما فسوف يكون هذا اللقاء على أنقاض الشرف حتما .. والشرف ـ كما عرفته كفلاح عاش في الريف واستطاع أن يعرفه على حقيقته ـ لم يكن قط كلمة تقال .. ولاهو احساس يحس به . انه نبضات تنبض مع القلب . وأنا أعرف كطبيب أن القلب اذا توقف كان الموت .. وأنالاأريد أن أموت .. ومن منا يريد أن يموت ؟

هذه واحدة .. أما الاخرى التى تريد أن تتزوجنى دون أن تطمع في مالى .. فلا بد أن يكون قد فاتها القطار .. والمرأةالتى يفوتها القطار تختلف اختلافا كبيرا عن الرجل اذا فاته القطار .. انالرجل قد تلهيه عدة مشاغل عن التفكير في القطار .. حتى لقد ينسى أحيانا أن هناك قطارا اسمه قطار العمر ويتحتم عليه أن يلحق به .. بل هو لايكاد يفطن الى وجوده الا اذا دوى

صفيره فى أذنيه كما حدث لى تماما ‥ أما المرأة فهى منذ أن تولد لا هم لها الا أن تركب القطار ‥ فان هو فاتها ولم تستطع أن تلحق به ‥ فلا بد أن يكون فى قدمها مايعوقها عن السير ، أو أن تكون ساقها معوجة ‥ والزوج ليس طبيب عظام لكى يصلح الساق المعوجة ويداوى القدم التى بها عطب ‥

وهكذا تجنبت هذه الفكرة ونحيتها فى عنف ، بل طردتها ، وبشىء من الدموع شيعتها ‥ ولم أكن أعرف الا بعد أن توارت نهائيا اننى انما أشيع حياتى ‥

وعشت بعد ذلك من غير حياة ‥ عشت ميتا ‥ كان الفرق بينى وبين الميت بسيطا جدا ‥ الميت مدفون فى بطن الارض ‥ أما أنا فمدفون فوق ظهرها ‥ وكان هذا يثير عجبى ‥ ويزيد دهشتى ‥ اذن لماذا يكون قبرى أنا هو الذى فوق الارض ؟ ‥

انتقلت الى قبرى (الثانى) وجلست فيه ‥ ورحت أجوب به أنحاء القاهرة فى الليل ‥ وأمر على الاحياء الذين يعيشون ‥ والسعداء الذين يحيون ‥ وأرى القاهرة فى الليل . وأضواءها التى تتلألأ ، والجمال الذى تنعكس عليه أنوارها فتحيله الى مايشبه الماس الذى يتعرض للنور ‥ وأرى الرجال والنساء والاطفال والطرقات والضحكات التى تخرج من القلوب فتطبع حمرتها على الشفاه ، وبهاءها على الثغر ، ونورها فى العين ‥ أرى هذا وأحسه ‥ أحسه على حقيقته ‥ أحسه أكثر من غيرى ، لاننى أراه بقلبى ولم أره بعينى ، لان الميت لايبصر ‥ فأتعجب لاننى الوحيد الذى اختلفت عنهم جميعا ‥ ألم يكونوا جميعا أحياء ؟ ومن الظلم أن تلقى بين الاحياء بجثة رجل ميت .

وظللت كذلك الى أن حدث ذات ليلة وكانت شتاء على ماأذكر وكنت أجلس وحيدا فى قبرى الكبير بجانب المدفأة أطالع كماهى العادة وأصغى من حين الى آخر الى رذاذ المطر الذى ينهمر خلف الزجاج ويتساقط عليه نقاطا كالدموع . وفجأة سمعت رنين جرس الباب الخارجى يدق فى هذا الوقت المتأخر من الليل . فدهشت ، اذ من الذى يطرق بابى فى هذا الوقت ‥ أو حتى فى غير هذا الوقت ؟ ‥ ولما عاد الجرس يدق ويدق دقات سريعة مرتعشة ‥ نهضت ، وماان فتحت الباب حتى رأيت شبحا يلتف فى ثياب سوداء غارقة فى الماء ويدلف مترنحا وهو يئن أنينا مرتعشا كما لو كان مطعونا بسكين طعنة قاتلة ‥ وما أن التقى

بأول مقعد قابله في طريقه ·· حتى ألقى بجسده عليه وهـو يترنح ·· وما أن تبينت وجهه حتى عرفت من خلال حبات العرق التى تغمره وصفرة الشحوب التى تغطيه ·· انه وجه سيدة ·· وقبل أن أقول لها شيئا ، قالت هى بصوت محمـوم وهى تئن وتغرس أصابعها فى مسند المقعد الجالسة عليه من ثقل ماتعانى من ألم :

ــ قالوا انك طبيب ·· ألست كذلك ؟

وكنت قد اضطربت فلم أجب ، فقالت معقبة :

ــ اعذرنى ان كنت أقلقتك فى هذا الوقت ··

ثم قالت وهى تحاول أن ترفع ذراعها لتشير باصبعها ، ولكنها لم تقدر :

ــ اننى أقطن هذه الفيلا التى تجاورك تماما ·· ولما فاجأنى المرض فى هذه الساعة ولم أجد من يسعفنى جئت اليك ·

ثم تمتمت وهى تغمض عينيها فى جهد كبير ويخفت صوتها :

ــ قلت لك اعذرنى ··

وكنت ما أزال فى حيرتى ولم أدر ماذا أصنع ·· ؟ وكأنها فهمت خطأ لانها فتحت عينيها وقالت وهى تنظر الى هذه المرة :

ــ قل لى هل أنت طبيب حقيقة ؟ ··

فقلت وأنا أغلق الباب الذى كنت قد تركته مفتوحا خلفها :

ــ أجل ، ولكن هذه ليست عيادة ··

ــ قلت لك اعذرنى ·· اننى أموت ·· اننى أتألم ··

وعرفت أنها تعانى نزلة حادة فى الكلية اليسرى ·· وكنت من حسن الحظ ــ حظها هى ــ مصابا بالداء نفسه وتنتابنى هذه النزلة من حين الى حين ·· وأحتفظ عندى دائما بحقنة مخدر أحقن بها نفسى لتسكين الآلام ·· فأسعفتها على الفور ·· وما أن سرى المخدر فى جسمها حتى غابت عن كل شىء وعـن الآلام التى تعانيها ·· وأغمضت عينيها ، ومن ثم راحت تسبح فى نوم عميق ·· وكاد يسرنى أننى خففت عنها بعض آلامها ·· غير أن مشكلة جديدة نبتت ضايقتنى ·· وهى ملابسها هذه المبللة بالماء التى تغطى جسمها كله ·· وكيف يتحتم عليهـا أن تغيرها فورا حتى لاتصيبها البرودة بسوء ، وتضاعف آلامها من جديد ·· وحاولت أن أوقظها ولكنها كانت فى حالة تخدير تام ··

وكان لزاما على ان أصنع شيئا ٠٠ أن أبدل لها ولو ملابسها الخارجية ٠ وقد لاقيت فى ذلك عناء شديدا ، ولكنى استطعت فى النهاية أن أنزع عنها ملابسها الخارجية المبللة ٠ وجئت لها بغطاء ثقيل من الصوف طرحته عليها ٠٠ ومن ثم جلست أمامها أجفف لها ملابسها وألهث من الجهد الذى بذلته ٠٠ ولكنى لم أندم ، بل شعرت بسرور زائد لأننى استطعت أن أخفف عن مريض بعض آلامه ٠٠

ونظرت اليها وهى ممددة أمامى على المقعد المستطيل النائمة عليه ٠٠ وطالعتنى قسمات وجهها التى تختلج فى النوم ٠٠ ورأيت من خلال صفرة الشحوب الذى يكتنفه شيئا من الجمال يتألق فى هذا الوجه الشاب ، وهذه القسمات المضطربة ٠٠ ورأيت استدارة الجبين ونصف دائرة العين الغافية المسبلة ٠٠ وحاولت بفطنتى أن اعرف شيئا من هذا كله ، وأن أقف منه على سر ولكنى عجزت ٠٠ وكل الذى عرفته ـ لانه كان يخصنى أنا ـ اننى أحسست باشفاق زائد على مخلوق تعس جاء يطلب العون ٠٠

ولما جاء الصباح، وكنت لا أزال أجلس أمامها فوق مقعدى الذى لايفصله عن مقعدها سوى النار المتصاعدة من المدفأة ٠ ٠ كانت آثار المخدر قد خفت ، وكذلك حدة المرض ، وفتحت عينيها ونظرت حولها فى دهشة ، وقالت تسأل نفسها ٠٠ أين هى ؟ وأين تبيت ؟ ومن هذا الرجل الذى أمامها ؟ ٠٠ وأردت أن أطمئنها فقلت :

ـ كيف صحتك الآن ؟ ٠٠

ـ الحمد لله ٠٠ ولكن كيف قضيت الليل هنا ؟ ٠٠

ثم عادت ونظرت الى المكان الذى هى فيه ٠٠ والمقعد النائمة عليه ، وثيابها الخارجية التى كنت قد نزعتها عنها ٠٠ وجففتها لها ٠٠ والغطاء الصوف الذى طرحته عليها ٠٠ ثم الى الرجل الذى قدم اليها هذا الصنيع ٠٠ وقالت فى خجل كثير متمتمة :

ـ اشكرك ٠٠

ثم نظرت الى هذا كله مرة أخرى ٠٠ وقالت :

ـ لقد أتعبتك ٠٠ ولكن اعذرنى ٠٠ ان هذا الداء عندما يعاودنى يفقدنى صوابى ٠٠

وصمتت قليلا ، ثم قالت وهى تمسح على شفتيها الجافتين ٠٠

بلسان أكثر جفافا :

ـ لم أكن أعرف أنك طبيب الا منذ أيام ٠٠ وأيضا لم أكن أعرف أن هذا البيت قد قطنه أحد ٠٠

فقلت وأنا أريد أن أبتسم :

ـ وأنا أيضا لم أعرف حتى أن بيتا يجاورنى ٠٠

فقالت فى دهشة وهى تشير الى نافذة تطل على مبنى يجاورنا :

ـ ألم تر قط هذه الفيلا ٠٠ ؟

ـ أحيانا يرى الانسان أشياء ولكنه لايبصرها ٠ ٠

ثم بعد حين اتصل الحديث بيننا ثانية ، وتكلمنا فى أشياء كثيرة ٠٠ فى الحياة والدنيا والمرض ٠٠ وهذا الداء الذى يعاودها من حين الى حين ٠٠ ويعاودنى أنا أيضا من حين الى حين ٠ ولما أرادت أن تنصرف حاولت أن تعطينى نقودا فرفضت ٠ ولكنها فى اليوم الثانى بعثت الى بهدية غالية ٠٠ وكتبت لى معها كلمة شكر ، فلم أشأ أن أردها حتى لا أمس كبرياءها ٠٠ واستطعت خلال ذلك أن أعرف الكثيرعن حياتها، وأن أعرف سر هذهالشفاه المنطبقة دائما ، وسر هذه العيون المتكسرة دائما ٠ وهذهالأهداب المسدلة عليها والتى تشبه الستر الداكنة التى تحجب النور٠٠

انها سيدة من أسرة عريقة جدا ، وثرية ثراء كبيرا ٠٠ وقد ورثت أموالا طائلة مازالت تحتفظ بها جميعا ٠٠ وكانتمتزوجة من رجل تحبه ولكنه مات وترك لها أيضا ثروة طائلة ، وكانت تعزيتها فى فقده طفلها الذى أنجبته منه ٠ والتى كانت ـ كأية أم ـ تحبه حبا جنونيا ، وتسهر عليه وتنفق حياتها على سعادته، ولم تشأ بعد أنحرم الطفل أباه أن تحرمهأيضاأمه ان هى تزوجت، فترملت عليه وأوقفت حياتها على تربيته ٠٠ وضحت بأنوثتهافى سبيل اسعاده ٠ وكانت بذلك سعيدة وهانئة ٠ سعيدة سعادة لاتستشعرها الا كل أم ٠ ولم تكن لتدرى أن هذا كله (سيتبخر) فجأة ٠٠ وأن هذهالسعادة التى تعيشها وتنعم بها لم تكن الا ذرة تذروها أية ريح عابرة ٠٠ وأن الذى سيبقى لها هو هذا الحزن القاتل الذى تعيش فيه ٠٠ منذ سبع سنوات ٠٠ منذ أن مات الطفل بعد أن شب عن الطوق ٠٠ واقترب من الشباب وراح يملأ عليها الدنيا أمنا وأنسا وابتهاجا ٠٠ أثر حادث لم يكن فى الحسبان ٠٠ أودى به وأودى بدنياها معه ٠٠

قالت لى ذلك كله ذات ليلة كنامعانحتسى (فنجانا) من الشاى

في بيتها .. وكأنها بعد أن قالت لى هذا الذى قالته ، فطنت الى الخطأ الذى تورطت فيه لانها أطلعتنى على سرها وحملتنى معها بعضا من آلامها .. لأنها لاحظت الأسى الذى ارتسم على وجهى، فأطبقت شفتيها وأطبقت عليهماهذه المرة فى عنف وقسوة ، حتى لكأنها كانت تؤنبهما لانهما باحتا لى بما باحتا . وصمتت هى .. وصمت أنا .. وامتدت بنا هذه اللحظات من الصمت ، هذا الصمت الذى لايعرف كنهه الا كل من له قلب عرف معنى الحزن، وظلت صامتة الى أن حانت منها نظرة الى وجهى المكتئب فقالت وهى تكاد تدمى بنانها :

ـ آسفة اذ سببت لك بعض الألم .

فلم أجب ، ولكنى قلت بعد حين :

ـ ولكنك اذا عرفت أن الموت هو سبيلنا جميعا .. خفت وطأة هذه الأحزان .. أليس كذلك ؟

فغلبتها بعض الدموع ، وقالت وهى تمد يدها لتجففها قبل أن أراها :

ـ اننى أكثر ايمانا مما تظن .. وأعرف ذلك جيدا .. ان حزنى لم يكن من أجل موته .. بقدر ماهو لأننى أنجبته .

فلم أفهم قصدها فى أول الامر .. وفطنت هى الى ذلك ، فابتسمت فى مرارة وهى تقول :

ـ أتعرف الحديث الشريف الذى يقول أكرموا عزيز قوم ذل .

وأحسست انها تريد ان تبتعد بى عن هذا الحديث فقلت :

ـ ولكن ماشأن هذا بحديثنا ؟

فازدادت ابتسامتها مرارة وهى تستطرد :

ـ القصد به الكريم الذى يهان .. والغنى الذى يفتقر .. والقوى الذى يضعف ، والصحيح الذى يمرض .. وذلك لأن هؤلاء جميعا ذاقوا السعادة ثم حرموها .. وشقاء الذين يفقدون السعادة .. أكثر من شقاء الذين يبحثون عنها ..

ثم قالت وهى تريد أن تبتسم :

ـ هل الذى لم يذق طعم التفاحة ، يعنيه أن يأكلها ؟ .. .

ـ لا .. طبعا ..

فقالت وهى تخاطب نفسها هذه المرة :

ـ لماذا اذن ذقت أنا طعمها ؟ . لماذا ذقت حلاوةالامومة ؟ ..

فقلت وأنا أنظر اليها ·· كأنى لا أراها ·· ولذلك لم أدرماذا أقول ؟

ــ ان الوقت مازال فى جانبك ··

ــ ماذا تقصد ؟

ــ أقصد أن فى استطاعتك أن تأكلى التفاح وأن تذوقى طعمه مرة ثانية ··

فأربدت سحنتها ·· ولوت شفتيها ومدتهما وكأنها تمتعض من شىء كريه سمعته ·· وقالت بعد صمت :

ــ انك طيب القلب أيها الطبيب ·· انك تريدنى أن أتزوج أليس كذلك ؟

ــ ولم لا ؟ ··

فتعالت قهقهات ضحكاتها الجافة ترن كالصدى فى أذنى ،ثم قالت :

ــ ومن الذى سيتزوجنى ؟

ــ كثيرون ··

ــ من أجل مالى ، أليس كذلك ؟ ··

وما أن قالت ذلك حتى أحسسـت بقلبى يرتعـش فجأة ، وينتفض كما لو كان أصيب بشىء ·· ولما صمت ولم أجبقالت وهى تنظر الى أطراف أصابعها وتتفحصها :

ــ اننى معك ، انهم ليسوا قلة ··

ــ وهل جميعهم يطمعون ؟ ··

فقالت وكأنها تبكى :

ــ لأنه لايوجد بينهم الأبله الذى يتزوج امرأة تخطت الاربعين من أجل الزواج فقط ·· أو من أجل الانجـاب كما تريد هـذه المرأة ··

ــ قد تكون السن مماثلة ··

ــ وما الذى منعه عن الزواج ، حتى فاته القطار ؟ ··

وشعرت بأنني المعنى بهذاالحديث لا هى ·· وأننى انماأتحدث معها عن نفسى وليس عنها هى ·· وضايقنى هـذا الحـديث وأحسست بثقله على نفسى ·· فأنهيت الجلسـة سريعـا ·· وانصرفت ، وذهبت الى بيتى لأنام ·· ولكنى لم أنم ·· لقد كنت أظن أننى أنا وحدى الميت بين هؤلاء الأحياء جميعا ·· وأننى أنا

وحدى الذى دفن فى قبر فوق ظهر الارض ·· فاذا بى أجد من يماثلنى فى كل شىء ·· حتى فى الموت الذى نعيشه ·· حتى لكأن القطار الذى فاتنا خلفنا جثثا بعد أن مرت عجلاته فوق اجسامنا · يالله · ! من الذى ألقى بهذه المرأة فى طريق وحدتى ، وربط عجلتها بعجلتى ، ومشاعرها بمشاعرى ، ودنياها البائدة التى تعيشها بدنياى النائية التى عشتها ؟ ·

أشياء كنت أحس أننى أفكر فيها بعمق ، وكنت أحس بهذا العمق يزداد غورا كلما رأيتها ورأيت منها تلك النظرة المرتعبة التى تتدهور من عينيها كما تتدهور تماما أنفاس المريض الذى يموت · ولما أحسست بثقل الأشياء على نفسى ، وأننى غير قادر

على احتمالها ، فكرت فى أن أبوح لها ببعض منها ·· ولكنى لم أقدر ·· كنت أخشى أن أقتل نفسى ان قالت لا ·· وأخيرا تشجعت وقلت لها كلاما تركته معلقا حتى أترك لنفسى فرصة أخرى تعيش عليها ولو الى حين ·· قلت لها :

ـ ما رأيك فيما لو صحبنا ثالث على الشاى فى بيتك غدا ؟

وكأنها كانت معى تقرأ كل أفكارى هذه الطويلة التى عشتها وتحفظها أيضا عن ظهر قلب ، وتعيش فيها هى الأخرى كما عشت أنا فيها ·· لأنها لم تجب ولم تنطق ·· وكل الذى فعلته أنها قالت وهى تنصرف بعد حين ، وبصوت فيه الكثير جدا من الحياء والخجل :

ـ انه بيتك ولك أن تدعو له من تشاء ··
وتزوجنا ··

·· ·· ·· ··

أنا لم أدخل الجنة ·· ولا أظن أن غيرى دخلها أو يعرف شيئا عنها ·· ولكن الذى أؤكده ، بعد كل الذى قرأته عنها ·· انها لاتزيد فى بهجتها عن الجنة التى نعيشها على الأرض ·· وقد عرفت ذلك بعد أن اتضح لى هول الخطأ الذى كنت أتورط فيه ·· والجرم الذى ارتكبه مع نفسى ·· لقد عرفت أن الشقاء الذى يعيش فيه الانسان ويضع به على عينيه تلك (النظارة) السوداء التى تريه دنياه حالكة السواد ·· ما هو الا وهم كبير نتورط

فيه ·· حتى أفكاري التي كنت أجلس اليها فيما مضى وأمحصها وأخرج منها دائما بالصائب من الأمور ·· حتى هذه لم تكن هي الأخرى الا صفة من صفات التورط فى الجهل وقصر النظر وعدم ادراك الحقائق ·

ان الدنيا أكثر سعادة مما نظن ·· وأكثر هناءة مما نعتقد ·· وليست الكهولة أو الشباب ·· أو القطار الذى يفوتنا والقطار الذى نلحق به ، الا أنماطا من هذه الاوهام التى نعيشها ·· والعمر فى شتى مراحله ·· ما هو الا ما يكمن فى نفسك من احساس وشعور ·· ونور يغمر عينيك ·· وظلام تعصب به رأسك ·· والا فكيف تبدلت حياتى هكذا فجأة ·· وتبدلت أنا معها ·· بهذا الانسان الجديد ·· بانسان آخر خلق خلقا جديدا ؟ ··

لقد أصبح كل منا : أنا وهى ·· انسانا غير الانسان الذى كان ·· انسانا يعرف كيف يلهو وكيف يضحك ·· وكيف يعيش وكيف يحس بأحاسيس الفتوة والتدفق الذى يحسه كل شاب فى سن العشرين ، وكل فتاة فى سن المراهقة · ولقد ساعدنا هذا على أن نتعلم الكثير من فنون السعادة ·· فضحكنا ومرحنا ، وجبنا الأقطار ، ولم نترك بستانا الا قطفنا منه أجمل زهوره ، واستمتعنا بأجمل عطوره ورياحينه ، وأنفقنا عن سعة ·· ولكننا لم نبذر ، وكنا ننفق بحساب ·· لأن المال الكثير الذى نملكه لم يكن فى الحقيقة ملكنا وحدنا ·· كنا نحس بأن آخر يملكه معنا ·· وأن لهذا المال وريثا سوف يحاسبنا ان فرطنا فيه ·· أو بذرنا فى انفاقه ·· وسوف نجحد حقه ان أسقطناه من حسابنا ·· ولذلك كنا نذكره دائما ·· ونترقب مجيئه من لحظة الى أخرى ·· بل كنا نشركه معنا قبل أن يجىء أو نراه فى كل ملذاتنا ·· فما من تحفة أو لعبة رأيناها وأحسسنا بأنها ترضيه وتسره الا اشتريناها له · واحتفظنا له بها حتى يجىء ·· وكان أغلى ما اشتريناه له هذا الشىء الممتع حقيقة ··

جاءتنى زوجتى ذات يوم والفرحة تتألق نورا فى عينيها وهى تقول : انها ظفرت له بشىء لا يقدر بثمن ·· ولم يتح لأحد غيره على ما تعتقد ·· فقد شاهدت فى احدى صالات العرض

·· غرفة نوم لطفل صنعت فى ايطاليا ، وصنعت بدقه ومهارة وفن ·· وأنها تريدني أن أذهب معها لأشاهدها قبل أن نشتريها ·· وأخذتني الفرحة التي اخذتها تماما ، وفوضت لها أمر الشراء فورا ·· فانصرفت من أمامي سريعا كما ينصرف الطائر السعيد الذى يحلق ، لتشتريها وتعد المكان الملائم فى البيت ·· وانصرفت الى نفسي أفكر فى هذه العاطفة المقدسة التى تجب عواطف الانسان جميعا ، وهي عاطفة الأمومة ·· وفرحة الأم بها ·· وانصرف تفكيرى ، كما هي العادة الى أشياء كثيرة محصتها ، وراودتني فكرة ناقشتها طويلا ·· وعشت فيها أكثر مما عشت فى غيرها ·· حتى وصلت بها ووصلت بى الى شيء غريب أحسسته ·· شيء فيه مزيج من القلق والخوف أيضا ·· وكلما حاولت أن انحيها ألحت على ·· وكلما حاولت أن أبعدها أحسست بها تتزايد ·· ان الشهور التى مرت بنا طويلة ·· طويلة جدا ·· انها تزيد على السنتين ·· وأن زورق الزوجين السعيدين الذى ركبناه قطع بنا أشواطا فى عباب الهناءة دون أن يعوق الزورق عائق ، فلم يرتطم بصخرة ·· ولم يصخب حوله الموج ·· ولم يتنكر له العباب ·· ولم يجد فى وسط الخضم الا كل ما يعينه على السير فى طريقه ·· ومع ذلك فهو لم يصل حتى الآن الى الشاطيء ·· ولم ترس مراسيه عند الجزيرة التى يسير لها كل زوج ·· وتسير لها كل زوجة ··

وفكرت فى السبب وفكرت فى كل شيء ·· حتى أننى فكرت فى أشياء تافهة ·· ولكن ·· حتى التافه من الأمور عنيت به ·· فذهبت الى طبيب تربطنى به صداقة قديمة ومودة دائمه وفاجأته بما أريد ·· فسخر منى كما كنت أتوقع تماماً ·· ولكنه عندما وجد اصرارى وبوادر الشك التى بدأت تلوح كذرات اللهب فى عينى ·· أراد أن يطمئننى وقام فورا بالاجراءات التى تجرى فى مثل هذه الحالات · ولما أخذ كل عينات التحاليل التى أرادها ·· وأجرى على بعضها اجراءاته الأولية ، خرج على من معمله وقال وهو يضحك منى ساخرا : اننى مريض بالوهم واننى مازلت أضع تلك (النظارة) السوداء على عينى تماما كما كنت من قبل ، والا فلم خطرت على بالى هذه السخافات ·· وخرجت من عنده مطمئنا الى حد كبير ·· بعد أن اتفقنا على أن يبعث لى بالتقرير النهائى بعد يومين ·· ولكنى لم أهتم ، فسواء أرسله

بعد أيام أو بعد شهور فقد زالت تلك الشـــكوك السوداء التى كادت تقتلنى ٠٠

وبعد يومين على ما أذكر ، كنت عائدا الى بيتى ، ولما دخلت استقبلتنى زوجتى وكل شىء فيها يضحك كالعادة ، وقالت لى وهى تجرنى الى الداخل فرحة طروبا لترينى الغرفة الجديدة التى اشترتها وأثثتها أثاثا فاخرا ، ان طبيبا اسمه فلان قد اتصل بى ويريدنى أن أتحدث اليه فى بيته عندما أجىء ، فلم أهتم وذهبت معها الى الغرفة الجديدة التى أعدت للانسان الجديد ٠ وكانت الغرفة جميلة حقا رائعة حقيقة كمـــا قالت لى زوجتى تماما ٠٠ ووقفت أنظر الى أثاثها الجميل حينا وحينا الى النور الذى ينبثق من عينى زوجتى فيملأ الغرفة ضياء ٠٠ ومرة ثالثة الى داخـلى فأرى قلبى الذى يروح ويجىء فرحا بين النظرتين حتى كدت من فرط الهناءة أغيب عن نفسى ، لولا أنى سمعت جرس التليفون يدق فخرجت الى الصالة ، وما ان رفعت السماعة وانساب صوت الطبيب الصـــديق فى أذنى ، حتى تخاذلت ذراعى وســـقطت السماعة من يدى ووقفت فى مكانى متجمدا أنظر الى أشـــياء كثيرة أشبه ما تكون بأشباح مرتدية السواد ترقص أمام عينى ٠

وحانت منى التفاتة الى غرفة الطفـــل ، وكان بابها لا يزال مفتوحا ، فاذا بى أرى شيئا عجيبا ٠٠ لقد رأيت فى حيـــاتى قبـــورا لأحياء يموتون ٠٠ ورأيت فى نفسى قبـــورا لأمـوات يعيشون ، ولكنى لم أكن أظن أن فى قلبى قبرا من غـــير ٠٠ رفات !

صورة فى العين

انها قط لم تكن تنتظر منها هذا ، ولذلك عندما بدأ يساورها الشك أبعدته عنها فى غضب ، وفى عنف ، وفى سرعة أيضا ، لأنهـــا لا تريد أن تصدق ، ولا حتى هذا الذى تراه عيناها ، ويكاد يصور شكوكها حقيقة • ولـــكن الليلة ، الليلة بالذات ، ماذا تقول ؟ ماذا تظن ؟ •• والى أى اتجاه يتجه تفكيرها ان لم يتجه الى هذا الظن الأسود ؟ •• و •• ودق قلبها ، وتعـالت أنفاسها ، وعادت من جديد تتلصص على سيدتها من ثقب الباب ، فلم تخب ظنونها •• انها لم تكن قـط سـيدتها الوقور التى تعرف ، والتى تعودت دائما أن تهتم بكل شىء الا بنفسها وثيابها وزينتها ، اذا ظلت فى البيت ، أو خرجت منه فى القليل النادر ، لمقابلة محام أو الذهاب الى طبيب ، أو مقابلة مدير أعمالها ••

ونظرت الدادة مرة أخرى من ثقب الباب ، ونظرت جيدا هذه المرة •• انها تتزين وتتبهرج على غير العادة ، وعلى غير ماتعودت أن تكون • انها تحاول فى هذه الليلة ، أن تكون أجمل منها فى أية ليلة مضت ، ثم هذا الثوب الانيق الذى تفضله هذه الليلة

على غيره ، ثم هذه العجلة ، هـذا القلق الذى يسـاورها وهى تتزين وترتدى ثيابها على هذه السرعة ، ويجعلها تنظر فيمـا يشبه الذعر الى الساعة ، وكلما اقتربت عقاربها من الثامنـة ازدادت ارتباكا ، وازدادت سرعة ، وازدادت أيضـا أنفاسـها تدهورا .. كل هذا على أى شىء يدل ؟ على أى شىء يكون ؟

ودق قلب الدادة العجوز عدة دقات متلاحقة جدا ، حتى كادت تسقط .. فتراجعت عن الباب خطوات ، ومدت أناملها المضطربة لتمنع شيئا يشبه الدموع ، يكاد يتساقط من عينيها . ولكنهـا لم تكد تفعل حتى كانت سيدتها قد فتحت الباب سريعا ،وراحت تقطع البهو الفسيح فى خطوات سريعة أيضا ، تكاد تشبه الركض تماما ، وكذلك أيضا كانت تهبط السلم ، وكذلك تماما كانت تقطع أرض الحديقة .. حتى بلغت سيارتها الفخمة الكبـيرة ، وما ان اعتدلت أمام عجلة القيادة ، حتى تركت العنان للسيارة الفخمة الكبيرة ، فراحت تنهب الأرض وتسير فى جنون من طريق الى طريق ، ومن منحنى الى غيره ، ومن حى الى آخر . كل ذلك وعينها مسلطة على عقارب الساعة الصغيرة الذهبية التى تحـلى معصمها ، وكلما رأت العقارب تكاد تأتى على الثامنة ، اضطربت وتلاحقت أنفاسها ، وزادت من سرعة السيارة ، حتى بلغت مكانا معينا فى طريق ما ، تعرفه جيدا ، فوقفت كما يقف الجـواد اللاهث يسترد أنفاسه ..

وما هى الا لحظات حتى أقبلت سيارة تاكسى ووقفت أيضا ، وهبط منها شاب وسيم فى العشرين من عمره ، ونقد السائق أجره فى خجل حيى يكاد يشبه خجل العذارى ، ومن ثم اتجه فى هذا الخجل الحيى . الذى يلم به كثيرا فى هذه الايام من حين الى آخر ، والذى يورد وجنتيه ويضفى على وجهه الخجول فتنـة رائعة ، وتقدم من السيارة الكبيرة التى تنتظره ، وفتح بابهـا بيده التى تكاد يرعشها الخجل ، وركب بجوارها ، ومان فعل حتى غمرتها فرحة زائدة .. أنارت وجهها كله ، وتألقت عيناها ببريق غريب من السعادة وهى تنظـر اليه وتتأمله . . ليس بعينيها هاتين الفرحتين فقط وانما بكل مشـاعرها ، وكل أحاسيسها ، وكل خلجة فيها أيضا . ورأت أول ما رأت فيـه شيئا معينا بالذات تريد دائما أن تراه على الوضع الذى تحب أن تراه عليه . ولما لم تجده كما تريد .. أو كما تركته آخر مـرة

•• ثارت وغضبت ، وقالت له في عتاب عنيف •• ولكنه عذب ومحبب يملأ القلب أنسا :

ـ ألم أقل لك دائما ألا تصفف شعرك الا هكذا ؟

وبالطريقة التي تمد بها عينيها الى وجهه لتراه ، وتسعد برؤيته ، مدت يدها الى حقيبتها وأخرجت منها مشطا ذهبيا صغيرا ، ومن ثم راحت تصفف له شعره على الطريقة التي تريد أن تراه عليها دائما • وكذلك نظرت الى المنديل الحريري الذي يحلى به صدره ، وكادت تغضب مرة أخرى لما لم تره في مكانه وعلى الوضع الذي تركته عليه ، ولكنها زمت على شفتيها وقالت وهي تداعبه هذه المرة في رقة بالغة :

ـ والمنديل •• ألم أقل لك مرارا أن تضعه هكذا ، وأن يكون هرميا هكذا ؟

وابتسم هو أيضا في فرحة كبيرة ، ولكنه لم يقل شيئا • ولما أصلحت له من وضع المنديل وجعلته على الطريقة التي تريدها ، قالت وهي تنظر اليه مرة أخرى •• وكل شيء فيها هذه المرة يتهلل :

ـ هكذا أريد أن أراك دائما •

ثم أدارت محرك السيارة ، وانطلقت بها في غبش الظلام •• ولكنها لم تسرع بها كما كانت منذ لحظات في جنون كما كانت الحال وهي آتية لتلقاه •• وانما تركت السيارة الفخمة تتهادى بهما في الليل على جانب الطريق •• كما لو كانت زورقا نشوان يسير على وجه الماء ، يرنحه الموج حينا ، ويسكره خرير النهر أحيانا • وظلت السيارة كذلك حتى بلغت بالاثنين مكانا خلويا في طريق الهرم تعودا أن يجلسا فيه في مثل هذه الأمسيات ••

وفي حديقة التورنج الفسيحة ، وفي مكان قصي منها ، وعلى مائدة معينة بالذات •• تعودا أن يجلسا اليها دائما ، جلسا يتبادلان الحديث ، ويتناولان العشاء ، وتحدثا كما تعودا أن يتحدثا دائما ، في أشياء كثيرة •• أشياء تناولت كل شيء •• العمارة الفخمة التي تشيدها على النيل ، والمهندسين الذين يعملون فيها ، وهو الذي تعرفت به عن هذا الطريق ، حيث تخرج حديثا في كلية الهندسة ، ويعمل مساعدا للمهندس

الكبير ، الذى يقوم لها ببناء العمارة ٠٠ وكيف أنها قدرته منذ أول مرة ذهبت فيها الى العمارة ورأته يعمل فيها ، وكيف أنها منذ هذا اليوم لم تذهب الى العمارة الا من أجل أن تراه فقط ، حتى أصبحت حاجتها الى رؤيته لاتقل عن حاجتها الى الهـــواء الذى تتنفس به ، والطعام الذى تعيش عليه ٠٠

وكان هو يستمع الى حديثها فى هذه الليلة ، كما كان دائما يستمع الى أحاديثها فى كل ليلة ٠٠ فى خجـــل زائد ، وفرحة غامرة ، وسعادة تكاد تهز قلبه ٠ انه فى هذه الليلة بالذات كان أكثر منه تفكيرا من أية ليلة مضت ، وكان أكثر الى الاصــــغاء اليهـــا من أية ليلة أخــرى ، وكانت مشــاعره أكثر ارهافا ، وأحاسيسه أكثر اتجاها اليها من أية ليلة مضت ٠ وكان أيضا أكثر خجلا منه فى أية ليلة أخرى ، وقد ضايقه هذا الخجـــل كثيرا فى هذه الليلة بالذات ٠٠ انه يريد أن يقول لها أشياء هامة جدا بالنسبة اليه هو الا ان هذا الخجل الزائد يمنعه كلما هـم بان ينطق ٠٠٠ كلمـا هـم حتى أن ينظر الىعينيهـــا الجميلتين ووجههـا الذى اجمل ما فيه هـــذا الصـفاء الــذى يحيط به ، وهذا الطهر الذى يشع ضياء فى قسماته ٠٠

انه رآها أول مارآها كماقالت له الآن ٠ يوم أن جاءت الى العمارة التى يعمل هو فيها ، وأحس منذ أول مرة رآها فيها انها تخصه هو بالذات بشىء من العطف ٠٠ وبشىء من الحنان ٠٠ ولكنها كانت تحاول ألا تجعل أحدا ، حتى هو يلحظ ذلك أو يحس به ، أو يفطن اليه ٠ وأنها منذ هذا اليوم قد تكـــرر مجيئها دائما الى العمارة ٠٠ بحجة أنها تشرف على العمل باعتبارها صاحبتها ، وان كانت فى الحقيقة انما تجىء اليه هو ومن أجلـــه ، بدليل حديثها الدائم معه بالذات ٠٠ وبدليل أنها هى التى طلبت منه أن يزورها فى بيتهـــا ، وكيف أنه لما ذهب اليهـــا فى الموعد استقبلته فى فرحة بالغة ، كادت تخرجها عن وقارها الذى عرفت به ، وكيف كان كل شىء فيها لحظة هذا اللقـــاء يفيض بهجـة وسرورا ، وكيف أنها منذ هذا اليوم أيضا وطدت علاقتها به ٠٠ حتى أصبح وكأنه جزء من حياتها ٠٠ تطعمه بيديها ، وتنتقى له ملابسه ، وتصفف له شعره عـلى الطريقة التى تريدها هى ٠٠ ويحلو لها أن تراه عليها دائما ، وكذلك منديل الصـــدر الذى تضعه له دائما على الطريقة الهرمية ثم كيف أنها لم تفارقه منذ

هذا اليوم ، منذ هذا اللقاء ، منذ تلك الرؤية التى امتدت بعد ذلك الى كل هذه المرئيات ..

وكان هو يتأمل ذلك كله ويتعمق فيه ويفكر ويضع له نقاطا كثيرة وأسئلة متعددة .. فكانت النقاط فى كل مرة هى هى فوق الحروف التى لم تتغير . وكانت الأسئلة دائما هى هى .. ليس لها غير جواب واحد لم يتغير .. وهو أن هذه العيون التى يتألق فيها كل هذا الصفاء لا يمكن أن يختبىء خلفها الظلام .. وأن هذا الطهر الذى يتألق نوره فى قسمات هذا الوجه لا يمكن أن يعرف الاثم له طريقا .. وأن هذا الجمال الذى مازال فى القمة .. والذى مازال يتربع على عرشه .. لا يمكن أن يكون قد عرف القبح .. أو سوف يعرفه القبح .. وأن هذا القلب الذى يكاد يسمع بأذنيه دقات الطبول وهو يرقص فرحا لرؤيته .. لا يمكن أن يكون قد عرف النفاق .. ولا يمكن أن يكون قد عرف غير الوفاء والحب ..

فكر فى هذا كله .. وفكر فى غيره أيضا وهو جالس قبالتها الى المائدة .. فى هذه الأمسية الرائعة ، وخرج من كل هذا التفكير بنتيجة واحدة .. وهى أنه أحبها أكثر مما أحبته هى .. وأنه قدرها أكثر مما قدرته هى .. وأنه أصبح لاغنى له عنها فعلا ، اللهم الا اذا فكر يوما فى الاستغناء عن نفسه . ولذلك قطع برأى اراد ان يقوله لها .. ليس الان فقط . ولكن منذ زمن بعيد .. منذ ليال كثيرة مضت .. منذ جلسات متعددة كانت بينهما ، ولكن خجله الزائد كان فى كل مرة يمنعه من أن يقول ما يريد .. وهاهو ذا فى هذه الليلة أيضا أكثر منه خجلا من أية ليلة مضت .. حتى ليكاد هذا الخجل يخنق الكلمات خنقا فلا تكاد تبلغ شفتيه . . ومع ذلك فهو يحس فى قرارة نفسه بدافع قوى يدفعه دفعا الى أن يقول ما يريد .. فماذا يعمل ؟ ..

وجلس صامتا .. وجلست هى أمامه على المائدة تداعبه وتلاطفه .. وتنتقى له الشهى من ألوان الطعام التى أمامها وتطعمه بيدها . الا أنها لاحظت عليه صمته الزائد فى هذه الليلة على غير العادة .. فسألته ولكنه لم يجب ، ولما ألحت أحس بفرحة غامرة .. لأنه وجد مشجعا له لكى يقول لها ما يريد ، ومع ذلك أحجم ثانية وازداد صمتا ، وازداد أيضا سهوما ، مما جعلها تدرك فعلا ــ وهى التى تعرف عنه خجله الزائد ــ أن هناك

شيئا يمنعه خجله من أن يقوله • ولذلك نظرت اليه جيدا ••
وتأملت عبنيه الساجيتين طويلا •• ثم قالت وهي تمد يدها اليه ، وتضع في فمه قطعة من اللحم كانت ستضعها في فمها هي :

ـ أنت تريد أن تقول شيئا ؟ ••

ولما انخفضت نظراته عن ذي قبل ، وتورد وجهه عن ذي قبل أيضا •• وزم شفتيه ولم يجب •• سألته مرة ثانية :

ـ ما أظنك تستطيع أن تخفي عني شيئا ؟

فقال بصوت خفيض جدا جدا :

ـ وهل إذا أطلعتك عليه •• وطلبته منك تجيبينني اليه ؟

ـ ثق أنه ما من شيء في الوجود يعز عليك ••

ـ حتى لو كان منك أنت ؟

ـ حتى لو كانت حياتي ••

فقال كطفل يتلهف على شيء ويتمناه :

ـ أريد أن أتزوجك ••

قال لها ذلك وخفض عينيه سريعا حتى لا يمنعه خجله من أن يقول لها شيئا آخر ، لايهمه أن يقوله لها فقط ، وانما يهمه أنه يحققه أيضا •• وهو أن يتم هذا الزواج سريعا ••

ومرت لحظة قبل أن ينطق ثانية •• لحظة قصيرة جدا •• لحظة لاتكاد تبلغ ارتداد الطرف ، ومع ذلك حدثت فيها أحداث جمة •• أحداث جسام ، أحداث ما كان ليتصور أن تحدث •• فقد

سقطت فجأة ملعقة من بين أنامل رقيقه •• أنامل ارتعشت فجأة ، واضطربت فجأة أيضا حتى سقطت من بينها الملعقة الفضية الثقيلة فأحدث سقوطها فوق الطبق الزجاجي دويا هائلا في أذنيه •• ففتح عينيه أو هو رفعهما اليها ، فاذا بكل شيء فيهايضطرب •• يرتعش •• واذا بسحنتها تربد اربدادا عنيفا •• واذا بعينيها الجميلتين اللتين كانتا تشعان النور في عينيه يكتنفهما هما الأخريين ظلام معتم واختناق يكاد يميتهما لولا بعض الدموع التي راحت تتفجر منهما وتنفس عن العين بعض هذا الاختناق القاتل ، هذا الاختناق المميت •

ونظر هو الى ذلك كله فأخذته المفاجأة وتجمد في مكانه ، وراح ينظر بعينين مرتجفتين •• ينظر الى الملعقة التي ما زالت منكفئة فوق الأرض ، بعد أن أحدثت كل هذا الدوى ، وينظر

الى الأنامل الرقيقة التى مازالت ترتعش ٠٠ والعيـون المختنقة التى تسيل منها الدموع ٠ وأراد أن يقول شيئا ، ولكنه لم يقدر ٠٠ ومع ذلك فقد جاهد نفسه جهادا مرا حتى حرك شفتيه ، وهم لينطق بشيء ٠٠ غير أنه قبل أن يفعل حانت منه نظرة عارضة ، فاذا به يرى مكانها خاليا ، وكأنه كان وحده ، وكأن أحدا لم يكن ليجلس معه ، أو كأنه لم يكن منذ لحظات يتحدث الى انسان !

وظل كذلك الى حين٠٠ ثم لم يدر بعد ذلك ما الذى حـدث على وجه التحديد ٠٠ هل ظل متجمدا فوق مقعده ، لم يتحرك ولم ينبس ، أو هو غادر مكانه أيضا كما غادرته هى ، وانصرف الى بيته هانئا ، كما تعود أن ينصرف اليه هانئا بعـد كل لقـاء بينهما ؟ وهل هو ذهب فى الصباح الى عمله فى العمارة لمزاولة نشاطه المعتاد وفرحته التى لا نهاية لها ٠٠ يقفز كالعصـفور من هذا الجدار الى ذاك ، ومن هذه الشرفة الى تلك ٠٠ ومن هذا الطابق الى آخر ، أو هو لم يذهب الى بيتـه ، ولم يذهب الى عمله ، ولم يغادر مقعده منذ أن حدث ما حدث ؟

انه فعلا لم يدر من ذلك كله شـيئا ، وكل الذى يدريه الآن ويعـرفه جيـدا ــ لأنه حقيقة ماثلةأمام عينيه المضـطربتين وتتحسسها أنامله المرتعشة ــ هو أنه فتح عينيه فوجد نفسـه بعد ثلاثة أيام على هذا الحادث ، على هذا اللقاء الأخير ، مسـجى فى غرفة فى أحد المستشفيات ، وأن وجهه وأكثر مواضع جسمه تغطيها الضمادات والأربطة ، كما وجد شيئا آخر يكاد يكـون أكثر غرابة من هذا كله ٠٠ وجدها هى جالسة بجواره فـوق مقعد بجانب السرير ممسكة بيده التى ترتعش ، وان كان لايدرى على وجه التحقيق أى اليدين ترتعش ٠٠ يده هو ، أم يدها هى ٠٠ ووجدها تنظر اليـه ، وتتحسـس بعينيها المخضـلتين ، الضمادات الكثيرة التى تغطى وجهه وبعض أجزاء من جسمه ، وكأنها تماما تتحسس قلبهـا وكأنه ينزف دما كلمـا اتخنته الجراح ٠٠

فتح عينيه ونظر الى هذا كله ولكنه لم يصدق الرؤية ، لذلك كاد يغمض عينيه ثانية ، لولا أنه وجدها حقيقة ، ولذلك تمتم بشفتين مرتعشتين ، كأنهما شفتا طفل اتخنت أنفاسه الحمى :

ــ أين أنا ٠٠ ؟ ماذا حدث ؟

وانهمـــرت الدموع من عينيها ، ولم تجب ·· وظلت حينـا تبكى · وظل هو حيناآخر ينظرالى الدموع التي تتساقط من عينيها، ثم يدير عينيه الى ماحوله ، والى مايريد أن يعرف ·· الى أن عرف في النهاية كل شيء ، عرفه من الطبيب ، وعرفه من المهندس الذي يعمل معه في العمارة ، وأيضا عرفه منها هي ·· وعرف كيف أنه كان في صباح ذلك اليوم يعمل في العمارة كعادته ، ويتنقل من مكان الى آخر ، ومن طابق الى غيره ، وهو شارد الفكر على غير العادة ، فأذا بقدمه تزل ، واذا به يسقط فوق الانقاض ، وينقـــل الى المستشفى ·· واذا بهاتكون أول من هرع اليه ، وتظل بجواره ، تكفكف له دموعه ، وتضمد له جراحه وتجلس ســاهرة عليــه ترقبه بقلب واجف وأنفاس حارة ، وتطلب له الشفاء العاجــل ·· وأنها ظلت كذلك تلازم غرفته ثلاثة أيام كامله لم تبرحهــا حتى أفاق وفتح عينيه ، واستردت هي أنفاسها ·· كما عرف أنها بقيت بجواره أيضا زمنا آخر تتحدث اليه ، وترفه عنــه ، وتقدم له الدواء ، وتمسح على جبهته فتنفرج أساريره وتزول متاعبه ، حتى تماثل للشفاء وخرج من المستشفى صحيحا معافى ·· وأنها كانت بذلك أسعد ما تكون بهذا الشفاء ، وبهذه الصحة التي عادت اليه ، وكان هو أيضا سعيدا بذلك سعادة كبيرة ، ولكنها سعادة ممزوجة بالتفكير القاسى المـــرير ، الذي يؤرق العين ، ويرهق القلب ، ويؤذي الفؤاد في كثير من الأحيان ··

ما سر هذه المرأة معه ؟ ·· وما سر هـــذا الحب الذي كانت تريده دائما في الخفاء ؟ فاذا بها بعد هذا الحادث الذي وقع له تظهر حبها علانية وأمام الناس جميعا ·· تبكى مــن أجله حتى تكاد تنتحب ·· تبيت معه في المستشفى عدة ليال ·· تريد أن تأتي له بأطباء العالم جميعا · لكى يشفى سريعا ·· لكى تسمع منهم كلمة تطمئنها ؟ ثم هذا كله يحدث عقب الليلة التي مد لها يده فيها ، فرفضتها هذا الرفض العنيف ، رفضتهاوهي ترتعد ، وترتعب لمجرد هذه الكلمة التي سمعتها ··

فكر في هذا كله ، وفي هذا اللغز المحير الذي لايفهمه ، وقد أجهده هذا التفكير الى حد كبير ، ولولا أنه استطاع في النهاية أن يعرف الحقيقة ، لكان أصيب بالجنون ، أو بما يشبهه عـــلى الأقل ··

ان هذه المرأة ثرية ثراء كبيرا ، وهى من أسرة كبيرة أيضا ، وهى لأسباب خارجة عن ارادتها ، أو لعله حرص منها على ذكرى تريد أن تظل معتزة بها ، لا تريد أن تتزوج . وحتى لو هى أرادت فهى لا تريد أن تتزوجه هو بالذات فهى بالنسبة اليه متقدمة فى السن ، أو هى على الأقل أكبر منه سنا . وهى تعرف جيدا أن مثل هذا الزواج لا يمكن أن ينتهى بخير ، ولا يمكن للسفينة أن تمخر به العباب ، وتصل به الى الشاطىء الأمين . وهى فى الوقت نفسه قد أحبته ، وأحبته هذا الحب الجنونى الذى كانت فى أول الأمر تحرص على اخفائه ، فاذا بها تعبر عنه صراحة . واذن فهى تريد أن تكون له صديقة فقط ، وحبيبة فقط ، أما هذا الخطأ الكبير الذى تورط فيه وفكر فيه جديا وصارحها به ، فلم يكن قط ليدور بخلدها ، ولم تكن قط لتفكر فيه ، ولذلك كادت تفزعها المفاجأة ، أو هى أفزعتها فعلا ..

وكان هو أكثر غباء مما كان يظن ، والا فما كان صارحها برغبته ، ولكن أيضا لولا هذا الغباء الذى أصيب به ، ماستطاع أن يظفر بهذه الحقيقة التى ظفر بها الآن ، والتى كان يتحتم عليه أن يعرفها من أول الأمر ، ويعرفها من أشياء كثيرة جدا : من نظراتها اليه ، من عينيها اللتين كانتا تتفجران نورا كلما رآتا وجهه واستقرتا عليه ، من أناملها التى ترتعش كلما تحسست شعره وصففته له ، من يدها التى كانت تماما أشبه بيد محموم ان هى مست يده مصادفة .. ولكن الغباء الذى هو بالنسبة للعقل الفطن ، أشبه بالمرض بالنسبه للجسم الصحيح ، يصاب به الانسان من حيث لا يحتسب ..

وما أن عرف هذه الحقائق جميعا ، حتى انقشعت غمامة هذا الغباء التى كانت على عقله ، وبدأ يفكر تفكيرا فيه الكثير من الذكاء، وفيه الكثير من الفطنة ، وفيه أيضا الكثير من معرفة مواطن الداء، وتحين الفرص وانتهازها .. وكان يساعده فى هذا كله عواطف المرأة التى تحب ، وأحاسيس المرأة التى تخلص ، وفؤاد المرأة اذا أخرجه الحب عن جادة الصواب أحيانا .وقد تبدى له هذا كله فى ليلة لم يكن لينتظرها ، وفى فرصه لم يكن ليظن أنها ستواتيه على هذه السرعة ، أو على هذه السهولة التى واتت بها . فقد كانت الليلة من ليالى الشتاء المطرة ، التى يتعذر فيها الخروج ، ويتعذر فيها ارتياد الاماكن العامة ، أو الذهاب الى تلك المائدة

الحبيبة المنعزلة في حديقة التورنج • ومع ذلك أحست برغبة شديدة في أن تراه ، وأحس هو كذلك برغبة شديدة جدا في انه يريد أن يراها • وازاء الرغبات الصادقة ، لايقف مطر ولا سيل حتى ولا زمهرير •• وكان أن التقيا ، فقد أخبرته عن طريق التليفون أنها تريد أن تراه ، وأنها تنتظره هذه الليلة في بيتها، لأنه خيرمكان يلتقيان فيه هذه الليلة العاصفة ، وأنها قد صنعت له طعاما شهيا أعدته له بيديها • ولعل هذه هي المرة الاولى ، منذ عشر سنوات التى تعد فيها طعاما بيديها لشخص ما •

أسرت اليه بذلك وكأنها كانت تسر اليه برغبته هو ، لأنه فرح فرحا جعله يطير اليها بجناحين ••

وفي البيت كانت الليلة ممتعة حقا ، لم يشبها سوى حادث صغير في أول الأمر كادت تغضب له غضبا شديدا ، وهو شعره المنهوش الذى لم يصففه •• كما تريد ، وكذلك منديل الصدر الذى أهمل وضعه على الطريقة التى تريدها أيضا • ولكنه اعتذر لها بأن الأمطار والعواصف التى كادت تجتاحه وهو في الطريق اليها ، هي التى فعلت مافعلت • فقبلت هذا العذر عن طيب خاطر، وراحت بيديها الجميلتين تجفف له ثيابه ، وتصفف له شعره ، وتصلح له من وضع المنديل الذى كان قد ابتل من المطر، والذى أرادت أن تبدله بمنديل من عندها يشابهه تماما • بل يكاد يكون المنديل نفسه •• ولكنها لم تشأ ، لانها تعرف أن تبادل المناديل بين الصديقين أو بين الحبيبين نذير فراق ، ومن ثم أجلسته قبالتها على المائدة ، وهي أكثر ماتكون فرحة بهذه الليلة التى يجمعهما فيها مكان ••

وراحت في نشوة الغزال الطروب ، ورقة العصفور المرح ، تعد له المائدة ، وهي تروح وتجيء أمامه ، حاملة على يديها الشهي من ألوان الطعام ، وراح هو ينظر اليها من حين الى آخر ، وكلما استقرت عيناه على جزء منها ، اضطربت نظراته وتدهورت أنفاسه وأحس بشيء في صدره يكاد يحترق • وزادت هذه الحال شيئا، فزادته سوءا ،لانها زادته خجلا وزادته ارتباكا ،وزادته أيضا خوفا شديدا ،فراح يغمض عينيه بين الحين والحين ، وكأنه يغمضهما على نار تأكله ••

ولاحظت هي ذلك فسألته مابه ، فتلعثم ولم يجب أول الامر • ولما ألحت أخبرها بأنه البرد ، وبأنه هذا الصقيع الذى يكتنف

كل شيء في هذه الليلة المضطربة الممطرة ٠ فأسرعت الى المدفأة وقربتها اليه ، كما أسرعت أيضا وقدمت له حساء آخر ساخنا ٠ ٠٠ ولكن نفسه كانت قد عافت كل شيء ، الا ذلك الشيء المخيف الذي يرتعد تحت وطأته ، والذي هو بقدر ما يخافه ، يتمناه ، وانه خر صريعا تحت وطأة هذه الحرب الضروس التي تصطرع في نفسه فجلس واجما ٠٠

ولاحظت هي عليه مرة أخرى هذا الوجوم الشديد واضطرابه الذي يزداد شيئا فشيئا ، وعدم قدرته على تناول الحساء ، بل على أن يمديده اليه ، فاضطربت هي الاخرى ، ونقلت مقعدها الى جانبه وجلست بجواره تلاطفه حينا ، وتداعبه حينا آخر ، وتضع له ملعقة الحساء في فمه ، كمالو كانت تجرع طفلا صغيرا ملعقة من الدواء ٠٠ غير أن ذلك زاده خوفا ، وزاده اضطرابا ، وزاده أيضا جرأة مابعدها جرأة ، مما جعلها تجزع اذ ظنته مريضا ٠٠ وراحت في لهفة وبألفة تتحسس جبهته التي كانت محمومة فعلا حتى لتكاد تحترق ، وتمسح عليها بيدها ، ولكنها ما أن فعلت ، ومست أناملها جبهته حتى ارتعد في فزع شديد، وألم به خوف هائل ٠٠ وقبل أن يرتد اليها طرفها ، أو تدرك شيئا ، كان قد أطبق على يدها بقوة الوحش المفترس ، وفي قوة البركان الذي ينفجر ، أراد أن يطبق عليها أيضا ٠ ولكن هول المفاجأة التي فوجئت بها جعلتها تدفعه بقوة خارقة ، قوة المحب للحياة الذي يدفع سكينا على عنقه ، فسقط أمامهاعلى الارض ، وأحدث سقوطه دويا ٠٠

لم تلتفت هي اليه ، وهي تريد أن تركض من أمامه ، أن تهرب من البيت كله ، ولكنها لم تقدر ، اذ أن شيئا ما سقط معه فوق الارض أيضا ٠٠وكان يحدث هذا الدوي نفسه ٠٠ فارتعبت له رعبا شديدا لأنه سقط من صدرها هي ، وكان مختبئا فيه من زمن بعيد ، يكاد يلازم قلبها دائما ٠٠ لذلك رجعت اليه في لهفة زائدة ، لتلتقطه من جواره ، فمكنه هذا وهو ينهض سريعا ، من أن يعود فيطبق على يدها مرة ثانية ، بالقوة نفسها وبالعنف نفسه ، وفي ثورة البركان الذي ينفجر نفسها بيد أنه لم يكد يفعل ، ويطبق على معصم يدها في هذه الوحشية ، حتى تقلصت أصابعه فجأة ، واحتبست أنفاسه فجأة أيضا ، وتجمدت نظراته كماتتجمد حبات الثلج تماما ، ووقفت نظراته جاحظة ، تنظرالى

شيء غريب في يدها ، كانت قد التقطته من فوق الارض ، شيء يشبه الاطار الذهبى ، على هيئة قلب ، تحليه صورتان صغيرتان جدا : احداهما قد عرفها جيدا ، لأنها صورته هو ، أما الصورة الأخرى فلم يعرفها ، وان كانت تشبهه كثيرا ، وان كانت تشبهه تماما !

وظلت أنفاسه محتبسة كما هي ، وظلت نظراته متجمدة كما هي ، وظل قلبه يلح في أن يتوقف ، وظلت هي كذلك يدها تهتز وترتعش أمام عينيه الجامدتين ، وهي مطبقة على هذا الاطار الصغير من الذهب ، الى أن استطاع بعد حين أن يحرك شفتيه ويتمتم بصوت خفيض جدا حتى لكأنه من أحد الكهوف :

ـ صورة من هذه ؟

فأجابه صوت خفيض أيضا ، كاد يذوب ويتلاشى وسط أصوات نقاط كثيرة من الدموع :

ـ انها صورة ابني الذى مات من عشر سنين .

فتمتم مرة أخرى ، وهو ينظر جيدا هذه المرة الى الصورة :

ـ وهكذا كان يصفف شعره .. وهكذا كان يضع منديله ؟

فأجابت بشيء ، ولكنه لم يستمع الى صوتها هذه المرة ، لان صوت نقاط كثيرة من الدموع كان قد تعالى .. فترك يدها في هدوء ، ونهض من مكانه فوق الأرض في هدوء أيضا ، وتناول معطفه ، وأمسكه في هدوء كذلك .. ولما راح يقطع خطوات البهو بالهدوء نفسه ، تعالت صرخات تشبه النار .. مدويه في الليل تناديه :

ـ أحمد .. أحمد .. أحمد ..

ولكنه لم يسمع ، فقد تلاشى الصوت في قلب الظلام الذى كان قد راح يخترقه !

الصيد والقنص

كنت اذ ذاك قد تركت عملي الحكومي كطبيب لاحدى الوحدات العلاجية في الأرياف ، وعدت الى القاهــــرة وافتتحت عيادتي الجديدة في شارع البســتان حيث كانت عيادة أبي رحمــــه الله في هذا الشارع بالذات • وشعرت بعد عام مضى بشيء كثير من الطمأنينة والراحة النفسية ، التي هي خير معين على النجــاح ، وخير سبيل لثقة (زبائني) في كطبيب ناجح يطمئن الناس اليه، وأهم مافي حياة الانسان أن يطمئن الناس اليه •

وقد كرست حياتي لمرضاي الذين اطمأنوا الى اطمئنانا كبيرا، وكان ذلك يشعرني بلذة فائقة ، وبأنني في الارض رب صغير، على أن أخفف آلام الناس وأضمد جراحهم ، وأبعث الأمل فيهم، حتى لو كنت أعلم أن هذا الأمل كخفقة السراج التي تهب متوهجة فتلفظ نفسها الأخير • وعشت أكثر عمري كذلك ، فقد أنستني سعادتي بهذا الواجب الانساني كل شيء حتى نفسي ، وحيــاة الوحدة التي أعيشها ، والفراغ الكبير الذي يملأ قلبي ودنياي وكل شيء في حياتي ، حتى انني كثيرا ماكنت أسأل نفسي : لماذا

أنا كذلك ، أنا الذى يؤمن بالمرأة وبالزواج ، وبالحب ؟ · وكان الجواب دائما مقنعا ، وهو أن الزواج بالذات قدر من الأقدار ، وأن قدرى لم يحن بعد : أما المرأة ، فليس لمثلى أن يفكر فيها ، وليس من حقه أن يدخلها من أى باب فى حياته ، وليس هذا نقصا منى ، أو انتقاصا من شأنها فى حياة الرجل ، أى رجل ، فأنا أومن فى قرارة نفسى أنها بالنسبة للرجل كالدواءللمريض، وانما هو حرص منى على سمعتى كطبيب ، والطبيب كماهومعروف اسم وسمعة ، قبل أن يكون شيئا آخر ·

وهكذا أرحت نفسى منهذه الناحية ، وأرحت غيرى أيضا · وسرت فى طريقى ناعم البال أنظر الى الورود جميعا ، وأتأمل رقة أوراقها ، كما أنظر تماما الى الشوك الذى فيها ، غير عابىءبشىء حتى بالفراغ الضخم الذى يملأ قلبى ، ويملأ بيتى الأنيقالذى كنت أعيش فيه وحيدا ، والذى كنت أدخله فى صمت ،وأخرج منه فى صمت ، وأتمثلنفسى فى قلب فراغه الكبير أشبه ماأكون بالنصب الذى فوق مقبرة كبيرة تتسع لعشرات الأجداث ، وليس فيها غير جدث واحد هو جدثى أنا المسجى فى ظلام الليل فوق الفراش الوثير فى قلب المخدع الفخم · وكنت راضيا بهذه الحال، مطمئنا اليها ، ولا أرغب فى سواها · وظللت كذلك الى أن حدث لى ذلك الحادث الذى كاد يودى بحياتى ، لولا لطف منالله ورحمة يوليها بعض خلقه فى أحرج اللحظات· فقد استدعيت ذات ليلة لزيارة مريض فى المعادى ، وبينماأنا فى الطريق مرت بىسيارة تسير فى سرعة جنونية ، وأردت أنأتفاداهافجنحت سيارتى ، وجنحت معها حياتى أيضا · ولم أدر حتى الآن ما الذى حدثعلى وجه التحديد ؟ وكل الذى أذكره أننى بعد يومين فتحت عينى على مايشبه الحلم فوجدتنى فوق أحد الأسرة فى قلب أحد المستشفيات ، ويكاد جسمى جميعه تغطيه الضمادات·ووجدت احدى الممرضات تجلس على قرب منى بجانب السرير ، تنظر الى وكأنها تتحسس حياتى بعينيها ، تماما كما تتحسس معصمى بأناملها لترى أما زال فى عرق ينبض ،؟ وكأنها كانت لاتأمل هذه اليقظة التى تيقظتها ، لانها ابتسمت فجأة فى سرور زائد أضفى على وجهها الذى يشبه وجه ملاك ، مسحة من الطهر زادته جمالا · وقالت وهى ماتزال تبتسم ، فى سرور ورقة بالغة :

ـ الحمد لله ·

ـ أين أنا ؟

نطقتها وأنا أغمض عيني ثانية . ان تأثير المخدر كان لايزاله يثقل رأسي ، ويجثم بثقله على حواسي جميعاً . غير انني سمعت صـوتها وأنا أغمض عيني يترامى الى أذني وكأنه آت من مكانه سحيق جدا :

ـ أنت في رعاية الله ، وفي رعايتنا جميعا ..

ـ ما الذي حدث ؟

ـ قدر كان لابد له أن يحدث .

وأحسست بصوتي يختنق ، وبشيء في صدري يكاد يتمزق، فقلت :

ـ هل سأموت ؟

ولم أستمع الى ردها ، وهل هي ردت أو لم ترد . وكل الذي احسست به أنني بعد لحظات شعرت بشيء يشبه السائل الدافيء ينساب فوق يدي التي كانت لاتزال ممسكة بها في يدها ،ففتحت عيني ، فاذا بالفتاة تبكي وتنساب الدموع قطـرات من عينيها الواسعتين من أجل مخلوق لاتعرفه .

ومرت أيام بعد ذلك لا أنسى فيها ماقام به أطباء المستشفى جميعا نحو زميل لهم أصيب في حادث ، يضمدون جراحه ويخففون آلامه ، ويرعونه في الليل ويرعونه في النهار ، الى أن تماثلت للشفاء سريعا ، اذ كانت اصاباتي في مجموعها ليست خطيرة . وهذه نعمة من عند الله أحفظها له ماحييت ، كما أحفظ للزملاء جميعا هذا الجهد الذي أذكره بالخير ، وعلى رأسهم من غير شك هذه الفتاة ذات الخلق الطيب والنفس الكريمة ، والتي ماكنت أراها مرة تدخل على الغرفة أو تخرج منها ، أو تجلس بجواري تقيس لي النبض وتقدم لي الدواء ، الا وقد تأثرت تأثرا بالغا من رؤية هذه العيون الواسعة التي بكت من أجلي ذات يوم ، وهـذا الخلق النبيل الذي ظل يرعاني طوال هذه المدة ، مدة اقامتي في المستشفى ، والذي كان له الفضل أو الأثر الـكبير في ارتفاع معنوياتي جميعا ، حتى تماثلت للشفاء بهذه السرعة .

ولما خرجت من المستشفى كان الشيء الوحيد الذي تركته فيه هو تقديري لهذه الفتاة ، حتى شعرت بشيء من الاشفاق على نفسي

لأنني حرمت شيئا كنت لا أظن انه محبب الى النفس الى هذاالحد، وهو أن يشفق عليك مخلوق ، وأن يغمرك حنان انسان • ولعل هذا هو الذى جعلنى ، وعلى الرغم منى أحيانا ، أفكر فيها من حين الى آخر • ورغم أننى شكرتها يوم خروجى ، وشكرتها شكرا صادقا من الاعماق ، وقدمت لها هدية متواضعة رمزا لهذاالشكر، وذكرى لتلك الليالى الطوال التى سهرتها بجانبى ، أقول اننى برغم هذا أحسست بعد خروجى أننى فى حاجة الى أن أشكرها مرة أخرى • فاتصلت بها فى المستشفى ، وتحدثت اليها لمدة دقائق ، ووددت لو طالت حتى أنعم بمزيد من رقة هذا الصوت العطوف • كما حاولت أن أتصل بها مرة ثانية ، ولكننى خجلت، أو بمعنى أصح خشيت أن تظن شيئا • وهذايؤلمنى كثيرا ،وليس هذا بالنسبة اليها فقط ، ولا بالنسبة لى أيضا ، وانما بالنسبة لمثلى التى أعيش عليها ، ولسمعتى التى هى كل شىء فى حياتى • ومع ذلك فقد ظل عطف الفتاة وحنانها يشعراننى بأننى انما افتقدت شيئا هاما ، ولذلك كانت فرحتى لاتقدر عندما دق جرس الباب فى بيتى ذات مساء ، وقال لى الخادم : ان الآنسة «سعدية» بالباب ، ترغب فى زيارتى • ولم أكد آذن لها بالدخول وأرى عينيها الواسعتين ، وأذكر هذه العيون التى بكت ذات يوم من أجلى ، حتى أحسست نحوها باحساس مفاجىء ، ممزوج بالعطف، وبالتقدير ، وأيضا بالصلة الوطيدة التى يؤكدها من أول مرة الخلق الطيب والشعور النبيل • ولذلك لم أستقبلها كمايستقبل طبيب كبير معروف ممرضة ما ، وانما استقبلتها كأخت وكابنة وكصديقة وأيضا كصاحبة بيت •

ومن الغريب أنها كانت هى أيضا كذلك ، لم تعتبر نفسهافى بيتى ضيفة ، ولا زائرة عابرة • وانما اعتبرت نفسها صاحبة بيت فعلا ، لأنها ما ان جلست قليلا وقدم لها الخادم بعض المرطبات، وتبادلنا بعض العبارات التقليدية التى تحتمها المجاملات السخيفة فى هذه الظروف ، حتى نظرت الى البيت والأثاث الذى فيه ،كما كانت تنظر الى غرفتى فى المستشفى تماما ، وترتبها وتضع كل شىء فى مكانه هنا باقة الزهر، ، وهنا دورق المياه ، وهنا الصحف، وهنا علبة السجاير ، وهنا المنفضة • وكذلك نهضت ، حتى دون أن تستأذن منى ، ورتبت أثاث الصالون كما يحلو لها هى • ونقلت بعض أوانى الورود التى كانت فى المدخل من مكانها ،

كما نقلت بعض المقاعد ورتبتها ترتيبا جديدا ، فيه ذوق ، وفيه جمال • وكان موعد عشائي قد حان ، وبدا الخادم يعد لي المائدة، فقامت هي وأعدتها بيديها •• وكانت قد عرفت من أيام المرض بعض طباعي وبعض أصناف الطعام التي أريد أن آتناولها أولا، فأعدتها وقدمتها لي ، تماما كما كانت تقدمها لي وأنا في المستشفى • وبعد تناول الطعام جلسنا نتحدث قليلا ، ونتذكر المرض والمرضى والنظام الدقيق المتبع في مستشفياتنا الكبيرة • ثم انصرفت بعد أن وعدتني أن تكرر هذه الزيارة مرة أخرى • وكررتها فعلا ، وكثر ترددها على البيت بعد ذلك • ودون أن تدري هي ، أو أدري أنا ، أصبح لقاؤنا في البيت ضروريا كل مساء • وكانت بحكم وظيفتها في المستشفى تفرغ من عملها في الخامسة من بعد ظهر كل يوم ، فتجيء الى عندي مباشرة ، وكثيرا ما كانت لا تجدني ، فتنزع ثياب الخروج ، وترتدي ثوبا منزليا ، كما لو كانت في بيتها تماما • ومن ثم تروح تنظف البيت وترتب أثاثه ، وتعد لي الطعام ، وتجلس تنتظرني حتى أجيء • ومن ثم نقضي بقية السهرة في أحاديث كثيرة ممتعة ، وكثيرا ما كان يأخذنا الوقت فلا نفطن الى مرور الزمن الا عند الواحدة والنصف أو الثانية صباحا ، فأنهض وأرتدي ثياب الخروج وأخرج معها الى الطريق لأوصلها الى منزلها ، لأنه كان لا يمكن تركها وحدها في هذا الوقت المتأخر من الليل • وكان بيتها في أول شارع الجيش تقريبا ، وكان أمام البيت قهوة صغيرة روادها جميعا من العمال وسائقي السيارات الذين يعملون ليلا دائما ، ولذلك كانت تظل طوال الليل غاصة بالرواد • وكذلك كان بجانب البيت مباشرة «طابونه» تعمل بطبيعة الحال طوال الليل أيضا ، ومملوءة بالعمال الذين يروحون ويجيئون في الليل ، داخل الطابونه وخارجها ، لهذا كنت أتحفظ كثيرا وأنا أوصلها الى بيتها في هذا الوقت المتأخر من الليل ، خشية أن يراني معها أحد فيظن بي الظنون • لذلك ما ركبت معها سيارتي الخاصة قط ، لأنها سيارة كبيرة وفخمة وذات ألوان براقة ، وهذا من غير شك يثير شكوك بعض الناس ، ولا سيما هذه الحفنة من العمال السذج الذين تمتلىء بهم القهوة في الليل أو تغص بهم الطابونة ، اذا شاهدوا سيارة ضخمة وفيها رجل ومعه فتاة يوصلها الى بيتها كل ليلة ، بعد الثانية صباحا •

وبقدر ما كنت أحرص على سمعتي كطبيب ، أو على كرامتي

كانسان له خلق ، كنت كذلك أحرص على كرامة هذه الفتاة التى استطاعت أن تشعرني ، برغم أنني لم أتزوج ، وبرغم اننى لم أنجب ، بعاطفة الأبوة وحنانها ، وكيف أنها تفيض على كل عاطفة سواها • لهذا كنت كل ليلة أركب معها «تاكسى» من بيتى في الزمالك الى بيتها في شارع الجيش ، وقبل أن تبلغ البيت بأمتار ، وفى مكان شبه مظلم تقريبا كان يقف بنا التاكسى وتهبط هي ، وأنتظر أنا داخل السيارة حتى تدخل البيت ، وأطمئن عليها ، ومن ثم أعود ثانية بالتاكسى نفسه • وكان هذا لايضايقنى فى شيء ،فقط الذى كنت أخشاه هو أن يظن بى سائق التاكسى ظنا سيئا ، أو بالفتاة أيضا ، ولكن هذا اطمأننت اليه فيما بعد ، فقد كان أمام البيت الذى أقطنه فى الزمالك ، موقف ليلى لسيارتين أو ثلاث سيارات تاكسى • ولأن هذه العملية عملية توصيلى لسعدية كل ليلة ـ كانت تتكرر دائما ، وتكاد تكون منتظمه وفي وقت محدد بالذات هو بين الواحدة والنصف والثانية صباحا ، فقد حرص سائق تاكسى معين على أن يحضر الينا كل ليلة في الوقت نفسه • وكان هو الذى نركب معه دائما ، وكان رجلا مؤدبا أدبا جما ، ليس من أولئك السائقين الذين يظنون بك السوء في كل شيء • ولذلك كنت أفضله على سواه ، وكثيرا ماكنت أغدق عليه في الأجر ، دون النظر الى مايستحقه أو مايكون رقم العداد قد وصل اليه • وكان هذا يسره كثيرا ، ويجعله يضاعف من الثناء ، وأيضا من الدعوات الطيبات التي كنت أتقبلها منه بامتنان ورضا •

وهكذا توطدت علاقتى بالفتاة الى حد كبير ، فقد استطاعت بطيبتها الزائدة ، وحنانها الذى لا حد له ، أن تجعلنى أعرف حقيقة كنت أجهلها ، برغم تمرسى بالحياة ، وحيرتى بالدنيا ،وهى أن الرجل فى حقيقته طفل كبير ، فى حاجه دائما الى من يعطف عليه ، ويهتم بأمره ، ويزيد في سروره اذا ضحك ، ويجفف له دموعه اذا بكى • وكنت أحس بهذا كله وهى معى فى البيت ،تعد لى الطعام أوتتناوله معى ، أو تقرأ لى فى كتاب ، أو تهيىء الفراش • وكنت كثيرا ماأطلعها على أسرارى وأشكو لها أيامى ، اذا كانت لى شكوى منها • وكانت هى كذلك أيضا ، تحفظ أسرارها جميعا عندى ، وتطمئن الى انها فى مكان أمين •

وقد عرفت من هذه الأسرار الشيء الكثير ، عرفت أنها من أسرة

متوسطة الحال ، ولما توفى والدها اضطرت الى العمل في المستشفى وأن لها شقيقا يكبرها يعمل فى مصلحة السكك الحديدية في محطة القاهرة نفسها ، وأنه يقيم معهم فى البيت ، وأنه شرس الطباع جدا ، غيور عليها الى حد كبير ، وان كانت والدتها تختلف عن ذلك كثيرا ، كما عرفت أنه كانت لها مأساة دامية ، فقد خطبت ذات يوم الى شاب كانت تحبه ، وأنه أغراها بعد الخطبة وقبل الزواج الى أن نال منها مأربا ٠٠ وكانت تقص على هذه القصة ، وغيرها من قصص الآخرين الذين أرادوا أن يوقعوها فى شباكهم وهى تبكي وتذرف الدموع • وكثيرا أيضا مابكت من أشياء أخرى ، من قسوة شقيقها عليها ، ومن خشونة والدتها ، وطباعها التى لاتتلاءم أبدا والخلق الطيب وكنت أنظر الى هذه الدموع وهى تتساقط من عينيها ، وأحس بها كأنها نقاط من نار تحرق قلبى • وكثيرا ماكنت أحاول أن أخفف عنها هذه الآلام ، وكثيرا ما كنت أنجح في ذلك الى حد كبير •

وظللنا على هذه الحال عدة شهور ، تغيرت فيها أشياء كثيرة فى حياتى ، وفى تفكيرى أيضا • فقد عرفت أن هناك فى حياتى أشياء ضخمة كنت أجهلها ، وهى ضرورة المرأة بالنسبة للرجل • وليس ذلك من أجل أنها امرأة فقط ، وانما من أجل الحنان والعطف ، والحب ، الذى نحتاج اليه نحن الرجال باعتبارنا أطفالا كبارا •

كما عرفت أيضا ان البيت من غير امرأة أشبه مايكون بالمسجد من غير محراب ، لايعرف الذى يدخله أين تكون قبلته • كما عرفت أيضا أن هذا البريق الخلب الذى تغشى به الدنيا أعيننا ، والذى يسمونه مجدا ، ويسمونه مالا ، ويسمونه أيضا جاها عريضا ، عرفت أن هذا كله لايساوى شيئا اذا خلا من رفيق • وأن قلبا عطوفا يحنو عليك ، ويدا رقيقة تربت على كتفك ، وتلاطف أناملها خديك ، وتهدهد شفاهك كلما أقلقها نار الظمأ ، - أغلى ألف مرة من كل سعادات الدنيا مجتمعة •

ولذلك فكرت في الزواج ، وفكرت فيه جديا • ولما قطعت فيه برأى ، أردت كعادتى أن أستطلع رأيا آخر • لأن الانسان دائما يجهل نفسه ، وكثيرا ماتصور له رغباته الاشياء بغير صورها ، وايضا بغير ألوانها • فلم أجد غير الفتاة ، فقد كنت واثقا فى رأيها ، مطمئنا الى مشورتها • وفى أشياء كثيرة جدا ، كانت أكثر

مني ذكاء ، وأكثر مني فطنة ورجاحة عقل • وكذلك المرأة دائما، ولا سيما اذا كان الامر يهمها شخصيا • وكنت أعرف جيدا أن أمرى يعنيها ، ولذلك عندما عرضت عليها الفكرة ، رحبت بها ترحيبا كبيرا كنت لا أنتظره • فقط الذى ضايقها فى الامر ،هو أن زواجي سوف يقطع علاقتنا هذه التى بنيت على كل هذا الود، والتي كانت من غير شك تتمسك بها تمسكا كبيرا ، ولكنى طمأنتها من هذه الناحية ، وأننى لن أنسى أبدا انها هى التى جعلتنى أقيم لنفسى هذا العش الذى سأسكن اليه ، واننى لن أنسى لها ماحييت هذا الجميل • وكانت تعرف اننى لا أقول الا صدقا ، وأن القول الذى له خبيء ليس من خلقي ، فاطمأنت الى ماقلت ، وارتاحت الى عزمى الذى عزمت عليه ، وكنت قد وفقت الى خطبة فتاة من أصل كريم ، وأسرة طيبة ، كنت قد تعرفت الى أسرتها في الريف أيام كنت أعمل هناك • وسرنى أن أسرتها رحبت بى ترحيبا كبيرا ، ، كما رحبت بى الفتاة نفسها ، وفضلتنى على كثير من الذين كانوا قد تقدموا الى خطبتها فى ذلك الحين • وتمت المراسيم الاولية للخطبة ، وبدأنا نعد الاعدادات اللازمة للزواج الذى حددنا موعده • وكان من ضمن الاشياء التى اتفقنا عليها ، باعتبارى أقيم فى القاهرة ، وباعتبار أن السكن الذى أقيم فيه سيكون هو السكن الذى سنتزوج فيه نفسه •

أقول اتفقنا على أن أؤثث أنا البيت كما أريد وكما يحلو لى • وبدأت فعلا فى تأثيث بيتي الجديد أثاثا فاخرا ، كان فيه الكثير جدا من الذوق والجمال ، وكان فيه أيضا الكثير من عدم الارهاق المالى • وأشهد أن الفضل فى ذلك كله كان يرجع الى الفتاة ، فكما قدمت كانت صاحبة ذوق ، وكانت صاحبة فطنة كذلك ، ولذلك تركت لها زمام الامور جميعا ، فكانت هى التى تنتقى كل شيء بمعرفتها وبذوقها ، كما لو كانت تنتقيه لنفسها تماما • حتى نظام الغرف على الوضع الجديد هى التى وضعته ، وهى التى كانت تضع هذه الفازة هنا ، وهذا التمثال هناك ، وهذه الستر للمخدع ، وهذه التى يختلف لونها للمدخل • حتى المفارش وأدوات الزينة ، حتى الأشياء الدقيقه التى تلزم الزوج، وتلزم الزوجة أيضا ، هى التى انتقتها ، ووضعتها فى أماكنها • حقيقة كنا لانلتقى كثيرا كما كان الحال قبل الشروع فى زواجى،

ولكننا كنا نلتقى من حين الى آخر لنتشاور فى أمر ، أو نتدبر فى حال .

على أن هذا اللقاء لم يكن طويلا ، كما تعودنا من قبل أن يكون الى أن تمت جميع المعدات وأعلن عن يوم الزفاف ، الذى بدأت أستعد له . وقبل موعده بيومين اثنين على ما أذكر ، اتصلت بى سعدية تليفونيا فى العيادة ، وأخبرتنى بأنها ستجىء الى البيت مساء ، لتلقى معى نظرة أخيرة على البيت والأثاث ونظامه ، قبل سفرى فى الغد الى الريف لاتمام الزفاف . وقد جاءتنى فعلا بعد الثامنة والنصف ، وما أن دخلت البيت حتى راحت تعيد ترتيب بعض الحاجات من جديد ، وتنظم بعضها تنظيما آخر ، أكثر جمالا عن ذى قبل . وقد أرهقت نفسها فى هذه الليلة ارهاقا شديدا ، مما جعلنى أشفق عليها من قلبى ، وأقدر فيها مرة أخرى هذا القلب الكبير الذى تحمله ، وهذا الخلق الطيب الذى تتحلى به . وجلسنا بعد أن رتبنا كل شىء نتحدث كما هى العادة ، نضحك حينا ، ونتندر أحيانا ؛ وتطرق بنا الحديث فى هذه الليلة الى أشياء كثيرة ، كثيرة جدا : صلتنا هذه الروحية ، خدماتها التى لاتنسى ، أفضالها التى سأظل أذكرها ، هذا البيت الذى أثثته هى ، هذا الجمال الذى أضفته عليه .

ثم تحدثنا فى موضوعات أخرى كانت أكثر أهمية ، منها كيف سنلتقى بعد ذلك ، فأفهمتها أننا سنلتقى دائما كالعادة ، وأن البيت سيكون هو بيتها ، وأن الصديق سيكون هو صديقها . فسهمت حينا ، ولمعت عيناها ، كما شحب وجهها بعض الشىء .. وقالت فى صوت خفيض فيه رنة حزن لن أنساها ، قالت : انها أكثر منى علما بعقلية المرأة وبتفكيرها .. وأن زوجتى مهما كانت مثقفة ، وصاحبة عقل كبير ، فسوف وحتما ولابد ، أن يتسرب اليها الشك اذا ظلت علاقتنا كما هى الآن . وأنها – أى سعدية – لشدة حرصها على اسعادى ، وهناءتى الزوجية سوف تنقطع عن الاتصال بى ، ولن نلتقى بعد هذه الليلة أبدا ، لافى البيت ، ولا فى العيادة ، حتى فى الطريق . قالت هذا وانسابت الدموع من عينيها الواسعتين وراح كل شىء فيها ينتفض ، ومن ثم انخرطت فى بكاء طويل . فتأثرت تأثرا بالغا ، وأشفقت عليها من قلبى ، وأخذت يديها المرتعشتين فى يدى . وما ان فعلت حتى ارتمت على صدرى

منتحبة ، تماما كما ترتمي طفلة على صدر أبيها تبكي ٠٠ وظلت كذلك تجهش وتنتحب ، وأنا أحـاول جهـــدي أن أهدىء من روعها ، وأجفف من دموعها التي كنت أحس بنقاطها تكاد تحرق قلبي ٠ وظللت بها طويلا حتى هدأت شيئا ، واطمأنت كثـيرا الى أنني سأكون بجانبها دائما ، وسأكون لها الأب ، والعـــون والصديق ، الى أن تظفر هي الأخرى بزوج تسكن اليه ، وتصبح لها أسرة تسعد بها ، وتركن اليها ٠

ولا أدرى كيف سرقنا الوقت فى تلك الليلة ، حتى اننـــا لم نفطن الى وجودنا الا عنـــدما بلغت الساعة الثالثة صـــباحا ؟ فانصرفت معها ، اذ كان يتحتم على أن أوصلها الى البيت كالعادة ٠٠ ولا سيما في هذا الوقت المتأخر من الليل ٠ فعارضت وطلبت أن تنصرف وحدها ، اشفاقا عـــلى من الخروج معهـــا فى ذلك الوقت ٠ ولكنى ألححت ، وكان الواجب مهما أصرت هي ، يحتم على ألا أتركها وحدها ، فانصرفت معى ٠ ومن حسن الحـظ أننا وجدنا التاكسى الذى يعرفنا سائقه جيدا ، والذى تعود دائما أن يوصلنا في مثل هذا الوقت من ليالينا السابقة ٠ وركبنا السيارة التى انطلقت بنا في صمت مطبق ، حتى أن السائق لاحـــظ علينا ذلك ، وأراد أن يتكلم ، أن يسأل ، ولكن خجله الذى أعرفه عنه منعه من أن يتدخل فيما لا شأن له به ٠ وظللنا كذلك حتى بلغنا أول الشارع الذى فيه بيتها ، واقتربنا من البيت ، ووقفت بنا السيارة في المكان نفسه الذى تعودت أن تقف بنـا فيه في الظلام ، وعلى بعد من القهوة التى كانت ماتزال مكتظة بالرواد ، ومن الطابونة التي كان العمل فيها في هذا الوقت على أشده ٠

ولما همت الفتاة أن تهبط من السيارة ، نظـــرت الى بعينين ممتلئتين بالدموع ، وتمتمت وهي تمد يدها الى يدى في الظلام وتمسك بها : أهكذا ستكون هذه آخر ليلة نلتقى فيها ؟

وقبل أن أجيب كانت قد أجهشت باكية مرة أخرى ، وارتمت على صدرى وطوقت عنقى بذراعيها ، ومن ثم راحت تقبلنى وهى فى قلب الســـيارة قبلات متلاحقة وهى تبكى ٠ فمـــددت يدى ومسحت بها على شعرها ، وقربتها الى صدرى وقبلتها أنا أيضا ٠٠ ولا أذكر هل تلاقت شفاهنا في هذه اللحظة أو لا ، لأن الذى حدث كان شيئا غريبا ، يكاد يشبه الحلم تماما ٠ فقـــد رأيت السائق يهبط فجأة من باب السيارة فى غضب شديد ، وينهال

علينا فجأة أنا والفتاة ضربا موجعا وهو يتفوه بألفاظ جارحة لم أسمع لها مثيلا من قبل فى حياتى • ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، ولكنه جذبنى فى عنف من ثيابى التى تمزقت ، وأنزلنى من السيارة وما ان فعل حتى أفقدنى هذا شعورى ، فانهلت عليه ضربا وتماسكنا فى عراك طويل ، وراحت الفتاة من هول المفاجأة تصرخ فى الليل صرخات كأنها النار ، ولا سيما عندما رأت ثيابى التى تمزقت والضربات التى كانت تنهال على ، فى وحشية لا حد لها • وتجمع سريعا على الصراخ عديد من الناس ، عمّال الطابونة جميعا ، ورواد القهوة ، وبعض السابلة الذين كانوا يمرون فى هذا الوقت ، والتفوا حولنا •

ولما وجد السائق ذلك ، وأراد أن يبرىء نفسه ، رمى الفتاة بكل فاحشة ونقيصة ، ورمانى بارتكاب أفعال شائنة فى سيارته •• وما ان سمع العمال وحثالة الناس هذا حتى صدقوه ، وتعالت ألفاظ الفحش والسباب ، وراح كل يلقى فى شرفنا بحجر ، كما راحت الفتاة المجنونة تصرخ وتولول • وفجأة رأيت منظرا كدت أفقد حواسى جميعا ، من فرط تأثرى به •• رأيت والدة الفتاة بجانبى ، وكانت قد استيقظت على صراخ ابنتها الذى كان يمزق حجب الليل ، وما ان رأت الناس ، وسمعت ألفاظ الغوغاء ، وعرض ابنتها الذى تتناهبه ألسنة هذه الحثالة ، حتى كاد يغمى عليها • واقتربت منى وهى تلطم خديها وتمتمت بألفاظ كأنها لفحات النار تماما ، ترجونى فى ذلة وانكسار خاطر لا يعرفه الا قلب أم جريح _ أن أحفظ عرض ابنتها أمام هذه الحثالة ، وأن أدعى بأن الفتاة خطيبتى ، وأن أنقذ الموقف بهذا الى أن ينصرف الناس • ولم أدر لماذا لم تواتنى أنا هذه الفكرة من قبل ، حتى كنت لا أسمع ماسمعت ، وحتى أرد السكين مسموما الى نحر كل هؤلاء الذين اشتركوا فى تلويث عرض برىء ، وشرف طاهر •• وما ان جاء الشرطة الذين تجمعوا على الصراخ فى الليل ، وأعلنت أن الفتاة خطيبتى وأمنت على ذلك الام ، حتى سقط فى يد الجميع ، ووقفوا فى صمت كأن على رءوسهم الطير ، بل انقلب الموقف الى العكس تماما وراح الذين كانوا يسبوننى ويسبون الفتاة ، يسبون السائق ويلعنونه ، حتى ان بعضهم كاد يفتك به ، مما جعله يبكى وهو يعتذر لى ويكاد يقبل يدى • وكان لابد لكيلا يخامر أحدهم الشك فيما قلت ، أن أصعد الى البيت مع

الفتاة ، ومع أمها ، فصعدت فعلا ، والكل يترضوننى ويترضون الفتاة ..

وفى بيت الفتاة جلست لحظات ، أسترد أنفاسى ، وأجفف عرقى الذى كان ما يزال يتصبب ، وأنظر فى خزى شديد ، لا حد له ، إلى الأم التى كانت من هول الفضيحة لا تزال تلطم خديها . أما الفتاة فلم أرها ، لانها كانت قد أغمى عليها وكانت كلما أفاقت من اغمائها تصرخ وتولول فى هلع وجزع .. وكنت أستمع الى صراخها الذى كان يأتى الى أذنى من الغرفة المجاورة التى كانت ملقاة فيها ، أشبه مايكون بسعير النار الملتهبة . وكنت أستمع الى هذا ، وأنظر إلى سحنه الأم الشاحبة فأود لو يغوص بى المقعد ، حتى أختفى الى الأبد . وفجأة ، وبينا أنا كذلك لاهث الانفاس ، اذا بى أسمع خارج الغرفة التى أجلس فيها صرخة مكتومة كأنها النار أو كأنها البركان الذى انفجر ، فلطمت الأم صدرها وانصرفت سريعا . وما هى الا لحظات حتى دخلت على الغرفة أشبه ما تكون بحيوان مضروب على أم رأسه ، جاحظة العينين ، مصفرة السحنة ، تغمر الدموع عينيها وتفيض على وجهها كله ، وارتمت عند قدمى ، وهى تبكى وتنتحب . وتردد فى مرارة لايعرف قسوتها غير القلب الذى استشعر حنان الأمومة ، وعطف البنوة .. ان ابنتها سوف تقتل الآن ، ولما استطلعتها السبب فى دهشة زائدة ، قالت لى وهى تشرب دموعها شيئا عجيبا زاد الموقف تعقيدا ، وجعل الأرض تدور بى .. قالت لى : أن شقيق الفتاة ، الذى كان فى نوباطشيته فى محطة القاهرة ، اتصل به أحد الجبناء ، وقال له : ان شقيقته ضبطت مع رجل فى سيارة بعد الثالثة صباحا ، وأنه - أى شقيق الفتاة - قد ترك عمله ، وجاء مجنونا الى البيت ، وأنه سوف يقتل الفتاة لا محالة ، وأنه لا يريد أن يصغى الى قولنا الذى قلناه للناس وموهنا به عليهم ، وهو أنك خاطب لها .

قالت لى الأم ذلك وارتمت مرة أخرى عند قدمى ، وراحت كالهرة التى تتنزى جراحها ، تمسح على حذائى بدموعها ، وهى تتوسل الى أن أنقذ الموقف ، وأرد الى الفتاة حياتها ، وأن أقول له أننى خاطبها حقيقة ، واننى كنت أريد اليوم أو غدا أن أعلنها له بصفة رسمية .

وقبل أن أجيب بشىء ، أو أفيق من هذه الدوامة التى أنا

فيها ، وجدت باب الغرفة يفتح على في عنف ، ويدخل منه شاب في الثلاثين من عمره ، وهو شقيق الفتاة ، وكأنه الثور الهائج تماما ، تلفظ عيناه الشرر ، وتزفر شفتاه زفرات محمومة ، ويحمل في يده مسدسا ، واتجه الى ٠٠ ونظر الى بعينيه اللتين كانتا بلون الدم تماما ، وسألنى من أنا ؟ وما سر وجودى فى بيته فى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟ وما صلتى بشقيقته ؟ ٠ فاضطربت وارتج على الأمر ، وتدهورت أنفاسى ، وتلعثمت تلعثما شديدا ٠ ودون أن أدرى شيئا ، وجدتني أقص عليه قصة لا أعرف حتى الآن كيف قصصتها ، ولا كيف أحكمتها هذا الاحكام ، وهى أننى تعرفت على شقيقته المرضة ، وأنا طريح الفراش فى المستشفى ، وأننى قدرت فيها عطفها على ، ورعايتها لى ، كما قدرت فيها أخلاقها ، وطهارة قلبها ، مما جعلنى أتمسك بها كزوجة لى ٠ ولما فاتحتها فى هذا ووجدت منها الموافقة ، لم يبق الا أن أعرض الامر عليك ٠٠

قلت له ذلك كله ، فنظر الى بعينيه اللتين كانتا لا تزالان تقدحان الشرر وقال :

ـ وماذا تقول فى هذه الفضيحة التى شاعت فى الحى كله ؟

ولما ارتبكت ولم أجب ، قال هو :

ـ لا مخرج من ذلك الا بعقد العقد ، ونعلنه على رءوس الاشهاد سريعا ، وقبل أنأهبط الى الطريق ، أو يرانى الناس ٠

فصمت ولم أجب ٠ ولم أدر أيضا ماذا مر من الوقت ٠٠ هل هو دهر ، أو هو لحظات تشبه الغمض ٠ وانما الذى أدريه هو أن المأذون قد حضر فعلا ، وعقد لى على الفتاة ، وأننى أصبحت زوجا شرعيا لسعدية ، وأن كل من فى البيت بعد ذلك قد استرد أنفاسه ٠ وانصرف المأذون ، وانصرف أيضا من كان معه ، وانصرفت أنا بعد ذلك ، انصرفت وأنا لا أصدق شيئا من كل هذا الذى حدث حتى أننى ظننته حلما ، ولم أصدق أنه حقيقة الا بعد أن غادرت البيت ، وألقيت بنفسى القاء داخل سيارة من سيارات الأجرة ، ارتميت فى قلبها لاهث الأنفاس ، فى الطريق الى بيتى ٠

وفى الطريق تذكرت أننى نسيت سلسلة المفاتيح على المقعد أو الطاولة التى كانت أمامنا ونحن نعقد العقد ، وكان بها مفتاح بيتى ، وأيضا مفتاح سيارتى الخاصة ٠ فعدت ثانية ،

وأمام بيت الفتاة رحت أصعد الدرج متخـاذلا لا آكاد أسـتـرد أنفاسي . وبينما أنا كذلك ، سمعت اسمي يتردد على أعـلى السلم ، وأمام مسكن الفتاة . فوقفت أصغي ، وأستمع الى هذا الحوارالذى كان يدور فيما يشبهالهمس ، بين أم الفتاة ، وسائق التاكسي الذي تسبب في كل هذا الذي حدث ..

الأم : « لا ياعطية .. أنا متفقة معك على ثلاثين جنيها » ..

عطية : (ثلاثين جنيها) يا ست هانم ؟ دا عريس لقطـة .. دكتور (أد) الدنيا .. وغير كده .. بلغنى أنه كان (ح يتجوز بكرة ، والا بعده) ..

فقالت الأم وهي تضحك في نشوة زائدة :

ـ طيب (خد كمان خمسة جنيهات بقشيش علشانك) ..

الشيء الذي نحبه

ما زلت أذكر جيدا اليوم الذى رأيت فيه لأول مرة صديقي الاستاذ عبد الفتاح الشنوانى المحامي . كان ذلك منذ خمسة وعشرين عاما على وجه التحديد .. وأيقظتنى أمي ذلك اليوم مبكرا على غير العادة ، وألبستنى الجلباب الأبيض الناصع و « الصندل » الأصفر الفاقع الصفرة . ولم تنس وهي تودعني على الباب وتقبلنى أن تتحسس جبهتي وقطعة الفاسوخ التى ألصقتها بخصلة من شعرى فوق الجبين مباشرة حتى تقينى شر الحاسد اذا حسد . ومن ثم انصرفت واللوح الاردواز فوق صدرى يشده الى عنقى ذلك الخيط الرفيع من الدوبارة . حتى بلغت « كتاب » الشيخ عليش فى وسط القرية . ومن ثم جلست متربعا على الحصيرة بين الصبية . أنظر الى سيدنا المتربع أمامنا على « الكرويتة » الخشب فى جسمه الثقيل الضخم الذى يشبه جسم الفيلة تماما ، وقد ارتفعت ذراعه الضخمة المنتفخة ، حاملا وجهه الكبير كبرا ملحوظا فوق يده الغليظة ومنظاره الأسود السميك الذى كسرت حمالته السلك اليسرى ، فاستعاض عنها

بخيطمن الدوبارة ، ومن ثمراح يزفر زفيرا متقطعا أشبه مايكون بثور يموت ، حتى ظننته يتوجع فعلا ، فقلت لصبى كان يجلس متربعا بجانبى ، ولا أعرف اسمه :

ـ هل سيدنا مريض ؟

فقال الصبى هامسا دون أن ينظر الى :

ـ يسمع منك ربنا ..

ثم عقب في همس مرة أخرى ودون أن ينظر الى أيضا :

ـ انه دائما هكذا ..

ـ دائما هو نائم هكذا ؟

ـ انه يتصنع النوم ، لكى يضبط من يتكلم ، ولحظتهـا تراه كالثور الهائج تماما ..

ـ انه ...

وقبل أن أتم سمعت فجأة صوتا أجش متجهما يدوى فى أذنى كالرعد وهو يصرخ :

ـ من الذى يتكلم ؟

فنطق الصبى الذى كان يتحدث الى على الفور وكل شيء فيه يرتعش .. وقال وهو يشير الى باصبعه :

ـ هذا هو الذى يتكلم يا سيدنا ..

ـ تعال هنا ..

انطلقت الكلمة من فمه الكبير كما تنطلق القذيفة من فوهـة المدفع تماما ، فسقط في يدى ووقفت أمامه مرتعشا أنظـر الى يده الغليظة التى تريد أن تنهال على صدغى ، وقلت متلعثما :

ـ والله ..

ولكنى قبلأن أتم سمعت الصبىاللعين يقول بصوت راعش :

ـ والله العظيم يا سيدنا هـو الذى كان يتكلم . وبالأمارة قال : هو سيدنا نايم ..

فلم يصغ اليه ، وانما قال يخاطبنى :

ـ ما اسمك ؟

ـ على مصطفى ..

ـ أين المعلوم ؟

ففرحت وأخرجت من جيبى سريعا منديلا صغيرا كانت أمى قد عقدت لى على أحد أطرافه قطعة من فئة خمسـة القروش ،

وناولته اياها سريعا جدا • فأمسك بها فى يده وتحسسها ثم قربها جدا من عينيه ، فقد كان لايرى الا عن كثب ، ثم ألقى بها على لوح من الاردواز كان بجانبه • ولما أعجبه رنينها وتيقن أنها من الفضة وضعها فى جيبه وهو يقول بصوت جاف يخاطب غيرى :

ــ الفلقة يا ولد ••

وفجأة خرج من بين الصبية صبى قصير بدين أعرج ، أشبه ما يكون بالدب تماما ، يحمل عصا غليظة من السنط ، انعقد على طرفيها جبل سميك من القنب ، وانحنى أمام سيدنا فى احترام • ولما ناوله اياها رجع خطوة الى الخلف بحيث وقف خلف ظهرى ، وأمسك سيدنا بالفلقة ومسح عليها بيده الغليظة •• وتحسسها فى حنان كبير ، كما يتحسس العازف الفنان الآلة التى يعزف عليها • ومن ثم نظر الى وقطب ، فانكمش وجهه المترهل وغدا كالقنفد تماما ، وقال بصوت ترامى الى أذنى كرنين النحاس الصدىء :

ــ نم ••

فارتعشت وانتفض جسمى ، وصرخت باكيا ، ولكن صرختى لم تخرج الى أكثر من شفتى •• لأن الدب القصير البدين الذى كان يقف خلف ظهرى مباشرة ، كان قد كتم أنفاسى وجذبنى من عنقى الى الخلف جذبة قوية طرحتنى أرضا ، وما هى الا لحظات حتى وجدت ساقى فى قلب الفلقة والحبل السميك قد التف عليهما كما يلتف الثعبان حول ساقى طائر ميت • ومن ثم لم أعد أسمع شيئا ، ولا حتى صرخاتى التى كانت تذوب وتتلاشى بين فرقعة «الزخمة» وهى تنهال على قدمى الصغيرتين ، فتذوب هى الأخرى وتتلاشى فى صوت سيدنا الذى كان يردد بصوت عال كلما سمع فرقعة فوق قدمى : •• واحد •• اتنين •• تلاتة •• الى أن بلغت الفرقعات عشرا بالتمام ••

وعند ذلك تقدم منى الدب القصير البدين وفك ساقى وأنهضنى •• وعدت الى مكانى وتربعت فوق الحصيرة وأنا أكتم دموعى وتوجعى أيضا ، لأن سيدنا قد أمرنى بذلك • ولما انتهت المعركة ، وعاد الصبية الى الألواح الاردواز وأمسكوا بها وراحوا يرددون خلف سيدنا فى صوت عال منغم : الألف لا شىء عليها •• والباء نقطة من تحتها •• رأيت الصبى اللعين المتربع بجوارى

والذى تسبب لى فى هذه النكبة ، يهمس فى أذنى وهو يكتم ما استطاع ضحكات عالية تريد أن تنطلق ، يقول فى تشفف لا حد له :

ــ تعيش وتاخد غيرها ..

عند ذلك لا أعرف على وجه التحديد ما الذى حدث ؟ ولكن الذي ما زلت أذكره جيدا ، وأذكره الى اليوم برغم طول الزمن ، هو أنى وجدتنى جاثما فوق صدر الصبي بعد أن طرحته أرضا ، وأن أكثر الصبية ــ ومن بينهم الدب القصير البدين ــ لم يستطيعوا زحزحتى من فوق صدره الا بعد أن أشبعته رفسا ولكما وصفعا ، حتى شفيت غليلي وارتاحت نفسي وهدأت آلام قدمى التى كانت الزخمة قد أحدثت بهما الكثير من الكدمات ..

***

كان هذا هو بدء تعارفنا ..

ومنذ ذلك اليوم وهذا اللقاء ، وهذه المعركة ، وأنا وصديقى عبد الفتاح الشنوانى صديقان لا ينفصل أحدنا عن الآخر أبدا .. تربطنا صداقة صافية ، ويجمعنا حب ويلمنا اخلاص مابعده اخلاص ، حتى أننا أصبحنا لا نفترق حتى فى الليل ، ولا حتى فى ساعات النوم ، فهذا الليل وهذه الساعات كثيرا ما كنا نقضيها فى دارنا التى تجاور داره فى القرية ، أو نقضيها فى داره .. اذا وجدت أمه فهى أمنا ، واذا وجد والده فهو والدنا ..

وحتى لما انتهينا من مرحلة « الكتاب » فى القرية ، وتاب الله علينا من وجه سيدنا ، ومن ذلك الدب القصير البدين حامل الفلقة والعالم بأسرار استعمالها ، وانتقلنا الى المدرسة الأولية بالمركز ، انتقلنا معا ، وكنا نركب معا الى المركز حمارا واحدا ، ونجلس متجاورين فى الفصل بالمدرسة الابتدائية ثم الثانوية فى الزقازيق كما كنا نقطن معا فى غرفة واحدة ، وننام فى فراش واحد ، حتى ملابسنا كانت واحدة ! فلقد جمع الله بيننا حتى فى بسطة الجسم . وكذلك ظللنا طوال مراحل التعليم لم نفترق ، حتى لما تخرجنا فى الجامعة وتخرج هو فى كلية الحقوق ، فقد كان يميل الى الأدب ويعشق المحاماة منذ حداثته ، وتخرجت أنا فى كلية الطب ــ ظللنا فى البيت الذى كنا نقطنه ونحن طلبة ، فى ميدان الجيزة ، وآثرنا ــ على الرغم من تفوقنا فى التخرج ــ العمل

الحر ، ربما كان ذلك دون أن ندري لكيلا تفرق الوظيفة بيننا ، ففتح له مكتبا في ميدان الازهار ، وافتتحت أنا عيادة فى شارع البستان . وبرغم السنوات القلائل التى بدأناها معا فى العمل بعد التخرج ، قدر لنا معا النجاح ، فعرفت أنا كطبيب ناجح مخلص لمهنتي وهذا هو قمة النجاح من غير شك . كما عرف هو سريعا كمحام كبير ، وكان ذلك بسبب قضية سياسية كبيرة كان لها دوى كبير فى ذلك الوقت ، وكان هو أحد المترافعين فيها ، بل كان أمهر الذين ترافعوا فيها فعلا . وبذلك أتم الله علينا نعمته ، وعشنا فى رغد من العيش وهناءة من الدنيا ، لم يفكر أحدنا فى شيء غير مهنته التى كانت تأخذ كل وقته ، حتى المرأة لم نفكر فيها ، والزواج لم يخطر لنا على بال ..

ولا أنكر أننا فى كثير من الأحيان ، ودون قصد منا ، نفكر فى المرأة وفى الزواج ، ونؤمن بأن هذا شيء لابد منه ، غير أن أشياء كثيرة هامة فى حياتنا اذ ذاك تلهينا عن هذه الفكرة حتى نكاد ننساها تماما ،ولاتفكرنابها الا « دادة سكينة » وهى الخادمة العجوز التى وفقنا اليها منذ نزحنا الى القاهرة وظلت معنا هذه السنين ، كانت لنا بمثابة الأم وبمثابة الخادم وبمثابة الأخت والصديق ، وهى التى كانت من حين الى حين تذكرنا بالمرأة وبالزواج ، وما زلت أذكر قولها لنا دائما ، وكلما رأتنا ورأت حبنا المتبادل ، ورأت نجاحنا فى الحياة ، ورأت أيضا سننا التى بدأت تتقدم وتزيد على الثلاثين :

— أحسن شيء أنكم تتجوزوا اثنين أخوات ، عشان تفضلوا مع بعض طول العمر ..

فكنا نضحك من قلوبنا ، ونقول لها ، ولعل قولنا كان باخلاص فعلا :

— ياريت يادادة سكينة ..

وهكذا ظللنا نعيش لم يعكر صفو حياتنا معكر ، أللهم الابعد أن مات أبى رحمه الله ، وأختلفنا على الميراث أنا وأخوتى .. فقد كان رحمه الله متزوجا غير أمى ، وأنجب منها أولادا ، ولكنه كان يؤثرنى عليهم ولذلك خصنى دونهم فى التركة بضيعة صغيرة كانت تبعد عن القرية قليلا ، هذه الضيعة هى التى تسبب لى الكثير من المنغصات ، اذ أن أخوتى من أبى كان الحقد يأكل قلوبهم ، لذلك كثيرا ماكانت تحدث حوادث متتابعةوغيرمتتابعه

.. كحريق المحصول وسرقة الماشية وما الى ذلك من حوادث معروفة في الريف ..

وكان بطبيعه الحال الذى يتولى شئونى في هذه القضايا جميعا هو عبد الفتاح ، فقضاياى جميعا عنده ، وهو الوكيل عنى فى جميع أعمالى القضائيه التى كثرت وتجاوزت الحدود ، وكانت سببا فى متاعبى حتى فكرت فى أن أبيع هذه الضيعة أو أتخلص منها على أى وضع .وكان هذا هو رأى عبد الفتاح أيضا وكذلك رأى عم دسوقى ، ذلك الرجل الريفى الطيب الذى كان يتولى شئون الضيعة نيابة عنى ، وكان هو السند المنيع فى وجوه اخوتى الذين يحاربوننى بكل سلاح ، وكنت أعتمد عليه فى كل الأمور ، فقد كانت مشاغلى فى القاهرة كثيرة ، ومتاعب العمل فى العيادة مرهقة لا تجعلنى أفكر فى أمر آخر .

وظللنا نعيش هكذا كما يعيش أى انسان فى هذه الحياة ، فى دوامة من المتاعب ، ولكن وجود عبد الفتاح بجانبى كان يخفف عنى كثيرا بل يكاد يجعلنى على الرغم من هذه المتاعب جميعا أحس فى قرارة نفسى براحة تامة وهناءة دائمة وسعادة لا حد لها . فقد كان وجوده بالنسبة لى كالثقاب الذى نحتاج اليه اذا مااحتوتنا ظلمة السلم الذى يتحتم علينا أن نصعد درجاته ..

وظلت الحال كذلك الى أن حدث ذات ليلة أن دق جرس التليفون فى العيادة ، واذا بالنبأ المزعج يدق قلبى كما كان يدق جرس التليفون أذنى تماما .. فقد قتل عم دسوقى .. أطلق اللصوص رصاصهم عليه فى الظلام وهو عائد من الضيعة الى البيت ، فخر صريعا لنحظته .. ودارت بى الأرض وسقطت سماعة التليفون من يدى التى ارتعشت للنبأ الفاجع ، واتصلت بعبد الفتاح الذى حضر على الفور ، ولم يمهلنى حتى نتحدث فى الامر وانما طلب منى سرعة الذهاب فورا الى القرية ليحضر هو التحقيق من أوله فقد بلغ الأمر حد الخطورة وأصبح لايمكن الاستهانة به ، وما هى الا لحظات حتى كان عبد الفتاح يجلس بجانبى فى قلب السيارة . ويدى التى مازالت ترتعش تمسك بعجلة القيادة .. والسيارة تنهب بنا الطريق فى وسط ظلمة حالكة ، كالتى تجثم على قلبى تماما ، ورحت فى الطريق أستعرض الأحداث ، والناس والنفوس التى تحرق بعضها بعضا ، من أجل متاع زائل ودنيا فانية ..

ان اللصوص الذين صوبوا رصاصهم الى صدر عم دسوقي ، وأهدروا دمه ، هم أهلي ٠٠ واخوتي وعم دسـوقي هو لي بمثابة الأب ، كانت صلته بأبي رحمة الله عليه وطيدة للغاية ، وكان مخلصا الاخلاص كله ٠٠ وامتد هذا الاخلاص لي بعد موته ٠٠ ولقد كنت أحس وأنا أصافحه أو أنظر الى لحيته الناصعـــة أثر الاخلاص الذي يشع من عينيه ٠٠ انه أبي على الرغم من أنـــه كان أجيرا عندنا ٠٠ وتذكرت آخر مرة زارني فيها بالقاهـــرة وكيف انه كان متعبا بسبب السن التي تقدمت به وأيام الشقاء الطويلة التي مرت عليه ، وأعطيته يومها بعض الادوية والفيتامينات لتشد من قواه بعض الشيء ٠٠ وتذكرت صدره الخافت المضطرب وأنا أفحصه ، وأضلعه التي كانت تعد بالواحدة وكيف تبـدت لي هي الاخرى نخرة متآكلة من فعل الزمن ٠ ثم تخيلت الرصاص الغاشم ، وهو يخترم هذا الصدر الضعيف ويفتت هذه الأضلاع العجوز المتآكلة ، وكدت أرى رأى العين الرصاصات الست التي اخترقت صدره الضعيف وأحدثت به تلك الفجوات التي غارت في الصــدر ، فاضـــطربت وأغمضـــت عيني دون أن أدري ، وارتعشت يداي ٠

وفجأة رأيت مقود السيارة يفلت من يدي ، وفجأة أيضا رأيت سيارة مازوت كبيرة ترسل ضوءها القوي في عيني مخيفا مزعجا ، تماما كما لو كانت فوانيس هذه السيارة هي العيون القاسـية التي كانت تنظر الى عمد وقي والرصاص يصوب اليه ، فازداد خوفي ٠ حدث كل هذا في لحظات تشبه الغمض ، كما حـــدث أيضا في هذه اللحظات القصار جدا أشياء وأشياء ، ولكنني لم أدر منها شيئا حتى هذه الساعة ، وكل الذي أذكره جيدا ـ لأنه لاينسى ـ هو أنني فتحت عيني فوجدتني مسجى على فراش في احدى غرف مستشفى ريفي كان هو أقرب المستشفيات لمكان الحادث ، ورأيت عبد الفتاح على سرير آخر في الغرفة نفسها وقد عصبت الضمادات أكثر أجزاء جسمه ٠ ورأيت أكثر من طبيب حوله وشيئا من اليأس مرتسما على وجوههم ٠ فأغمضت عيني سريعا ٠ كيف أقدر على هذه الرؤية ؟ ٠ انه حياتي ، انه دنياي وكل شيء لي في هذه الحياة ٠٠ يارب ٠ وظللت مغمض العينين بعد ذلك ، مطبق الشفاه أيضا ، حتى أذني كانت لاتسمع الحديث الذي يدور بجانبي الا صدى ٠ وظللت كذلك ثلاثة أيام مغمض العينين مطبق الشفاه ، مغلق الأذن أيضا ٠٠ وليـــس ذلك ـ عـلى

ماعرفت فيما بعد ـ لأن اصابتي كانت خطيرة ، فقد اتضح أنني لم اصب بسوء من جراء الحادث ٠٠ ولكن هذا لأنني كنت أشفق على أنفاسي أن تخرج ولا تعود أن. تحققت أن عبد الفتاح قدأصيب بسوء فعلا ٠٠ وكان الذي كنت أخافه هو الذي كان ينتظرني فعلا ٠٠ فما إن مرت الأيام الثلاثة ، ووقفت على قدمي واشتركت مع زملائي أطباء المستشفى الأربعة في فحص اصابة عبد الفتاح ورأينا الاشعة ورسم القلب ، حتى سقط في يدى ، لقد انتهت حياة عبد الفتاح الى الأبد ، بعد أن أحدثت الاصابة في القلب هذا الذي أحدثته ، حقيقة أنه قد يعيش ٠٠٠ قد يعيش شهورا وقد يعيش سنوات ، وقد يعيش أيضا عمرا طويلا ، ولكن حياته ستظل الى الأبد ، رهنا بأى جهد يبذله ٠ انها سوف تصبح تماما كالسيجارة ، حياتها رهن بعود الثقاب ، ان هو مسها احترقت ، ومن سوء الحظ أن عود الثقاب سوف يبقى مابقيت السيجارة ، ان المصير المحتوم هو الاحتراق ، والا فأين الانسان الذي يستطيع أن يعيش دون أن يبذل أى جهد ، وهل الحياة نفسها الا جهد كبير ؟ ٠٠

فكرت في هذا سريعا ، ولكنني عدت وتذكرت فيما هو أهم من الغد ، فكرت في اليوم ، وفي ضرورة بذل جميع الاسعافات السريعة التي تكفل له النجاة من الموت ، وفكرت في نقله من هذا المستشفى الريفي إلى القاهرة مثلا ، اذ أن العناية هناك أكثر من غير شك ، ومع أنه كان يتعذر هذا بالنسبة لحالته ، فانني لم أعد أفكر فيها ثانية ، فان العناية الفائقة التي بذلها الزملاء أطباء المستشفى كانت كافية وكانت مطمئنة ، بل كان لايمكن توافرها في أي مستشفى آخر في أي بلد من بلاد الدنيا ، فقد اعتبروا عبد الفتاح أكثر من أخ لهم ، حتى انهم كانوا يلازمونه بصفة دائمة في الليل وفي النهار ، لدرجة أنه كان لايفتح عينيه الا على واحد منهم يبتسم له ويخفف من آلامه ، وكان هذا توفيقا من الله من غير شك ٠ وكان من توفيق الله أيضا تلك الفتاة التي كانت تشبه الملائكة في كل شيء ، والتي كان لها الفضل الأول في التئام الجراح ، حتى لكأنها خلقت لتطب جراح الناس فعلا ، وتهبط عليهم كما تهبط الملائكة من السماء ، فتخلق من آلامهم وجراحهم وأنفاسهم المحترقة أنسا ونورا وبهجة ٠

هذه الفتاة هي «الست الحكيمة» ـ كما كانوا ينادونها في المستشفى ، وكان اسمها فتحية ، ولكنها كانت لاتنادى بهذا

الاسم ، وبرغم أني شاهدت حكيمات كثيرات ، وممرضات وما الى ذلك من سيدات وآنسات رحيمات بمرضاهن ، فانهن جميعا كن أشبه ببائع الزهور ٠٠ يعرفن كيف ينسقن الحب ويقدمن العطف باقات باقات ، ويعطرن المودة بعطر الحنان دائما ، ولكنهن جميعا بعد أن ينتهين من عملية هذا البيع ، أي يخرجن من غرف مرضاهن ، لايذكرن شيئا من هذا ، أما فتحية فلم تكن كذلك، كانت تشعر أنها هي المريضة مادام المريض يتوجع أمامها ،وكنت أنظر اليها من حين الى آخر ، وأحاول أن أكذب نفسي وأقول انها كالآخرين ، ولكني لم أستطع ٠ كان الحنــان والعطف والرقة ، والحب الحقيقي ، كل ذلك صفة فيها ، وكانت تمتاز فــوق ذلك بجمال أشبه مايكون بجمال الأساطير تماما ، أقول جمال الأساطير لانني رأيت فتيات جميلات جدا ، ولكنني لم أر مثال فتحية في جمالها ورقتها وعذوبتها ، لقد كانت في مجموعها أشبه بلحن خالد على الزمن ، وكنت أنظر اليها وهي في ملابسها البيض ، وعيونها الزرق ذات الأهداب الطويلة ، ورنواتهما التي تنبثق كالشعاع من حين الى حين ، وهي تجلس بجانب عبد الفتاح وتتحدث اليه أو تقيس له حرارته أو تغير له ضمادة من الضمادات ، وأصغي الى أحاديثهما التي كانت تهز القلب كما يهزه رنين الوتر ٠ وأرى عطفها الزائد وحنانها الجم على عبد الفتاح وابتساماتها التي كانت تشع نورا في عينيه وأحسها (بلسما) يطب جراحه فعلا ، وأحدث نفسي ، ليست هذه بشرا ٠ انها ملاك بعثه الله من الســـماء الى المستضعفين من عباده ٠

وعلى الرغم من أن فتحية كان عملها في المستشفى هو الاشراف فقط فانها بالنسبة لعبد الفتاح كانت خادما وحكيمة وممرضة في وقت واحد ٠ وكثيرا ماسهرت الليل بطوله بجوار سريره ، ولعلها أحست بمدى محنتي وحالتي النفسية بعـــد أن عرفت إصابته فكانت تواسيني وتطمئنني كما تطمئنه تمـاما ، لقـد أصبحت في يوم وليلة كشريكة ثالثة لنا في حياتنا ٠ وأذكرانني ذات ليلة كنت ساهرا في غرفة كبير الاطباء ، وحدث وأنا في طريقي الى غرفة عبد الفتاح أن التقيت بفتحية واقفة في الشرفة وشيء من الدموع في عينيها ، ولما سألتها ، وكانت لاتعــرف الكذب ، عـــرفت أنها تبكي لأن عبـد الفتاح لم ينم الليلة نوما هادئا ٠٠٠ يالله ! ٠٠ ألى هذا الحد تحمل هذه الفتاة هذاالقلب؟٠

ومرت أيام ، وبفضل هذه العناية وهذا العطف ، تحسنت حال عبد الفتاح فعلا ، وبدأ يتماثل للشفاء ، ويغادر الفراش ويجلس بجوار السرير ٠ وكانت فرحة فتحية بذلك تكاد تزيد على فرحتي، وبدأت أطمئن ، وبدأت أترك المستشفى وأترك عبد الفتاح أياما أذهب فيها الى القاهرة وكان شخصي معه مادامت فتحية بجواره حتى أنني كنت اذا ماعدت الى المستشفى لأرى عبد الفتاح ،أحس بفرحة زائدة تكاد تفيض على القلب ٠٠ لأنني سأرى فتحية ٠٠

وظللت كذلك ، وكلما كثر تفكيري في فتحيه ، أو أحسست بشيء من الضيق كلما فارقتها الى القاهرة ليوم أو يومين ، أو أحسست بالفرحة تكاد تفقدني صوابي كلما رأيتها وطالعت عيني عينها ، وشاهدت ذلك الوجه الذي يشبه وجه الملائكة ـ كنت كلما أحسست بذلك أرجعت هذه العاطفة المشبوبة نحو هـذه الفتاة ، لا الى حب ، ولكن الى تقدير مرجعه عنايتها بعبد الفتاح الى أن حدث ذات ليلة وكنت أبيت بالمستشفى وكانت فرحتي هذه الليلة لاتقدر ، فقد تحسنت صحة عبد الفتاح فعلا وأصبح خروجه من المستشفى قريبا ، حدث في هذه الليلة انني التقيت بفتحية واقفة في شرفة المستشفى ، وهي شرفة كبيرة تطل على منظر رائع الجمال ، على الحقول المترامية وسنابل القمح الصـفراء ينعكس عليها ضوء القمر في الليل فيحيلها الى مايشـبه تلال الذهب ، فوقفت بجوارها وكانت في الشرفة تنظر الى الحقول في ابتهاج كبير ، فقلت لها وكنت قد أحضرت لها معي هدية كبعض الهدايا الصغيرة التي تعودت أن أحضرها لها معي من حين الى آخر كلما ذهبت الى القاهرة وعدت الى المستشفى :

ـ أتعجبك هذه الهدية ؟

وكانت سلسلة رفيعة من الذهب تحمل مصحفا من الذهب أيضا ، فقالت وهي تنظر الي :

ـ كيف لاتعجبني وهي ذكرى سعادة لاتنسى ؟ ٠٠

ـ أالى هذا الحد أنت سعيدة بشفاء عبد الفتاح ؟٠٠

ـ أفلا يسعد انسان بشفاء مريض ؟ ٠٠

ـ وهل ستظل هذه السعادة ؟

ـ كلما طالت الذكرى ٠

ـ أي ذكرى ٠٠؟

ـ ان انسانا عزيزا عليك شفي ٠

ـ اذن ٠٠٠

وخفق قلبى فلم أتم ·· وقلت غير ماكنت أريد قوله :
ـ ولكنك تعرفين سر مرض عبد الفتاح الذى نخفيه عنـــه ، وكيف ستكون حياته بعد ذلك ؟
ـ اذا قدر لنا أن نختار ، فأهون الشر ، أهكذا أم الموت ؟
فصمت حينا ولم أجب · ثم قلت لها :
ـ وهل تعرفين أن هذه الذكرى بالنسبة لى ستظل سـعادة رائعة · ؟
فقالت وهى تسبل هدبيها الطويلـين فوق العيـون الزرق الواسعة :
ـ أعرف ·
فخفق قلبى مرة أخرى اذ عرفت فجأة أننى أحببت فتحيــة فعلا ، وأن حبها وصل الى قلبى دون أن أدرى ، وأنه تسلل اليه من باب عرف كيف يدخل منه حقيقة وهو باب حبها ورعايتهــا وعنايتها الفائقة بعبد الفتاح ·
وظللت صامتا ، الى أن حانت منى نظـــرة الى وجهها الذى انسكب عليه ضوء القمر فى الليل فزاده بهاء وفتنة ، وقلت وأنا أحس بشىء فى قلبى يدق :
ـ هل تعرفين أننا سوف نغادر هذا المستشفى بعد أيام ؟
فصمتت ولم تجب ، وظلت كما هى مغمضة العينين، ونظرت الى يدها التى كانت قد ارتفقت بها جدار الشرفة ·· فمـددت يدى وتحسستها فى الظلام · وما أن فعلت حتى ارتعشت يدى اذ سقطت عليها فجأة بعض نقاط دافئة كانت تنحدر من عينيها ، فكدت أصرخ وأنا أمسك بيدها وأضغط عليها :
ـ فتحية ···
فسحبت يدها من يدى فى حنان ، وأصابعها تمتد الى شفتيها لتمسح الدموع التى كانت تساقطت عليها ، وقالت :
ـ كم الساعة الآن ؟
ـ الواحدة ··
ـ لاتقل هذا ·· أرجوك ··
ـ ماذا يخيفك ؟
فقالت وهى تغادر الشرفة سريعا :
ـ لا أدرى لماذا أنا أتشاءم من هذا الرقم ·
فنظرت اليها وهى تغيب فى قلب الظلام فى ثيابها البيضاء، كما يغيب العصفور الأبيض فى جنح الظلام ·· وظللت مكانى

لا أدرى فى أى شيء كنت أفكر ، ولا بأى عاطفـــه أو حب كنت أتحدث الى نفسى • ولكن الذى أدريه تماما ، هو أننى لم أنم فى هذه الليلة نوما هادئا الا بعد أن عقدت العزم على شيء ، وهو أن يوم خروجنا من المستشفى سوف نخرج ثلاثتنا •

وفى الصباح أبى الله ألا أن تتم نعمته على ، فقد قدر فعلا خروج عبد الفتاح يوم الخميس ، أى بعد ثلاثة أيام ، ولا يعلم غير الله كم كانت فرحتى بهذا النبأ الذى استبشرت به خيرا كثيرا فى وجه فتحية ، الذى ما أن عقدت العزم على الزواج منهـا حتى بدأت الأنباء السارة تسابق بعضها البعض ، حتى الجناة الذين قتلوا عم دسوقى رحمه الله وأهدروا دمه ظلما قد قبض عليهـم واعترف البعض على البعض الآخر ، وبذلك أكلت النار بعضها ، وانهـدم الجدار الأسود الذى كان يقض مضجعى ويسبب لى الكثير مـن المتاعب •

وهكذا انصرفت الى القاهرة على أن أعود اليها يوم الخميس ، وان أنس فلن أنسى ماحييت تلك اللحظة التى صافحتنى فيهـا فتحية وهى تودعنى أمام باب المستشفى وأناملها التى تشبه فى رقتها أوراق الورد تتحسس يدى وتقول فى صوت كالنغم العذب وهى مسبلة الهدب خجلا تنظر الى مكان قدميها :

ـ أشوف وشك بخير ياعلى ••

كان لهذا النغم العذب الذى نطقت به اسمى مجردا فعل السحر الذى ظل يلازمنى هذه الايام الثلاثة •

وكان أول شيء فعلته فى القاهرة هو أن ذهبت الى « الصاغة » واشتريت دبلتين من الذهب ، وكتبت على كل واحدة منهما الحرف الأول من اسمى واسم فتحية • ومع أننى كنت أترقب يوم الخميس بفارغ صبر ، ومع أن أيام الانتظار دائما تمر ثقيلة على غير ماكنت أنتظر ، الا أن الثلاثاء والأربعاء قد مرا سريعا على غير ماكنت أنتظر ، وعلى غير ماكنت أنتظر أيضا ذهبت الى البيت فى مساء الاربعاء ، وما كدت أستريح قليلا حتى دق التليفـون ، وما أن أصغيت الى صوت المتحدث ، وكان الدكتور الشربينى كبير أطباء المستشفى ، حتى أحسست بما يشبه ناب أفعى رقطاء ينغرس فى أذنى وينفث سمه فى جسدى مرة واحدة ، فسقطت السماعة من يدى دون أن أفقه من الحديث شيئا سوى كلمة واحـدة مازلت أعيها الى الآن ، وهى أن عبد الفتاح قد مات ••

لا أدرى كم من الوقت ظللت مرتميا فوق المقعد الذى كنت أجلس عليه ، ولا كم عدد الصور والمرئيات التى ظلت تروح وتجيء وتقف وتسير أمام عينى ، ولكن الذى استوعبته من هذه الصور والمرئيات الكثيرة دبلة من الذهب كانت تروح وتجيء أمام عينى ، ولم أتحقق من رسمها هذه المرة بقدر ماتحققت من صورة فى قلب الدائرة الصغيرة كانت تذهب بعيدا بعيدا فلا أستطيع أن أتبينها ، وتقترب كثيرا فأعرف فيها صورة وجه عبد الفتاح.

ومنذ ذلك التاريخ الى الآن ، مارأيت فى نومى أو يقظتى وجه عبد الفتاح الا رأيت بجانبه وجه فتحيه ، وما رأيت وجه فتحية الا سمعت منها هذه الكلمات مازالت تنصب فى أذنى كالنار وهى تسألنى :

ـ كم الساعة الآن ؟

ـ الواحدة .

ـ لاتقل هذا .. أرجوك .

ـ ماذا أخافك ؟

ـ لا أدرى لماذا أنا أتشاءم من هذا الرقم ..

... ترى هل مازالت فتحية الى اليوم .. وحيدة ؟؟؟

نساء محرمات

كنت أركب الأتوبيس رقم٢٦ الذاهب الى حدائق القبة ،وكان الجو حارا والزحام شديدا ، وأعصاب تلك الحفنة من الناس التي حشرت حشرا في تلك العلبة الحمراء ، التي تشبه في لونها علبة السردين ، يكاد ينفلت زمامها ٠٠ وفجأة سمعت بجوارى نقاشا حادا أشبه مايكون بالانفجار ، فالتفت فاذا بسيدة جميلة تبدو عليها مسحة من الوقار وتلتمع في عينيها الكبيرتين الواسعتين ومضات تنم عن خلق وأصل ، تقول للكمسارى وهى تخرج من كيس نقودها ورقة مالية من فئة الجنيه وقدمتها له وهى تقول مؤكدة :

ـ قلت لك ليس معى فكة ٠

فقال وهو يتناول منها الجنيه فى غير مأأدب :

ـ أنا أيضا ليس معى فكة ٠

ـ وماذا أصنع

فقال فى غلظة :

ـ انتظرى حتى تجىء الفكة

ـ ولكني سأنزل في المحطة القادمة
فازدادت قحته وقال :
ـ ليس هذا شأني . تصرفي
فيغمرها الخجل وهي تقول في صوت خفيض :
ـ وكيف أتصرف ؟
فأجاب صوت من بعيد لا شأن لصاحبه بالموضوع وقال في سخرية :
ـ بسيطة .. انزلي ..
فتضرج وجهها خجلا ، وارتعش ذلك النور الذى كان يتألق في عينيها الكبيرتين وقالت في ارتباك لا حد له :
ـ اتفضل أكتب الباقي على التذكرة
وضايقني سخافة أولئك الذين يزدحم بهم الأتوبيس أحيانا، ويتدخلون دائما فيما لايعنيهم ، فمـددت يدى دون أن أتكلم ، وقدمت للكمسارى القروش الثلاثة ثمن التذكرة وأخـذت منه الجنيه وناولته الى صاحبته . وكأن هذا زاد في حرجهـا ، لأن وجهها ازداد حمرة حتى غدا بلون الدم ، وكل الذى فعلته أنها رنت الى نصف رنوة كان فيها كل الشكر الذى يفرضه الذوق في هذه الحالة ، واعتبرالامر منتهيا . ووقف الاتوبيس بعدلحظات في المحطة التي كنت سأهبط فيها ، وما أن وقفت ورحت أفسح لي طريقا وسط الزحام الخانق ، حتى وجدتني مسمرا في مكاني أتصبب عرقا وأنا أستمع الى الكثير من التعليقات السخيفـة ، والعبارات السمجة التي كانت توجه لي . فقد كانت هي الاخرى ستهبط في المحطة نفسها ، وقد ظن بعـض السـخفاء انني أريد اللحاق بها ، ولذلك راح كل واحد يلقي بسخافة من السخافات: احم . احم .. السنارة غمزت .. أيوه .. التذكرة مش لله .. دى طعم بس .. وصعد الدم الى وجهي وأردت أن أسب هـذه الحفنة من المخلوقات القذرة ، ولكن لم أقدر .. فقد تجمدلساني من الخجل الشديد الذى ألم بي ، واستطعت أن أرد لهم جميعـا هذه السهام ، فقدظللت واقفافي مكاني . وقد سار بي الأتوبيس دون أن أهبط خلفها كما كانوا يظنون ، بيد أنه من سوء الحظ أن المحطة الثانية التي نزلت فيها كانت مسافتها طويلة جدا ،وقد شعرت بذلك وأنا أعود فأقطعها سيرا على قدمي في الحر الشديد. ورحت أسب النية الحسنة والخير والذين يصنعونهما في هـذا

الزمن ، حتى بلغت المكان الذى كنت أقصده وأنا أشد ما أكون ارهاقا وتعبا ..

ومرت الأيام ، وذهب هذا كما يذهب غيره فى عالم النسيان فنسيته تماما فلم أعد أذكره ، اللهم الا اذا تصادف أن رأيت أتوبيسا فى الطريق ، عند ذلك أذكره ، وأذكر الجميل منه فقط وهو أننى رأيت يوما وجها جميلا وعيونا ذات حسن ، وذراعا لم أر لها مثيلا فى اشراقة بشرتها وصفائها . كنت أذكر هذا كله وأتذكر معه أيضا كيف أنه هز قلبى فى لحظة ما ، فلا أملك بينى وبين نفسى الا اننى أحمد للذكريات ماتحتفظ لنا به أحيانا من أشياء نسعد بها كلما عاودتنا الذكرى اليها . الى أن حدث ذات مساء ، وكنت أقف أمام شباك احدى دور السينما لأشترى تذكرة وأخرجت من جيبى جنيها قدمته للبائعة التى قالت لى وهى تبتسم فى لطف :

ـ متأسفة ، ليس عندى فكة .

ـ وأنا أيضا كذلك

ـ وماذا أصنع ؟

ـ أكتبى الباقى على التذكرة

ومدت الفتاة يدها لتناول الجنيه الملقى أمامها ، ولكن يدا أخرى سبقتها اليه وتناولته ، وسمعت صوتا أعرفه جيدا يقول بجوارى للبائعة :

ـ لاتكتبى شيئا .. اعطيه التذكرة ، وأنا معى فكة .

وقبل أن أرى الوجه رأيت الذراع التى أعرفها جيدا أيضا تمتد الى بالجنيه فى يدها ، فالتفت فاذا بها كانت بجوارى دون أن أفطن ، واذا بها فى حركة لا أدريها نحتنى عن الشباك ووقفت هى ، ثم جاءت الى بعد ذلك وقدمت الى التذكرة . ولما حاولت أن أقول شيئا ، لأن مجرد النطق فى هذه اللحظة كان يحتاج الى محاولة كبيرة ، قالت هى وعلى ثغرها ابتسامة عذبة :

ـ اننى فقط أرد الدين

ـ ولكن ..

فازدادت ابتسامتها اشراقا وقالت :

ـ ولكن ماذا ؟ .. انها تذكرة بتذكرة

ثم عقبت وهى تترك التذكرة فى يدى وتنصرف الى سيدة كانت تقف بعيدا تنتظرها :

– انني سعيدة بهذه المصــادفة التى مكنتني من أن أرد لك جميلك الذى لاينسى ٠

ووقفت في مكاني أتعجب لهذه المصادفة ٠٠ فعلا ، وأتعجب أيضا لشيء آخر كان يغيظني جدا ، وهو الارتباك الشديد الذى ينتابني كلما سنحت مثل هذه المصادفات الجميلة ، فأنا – كما يقول المثل القديم – أسد مهول ، أو وحش مفترس اذا أردت ، ولكن مع نفسي فقط ٠ أما مع النساء – والنساء الجميلات ، ولا سيما اللائى أحس نحــوهن بشيء ما – فأنا كالنعامـة تماما ، لا حول لى ولا قوة ولا حتى قدرة على احتمال مواجهتهن ٠ ولذلك وقفت فى مكاني مرتبكا ارتباكا شديدا أفكر فى رقم التذكرةالتى معى ، وهل مقعدى يجاور مقعدها ، أو هو يبعد عنــه ٠ وكلما تغلبت فكرة تجاورنا ازداد ارتباكي ، ولولا أنهــا كانت الليلة النهائية لعرض الفيلم وكنت حريصا على أن أشاهده لتركتدار السينما فى تلك الليلة وذهبت الى بيتى ٠ وأخــيرا تشجعت وتوكلت على الله ٠ ودخلت القاعة ، وكــل تمنيــاتى ألا يكون مقعدى بجوارها ٠٠ وكنت صادق النية فى هذه الامنيـة وفى تحقيقها ٠٠٠ لماذا ؟ لا أدرى ٠٠ هل أنا أحببت هذه السيدة ٠؟ هل فعلا أخذنى جمالها ، ولا سيما عندما رأيتها للمرة الثانية ٠٠ أو أن احساسى – بعد أن رتبت لنا المصادفة هذا اللقاء حدثنى بأن شيئا ما سيكون له خطره سيحدث ؟

وكان عرض الفيلم قد بدأ ، وأطفئت الأنوار وسرت فى الظلام أتعثر خلف العامل الذى يقودنى الى مقعدى ٠٠ حتى أوصــلنى وأجلسنى بجوارها جنبا الى جنب ، وتركنى أتصبب عــرقا من الحرج الذى أنا فيه وأى الطريقين أسلك ٠ هل يحتم على الذوق والأدب فى هذه الحالة أن أحييها وأنا أجلس بجوارها وفى المقعد الذى دفعت هى لى أجره ؟ ٠٠ وهل هذا اللقاء الذى رتبتـه لنا المصادفة ٠٠ فى المرتين كفيل بأن يجعلنا على الاقل متعارفين فيحيى كل منا الآخر كلما رآه أو جلس بجواره ٠٠ أو الذوق يحتم على أن أعتبر كل شيء بيننا أصبح منتهيا بمجرد أن ردت الجميل كما قالت لى وهى تقدم لى التذكرة على باب السينما ؟ كل هذا دار بخاطرى سريعا وأنا أجلس ، فزادنى ارتباكا ٠٠ وكأنها أدركت ذلك ، ولعلها لاحظت ارتباكى فعلا ، لانها قالت وتلك الابتسامة

التي تشبه حبات النور تأخذ مكانها فوق الثغر فتزيده حيـوية فوق اشتعاله :

ـ لم تأخرت ؟

وكما يبتهج الغريق عندما يرى حبال النجاة تمتد اليه ، كانت فرحتي وآنا أرد عليها وأنتحل لها هذا العذر :

ـ اتضح أننى خالفت المرور فرحت أبحث عن مكان آخر أوقف فيه السيارة

فقالت وهي تريد أن تضحك :

ـ وهل الذى يملك سيارة ٠٠ يركب الأتوبيس ؟

فقلت مداعبا :

ـ أحيانا أرى منظرا يروقنى جدا ٠٠ وهو سـيارة تجـرها عربة كارو

فضحكت وهي تقول :

ـ يظهر أن سيارتك من أصل جيد جدا ٠٠

فلم أفطن الىالنكتة ولكنى ضحكت ، فقالت للسيدة التيمعها:

ـ هذا هو الانسان النبيل الخلق الذى حدثتك عنه الآن ٠

فنظرت الى صاحبتها وحيتني في احترام ، وكانت هيالاخرى سيدة ينم مظهرها عن أصل طيب وخلق كريم ، فرددت اليهـا التحية فى أدب جم ، ورحنا ثلاثتنا نشاهد الفيلم ، وكانفيلما جيدا فعلا يعالج فيه المؤلف مآسى الحرب ٠٠ ومآسى الحب أيضا٠ وكان اسمهعلى ما أذكر «وداعاأيها السلاح » ، ولاحظت أنها تتابع أحداث الرواية بانتباه زائد وتأثر كبير ٠ وكانت تدخن كثيرا ، فكانت لاتفطن الى انتهاء السيجارة الا اذا كادت تحرق أناملها٠٠ وتصادف أن فرغت علبة الثقاب التي كانت معها فكنت أناأشعل لها السيجارة من حين الى آخر ٠ ولما قارب الفيلم على النهاية ، وتأزمت أحداث الرواية وأشرفت البطلة على الموت ، وماتت فعلا أثر عملية وضع شاقة ، لم تتمالك نفسها من البكاء ٠٠ وراحت تنتحب وتبكي بكاء مرا حتى أغرقت الدموع وجهها ، فأشفقت عليها ٠ ومازلت أذكر تلك النقط التي كانت تتساقط منعينيها الكبيرتين وكيف أنها كانت أشبه بنقط من نار تكاد تحرقنى أنا، ولهذا قلت لها وأنا أصطنع الضحك :

ـ هذا تمثيل وليس حقيقة حتى تبكى هكذا

فلم تصغ الى ٠ وكانت قد أخرجت سيجارة فلم أفطن الىذلك

حتى اشعلها لها ، فمدت هي يدها الى يدى التى تحمل علبة الثقاب لتأخذها ، فاذا بأناملها ترتعش • ولست أدرى لماذا ارتعشت يدى أنا أيضا ، ولماذا رحت أفكر فى أشياء كثيرة لم أفكر فيها من قبل ، ولعل أهمها رغبتي الملحة في أن أراها بعد ذلك ، لأنني أحسست احساسا صارخا بأنها أصبحت جزءا مني لا غنى لى عنه • وشغلني هذا ورحت أفكر فيه وكيف السبيل اليه ، وهل من حقى أن أظهر لها هذه الرغبة ، وهل يسرها هذا ان قلته لها ؟ وهل من الذوق أن أتحدث اليها في هذا أمام هذه الصديقة التى معها ، وهل هي صديقة مخلصة أم هي من صديقات اليوم ؟ وغير ذلك •• هل هذا اللقاء الغريب الذى رتبته لنا المصادفة يسمح لى بأن أقول لها ما أريد •• وان لم أقله الآن فمتى أنا قائله ؟ هل تلعب معي المصادفة دورا آخر ؟ وهل أترك حياتى هكذا معلقة بصدفة من الصدف ؟

وتعقدت الامور جدا ، لأننا كنا قد غادرنا القاعة ورحنا نهبط السلم ، ومعنى ذلك أننا سنفترق بعد لحظات ، وأحسست بقلبى يكاد يسقط • ودون أن أدرى لحقت بها ، وكانت تسير أمامى بجوار صديقتها دون أن تشعر بوجودى ، ولعلها قد ظنت أنى انصرفت • وقلت لها في شجاعة نادرة ، لم أعهدها فى نفسى من قبل ، أن سيارتى تحت أمرهما • وقلت «أمرهما» حتى لا تظن أو تظن صديقتها شيئا • وجاء الرد ، وكان أقسى مما كنت أنتظر • فقد رفضت ، ورفضت في لطف مر لا يتيح لى فرصة لمعاودة الرجاء وراحت هي تتلفت على تاكسى فى الطريق • ومر أكثر من تاكسى ، ولكنه لم يكن فارغا • وكان المفروض أن يقوى عندى بعض الأمل •• ولكن الذى حدث هو أننى أسرعت بنفسي وأحضرت لها التاكسى •• وواتتنى فكرة نفذتها سريعا ، وهى أننى كتبت رقم تليفونى على علبة الثقاب التى كانت لاتزال فى يدى •• وعندما ركبت التاكسى تعمدت أن أصافحها وأن أقول لها وأنا أضع فى يدها علبة الثقاب محاولا أن ألفت نظرها الى ماكتبته عليها :

ـ قد تحتاجين الى هذه العلبة فى الطريق ••

فشكرتنى فى ابتسامة رقيقة أعادت الاشراق الى وجهها •• فسرنى ذلك كثيرا ، لأنه أكد لى أننى لم أثقل عليها ولم أسبب لها ضيقا • هذا هو الذى تأكدت منه ، أما الذى كنت في حيرة من أمره فهو هل رأت ماكتبته لها على العلبة أم لا ، وهل اذا رأته

ستحفظه أم ستلقى به مع صفة النبل التى وصفتنى بها ؟ وضايقنى هذا كثيرا حتى لم أنم فى تلك الليلة ، ولعل الذى ضايقنى أكثر تلك الصفة اللعينة التى تلازمنى ٠٠ صفة الجبن فى حضرة النساء، ولا سيما اللائى أحس نحوهن بشىء ٠٠ أما ماهو هـــذا الشىء الذى أحسسته نحو هذه السيدة بالذات ، فلقد أحسست نحوها بأشياء كثيرة وغريبة ، أشياء أحسست لأول مرة أنها ذات بال ٠٠ هل هذا هو الحب الذى يتحدثون عنه ، وهل الحب بهـــذه القسوة ؟ ونظرت الى وجهى فى المصباح فرأيت فيه وجه رجـل آخر ، رجل لم ينم منذ شهور ٠٠

ومرت ثلاثة أسابيع أو أربعة لا أدرى كيف مرت ولـــكن الذى أدريه هو أن دق جرس التليفون ذات مساء ، وما ان انساب رنينه فى أذنى حتى عرفت حقيقة أننى أحب ٠ فقد شـــممت رائحتها تتصاعد مع رنين الجرس فينساب لحنا خالدا فى أذنى ، وعطرا يتضوع فى حواسى جميعا ٠ ولذلك لم أضطرب ولـــم يرتعش قلبى ويكاد يقفز من بين جنبى كما كان يحدث لى عندما يدق جرس التليفون ، وانما رفعت السماعة فى اطمئنان كمـا لو كنت على موعد مع هذا الحديث ، ولعل ذلك أدهشها لأنهـــا سألتنى مستغربة ــ هل كنت أتوقع أنها ستتصل بى ؟ ٠٠

وتحدثنا كثيرا ، ولكنى لم أع حـــرفا من الحديث الذى دار بيننا ، فقد كنت أنصت وأتحدث بعقلى وقلبى ولسانى وعينى وكل جارحة فى ٠ وكل الذى أذكره ــ لأنـــه كان أهـــم مافى الحديث ــ هو أننا انتهينا الى موعد ٠ وأجمل من ذلك كان الموعد نفسه واللقاء الذى ضمنا والذى تحدثنا فيه كثيرا جدا وعرفت فيه اسمها ــ نانا ــ أما اسمها الحقيقى ٠٠ أما حياتها ٠٠ أمـا بيتها فكل هذه كانت أشياء ــ كما قالت هى ــ لا تعنينى ٠ ان الذى يعنينى فقط هو : هى ٠٠ أما أنا فتحدثت اليها من أول لقاء فى كل شىء ، وحدثتها عن كل شىء ٠٠ عن حبى ، وغرامى وحياتى ووظيفتى ٠٠ وأمى التى أعيش معها وحيدا ، ودنيـاى المقفرة التى أعيشها ٠٠ وتعدد اللقاء ٠٠ وقوى الحب ، وابتسمت الحياة ، فرأينا الدنيا التى نعيش فيها ، ورأينا السعادة وعرفنـا قيمة الحياة ، لأننا كنا نعيش حقيقة ٠ كنا أشبه ما نكون بطفلين صغيرين لا نعرف لنفسينا حدودا ولا لدنيانا ســدودا ولا تقف أمامنا عقبة ٠٠ كنا نقضى الساعات أما فى صمت لا نسمع حتى

لانفسنا أن تعكره أو تلهينا عن السموات التى كنا نحلق فيها والهناءات التى كنا نطوف بأرجائها ، بعيدين عن الماديات التى نرتطم بها على الأرض ، واما باللعب بالنار وكل أمانينا أن تحرقنا فاذا بها النور الذى يضىء لنا دنيانا ..

قالت لى يوما وهى ترتمى لاهثة على صدرى بعد أن أجهدنا اللعب :

ـ ترى هل فى الحياة أجمل من الحب ؟

فقلت لها وأنا أنظر الى السعادةالمتدفقة من عينيها الكبيرتين :

ـ لا ..

فقالت مستطردة :

ـ وهل فى الحب أجمل من تحقيق أمانيه ؟

ـ ليس فى الوجود أجمل من هذا ..

فقالت وهى ترنو الى وكانت لا تزال تلهث :

ـ لماذا اذن لا نموت الآن ؟

ـ نموت ونفقد هذه السعادة ؟

ـ اننا فى الطريق الى فقدها ..

فأحسست بشىء فى صدرى يهتز ، وقلت :

ـ كيف ؟ ..

فقالت وهى تغمض عينيها حتى لا ترى شيئا مخيفا :

ـ ان من يقف فوق القمة لا يرى أمامه الا السفح ..

ـ اذن نظل فوقها ..

فقالت وصدرها يرتعش بين ذراعى :

ـ سنة الحياة ألا يدوم شىء ..

وانصرفت فى تلك الليلة وتركتنى أفكر فى هذا الذى قلناه .. وفكرت معه فى شىء آخر كنت قد نسيته تماما ، ان أمى كان متمناها أن أتزوج ، وأن ترانى زوجا قبل أن تموت .. فلماذا لا أحقق لها هذه الرغبة وأتزوج « نانا » ؟ لقد سمعت منها يوما أنها غير موفقة فى حياتها الزوجية ، وأنها تمنت لو تطلق .. اننا لو فعلنا فسوف نفوت على القدر فرصته ، لاننا بذلك سوف نرغمه على أن نبقى فوق القمة ، ولا نهبط الى السفح ثانية .. وانتظرت حتى تجىء وأقول لها ..

وجاءت نانا بعد أيام ، وأقبلت على فرحة يتألق نور السعادة فى عينيها ، وقبل أن أسألها سر هذه الفرحة ارتمت على صدرى

وقالت وهي تعانقني وتزم على شفتيها حينا وتغمض عينيها الكبيرتين حينا آخر :

ــ سأزف اليك بشرى سارة ..

فقلت فرحا أنا أيضا :

ــ ما هي ؟

فمدت شفتيها الى أذني وقالت شيئا ، فتولتني دهشة كبيرة وقلت :

ــ منذ متى ؟

ــ منذ شهرين ..

ــ وزوجك ؟

فاحمر وجهها خجلا وقالت وهي ترنو الى بعيد :

ــ قلت لك لا ..

وشجعتني هذه الرابطة الجديدة ، رابطة البنوة التي لا يعرف حقيقتها الا هي وأنا والله ، على أن أعرض عليها فكرة الزواج . وتحدثنا كثيرا في هذا الموضوع ، وبكت كثيرا وهي تعدد لي العقبات التي تعترض هذه الأمنية ، ثم افترقنا في تلك الليلة وفي عيوننا الدموع . ومرت أيام كنا نلتقي فيها كثيرا ، وكنا أيضا نبكي فيها كثيرا . لماذا ؟ كان أحدنا لا يدري . كان فراقنا في كل مرة أشبه مايكون بالفراق الأخير ..

وبدأت تظهر عليها أعراض الحمل .. وبدأ هذا يزهقها كثيرا .. حتى انها كانت تتحمل جهدا كبيرا لكي نلتقي . وافترقنا ذات ليلة عند منتصف الليل وهو موعد خروج « السينمات » الذي تعودت أن تذهب فيه الى بيتها ، وصافحتها كالعادة وهي في قلب « التاكسى » . ولما تشابكت أصابعنا أحسست بيدها دافئة ، فنظرت اليها فاذا بعينيها الكبيرتين في الظلام تنساب منهما الدموع .. ترى هل هذا آخر لقاء ؟ يارب .. هكذا حدثت نفسي ، وهكذا دعوت .. وكنا على موعد بعد ذلك بيومين ، ولكنها لم تجيء . وانتظرتها في اليوم الثاني فلم تجيء . أيضا .. ومر أسبوع ، وأحسست بقلبي يكاد يتمزق . ورحت أبحث عنها في كل مكان ، ولما كنت لا أعرف بيتها ، كان يخيل لي أن أدخل بيوت الناس جميعا وأبحث عن شخص بالذات فيها .. وذهبت فعلا ، ولكن الى أكثر من مستشفى ، وسألت عن واحدة

من النساء اسمها « نانا » جاءت لتضيع .. وتسلط على وهـم كبير بأنني فقدتها ، وكنت كلما اقتنعت بهذا الوهم ازددت جنونا .. بيد أن شيئا ما في القلب كان يحدثني بأنني سأراها .. وذات يوم كنت أسير في شارع رمسيس ، وفجأة رأيت صديقتها التي كانت معها في « السينما » ، فأسرعت اليهـا .. وما أن رأتني حتى اضطربت أنفاسها اضطرابا شديدا ، وقالت ويدها ترتعش في يدى :

ـ البقية في حياتك ..

ـ ماتت ؟ ..

فقالت وهي تخنق شيئا في عينيها :

ـ اثر ولادة متعسرة ..

ـ والطفل ؟

ألقيت هذا السؤال ، ولا أدري لماذا ألقيته ..

فقالت وهي تتركني وتركب «الأتوبيس» الذى كانت تنتظره .. وهي تمسح شيئا ما كان في عينيها :

ـ ليته هو الذى مات ..

والغريب الذى دهشت له أننى لم أبك وانما ابتسمت ، وظللت أبتسم وأنا أسير وحدى في الطريق ، حتى بلغت داري وألقيت بجسمي على الفراش . ولأول مرة أحسست بثقل جسم الانسان .. وظللت أبتسم وأنا أرى أمامي مصرع حبى ، ونهاية قصـة غرامي . ورأيت أيضا فيما رأيت وأنا أبتسـم قصصـا كثـيرة أخرى .. رأيت قصة « الفيلم » الذى شاهدناه معا لأول مرة ، وفي أول لقـاء ، عندما جمعت بيننا الصـدفة واشترت هي لى التذكرة ، ورأيت الدموع الكثيرة التى كانت تنساب من عينيهـا وهي تشاهد الفيلم وتنتحب عندما ماتت البطلة أثر عمليـة ولادة متعسرة .

وظللت بعد ذلك أيضا أبتسم حتى أتعبني الابتسام وأرهق جسمي ارهاقا ، شديدا فسقطت فريسة لعدة أمراض . ومكثت كذلك عدة شهور حتى تعبت وأتعبت معي أمي المسكينة وبعض الأصدقاء المقربين .. ولما قدر لى الشفاء كان أول شيء طلبتـه من امي هو أن أتزوج ، وكانت المسكينة كلما مرضت واشـتدت بها آلام الشيخوخة ، بكت لأنها ستموت دون أن أحقق لهـا أمنيتها .. حتى انني فعلا فكرت في الزواج .. فكرت فيـه

لعله ينسيني تلك الفترة السوداء التي عشتها من عمري ، وكانت كعمر الزهر ، وكانت أيضا كعمر الدهر ، وما زلت أعيش في ذكراها ، وأيضاشجعني بعض الاصدقاء ، وظلوا بي حتى اختمرت الفكرة في رأسي ورحت أنفذها فعلا • ولعل العامل الاكبر الذي شجعني على هذا ، وعلى أن أنفذه سريعا ، هو أنني شاهدت يوما فتاة كانت تؤدي دورا جميلا في احدى المسرحيات المدرسية ، وأظهرت اعجابي لصديق كان بجواري وكان من الذين يعرفون قصة أحزاني • ولست أدري أكان هذا من حسن الطالع أم سوئه ، ان هذا الصديق كان يعرف والد الفتاة ، وكان زميلا له ذات يوم ومكتبه كان بجوار مكتبه في مصلحة البريد ••

ولم يكذب هذا الصديق الخبر ، وأسرع الى والـــد الفتاة ، وأنهى معه كل شيء • والذي سرني في الأمر أن والدها رحب بي ترحيبا زائدا ، وكانت فرحتي لخطبتي ابنته لاتقدر •• ولم تمر سوى أيام قلائل حتى حددنا موعد الخطبة وتقديم الشبكة • ولما جاء الموعد وذهبت مع صديقي الى بيت العـروس كانت فرحتي أنا أيضا زائدة ، لأنه كان تحقيقاً لما توقعته أنا ، وتوقعتــه أمي وسائر الأصدقاء ، وهو أن مجرد التفكير في الزواج ســــــوف ينسيني آلامي • وفعلا كنت قد نسيت كل شيء ، حتى الابتسام أيضا نسيته • وذهبت الى خطيبتي مع بعض الأصدقاء والأهل في السادسة مساء ، فاستقبلنا والد العروس وكل من في البيت من رجال بالحفاوة الزائدة والترحاب الذي أثلج صدري • وبعد أن شربنا الشربات والمرطبات على أصوات الزغاريد التي كانت تتصاعد من غرف أخرى ، وقرأنا الفاتحة ، قدمت لوالد العروس « الشبكة » ودبلة الخطبة معها ، فطلب مني أن أصحبه لأضـــع الدبلة بيدي في اصبع خطيبتي •• وانتقلت معه الى احـــــدى الغرف ، واستقبلتني عروس في زي عادي جدا ولكنه زادهــــا جمالا فوق جمالها الذي كان رائعا حقا • ولما صافحتها ووضعت الدبلة في اصبعها انحدرت من عينيهـــا بعض الدموع وأدارت وجهها •• ولما كنت أعرف الحرج الذي ينتاب العذارى في مثـل هذه المواقف ، التفت الى والدها لأقول له شيئا ، بيد أنني لم أستطع أن أحرك لساني الذي تجمد فجأة وأنا أقف في مكـاني أتطلع بعيني وأنظر الى « نانا » التي كانت داخـــل اطار مجلل بالسواد فوق الحائط ••

ولما طال وقوفي ولم أستطع أن أرجع عيني من فوق الصورة ، قال الرجل باكيا وهو يتقدمني لنخرج من الغرفة :

ـ انها صورة زوجتي ، وأم خطيبتك .. ماتت رحمهـــا الله وهي تلد هذا الطفل ..

ثم أشار بيده الى طفل صغير كان يلهو على صدر احدى النساء وفي يده كوب من الشربات ..

الظل الأخير

واحد من اثنين . أما أن أصاب بالعمى حتى لا أراك .. واما أن تنكسر ساقك هذه الضخمة ، وتزل قدمك هـــذه الثقيلة ، ويدق عنقك هذا الغليظ الذى يشبه عنق الفيلة ، فأرتاح منك، ويرتاح معى سلم هذه الدار التى تكاد قدمك هذه الثقيلة تدكـه دكا ، وأنت تصعده كل يوم مرات ، حيث غرفتك التى تتجندل فيها كل ليلة كالخنزير الميت ، دون أن تدفع لى أجر ما تبيت ..

أتظن أيها الأبله أنك ورثت هذه الغرفة عن أجدادك المغاوير .. عن أبيك الذى كان ولا شك يشبه الثور ، مادامت هذه هى سحنتك ؟

كيف تمكث أربعة أشهر أيها الخنزير دون أن تدفع أجـــر الغرفة التى تقطنها ؟ ... ماذا تظننى أيها الحيوان .. ؟؟ أثرية أنا حتى يقطن الناس عندى بالمجان ؟ .. وهبنى كذلك ، هـــل أنا من الغباء حتى أعطف عليك أنت ؟ . . ألوث دارى بهـــذه الجيفة ؟ .. الى ميسرة .. الى ميسرة .. ومتى ستجىء هـــذه الميسرة ؟ ابعد أن تموت وتبقر الديدان كرشك هـــذا المنتفخ ، جسدك هذا العفن ؟

وعادت هذه الألفاظ تتدهور مرة أخرى من بين شفتيها المترهلتين المرتعشتين ، وهي ترغي وتزبد وتلوث ذقنها المدبب بذلك الرذاذ اللزج الكريه الذى يخرج من بين شدقيها كما يخرج اللعاب من بين شدقى كلب عجوز ..

ولم يسمع هو حرفا واحدا من هذا كله الذى يرمى به كل يوم مرات ، لأنه كان لايسمع أبدا ، وانما التفت اليها وهو يهبط نهاية السلم فى اعياء شديد ولما رأى سحنتها المتغضنة الغضوب التى تشبه سحنة البومة العجوز ، وشفتيها المتدليتين وهما تقذفان هذا الرذاذ اللزج الكريه ، أدرك ماذا كانت تقول وأحس بسهام هذه الالفاظ السامة تكاد تخترم جسده المتعب ، فلم يغضب ، لأنه كان لايغضب أبدا ، وانما ابتسم .. وأراد أن يقول لها شيئا ، كأن يشكرها على هذا السباب الذى تودعه وتستقبله به كل يوم . وأن يقول لها سوف أدفع أجر هذه الغرفة التى على السطح . والتى كان يشبهها بالبرج الخشبى الذى ينام فيه عقاب جريح . الى ميسرة .. وفقط حتى ييسر الله لى أمر هذه النقود التى أعطيها لك والتى أنا فى سبيل الحصول عليها ألاقى هذا العناء الذى أقله هذه الشفاه الذى تزبد كما تزبد كلبة تموت.

أراد أن يقول لها هذا ، كما يقول لها هذا كلما رأته ورآها .. وكان يقول لها هذا كل يوم .. ولكنها اليوم لم تمهله ، اذ قذفته بحفنة من لب البطيخ ، كانت تعدها فى يدها لافراخها التى تعيش معها فى غرفة واحدة ، فلوثت ثيابه ولطخت وجهه بالماء العفن المبتلة به . فلم يغضب أيضا لأنه كان لا يغضب أبدا ، لأنها طالبة حق ، وكل طالب حق محق فيما يطلب .. وفيما يفعل .. وكل مماطل فى الحق يستحق مايلاقى ..

لم يغضب ، ولم يثر ، وانما ابتسم وهو يزيل من وجهه لب البطيخ الملوث بالماء الحامض وانصرف . وما أن دلفت قدمه الثقيلة المتعبة الى الطريق حتى مد يده الى رأسه الضخم الكبير وحشره حشرا فى قلنسوته ، كما حشر معه الوجه كله ، حتى لا يراه أحد ، أو يتعرف عليه أحد . فقد مل رؤية الناس له ، وتعرفهم عليه ، وتحياتهم له، هذه التحيات البالغة غاية الاحترام . ومل وقوفهم له فى الطريق يحيونه من قريب ، أو يشيرون اليه من بعيد وهو يقولون .. هذا هو لودفيج فان بتهوفن ، الذى ملأ

الأسماع .. هذا هو العبقرى .. هذا هو .. وابتسم وهو يشد على شفتيه حتى لا يضحك ساخرا .. من هذه الأســـماع التى تمتلىء باسمه .. ترى هل امتلأت أيضا بألفاظ الســباب التى يلطخ بها اسمه الذى هو ملء الأســـماع ؟ .. أو ترَاها امتلأت أيضا بهذه الكلمة التى مل لسانه ترديدها .. الى ميسرة .. الى ميسرة ، حتى لقد تبدت له هذه الكلمة احـدى المســتحيلات الثلاث كأنها الغول ، أو العنقاء ، أو كأنها الخـل الوفى .. أو . أو . أو كأنها .. الى ميسرة ..

وكان قد ابتعد قليلا عن البيت الملعون والمدينة الملعونة أيضا ، والخلق الملاعين كذلك .. وتلفت حوله ، ولما لم يجد أحدا يراه، مد يده المرتعشة الى صندوق صغير من الجلد ، معلق فى خاصرته دائما ، وامتلأ بأشياء كثيرة ، كأنه هو الآخر أحد الأسماع التى تمتلىء باسمه ، وأخرج من بين هذه الأقلام الصغيرة ذات الرءوس المدببة ، والأوراق المبعثرة التى ابيض بعضها واسـود بعضــها الآخر ، وعدة كراسات صغيرة عليها خطوط مستقيمة وغـــير مستقيمة ، كأنها آثار الثعابين على الرمال ، أخرج من بين هــذا كله آلة معدنية صغيرة ـ مزيكة ـ تشبه تماما مزيكة الاطفــال أو لعلها هى . ومن ثم راح ينفخ فيها مبتهجا ، كأنه طفـــل فى الطريق ، الى أن تعبت شفتاه ، فمد يده وأعـاد المزيكه مكانها ، ومن ثم راح يواصل سيره فى غيرما حزن ، أو ألم . أن الشىء الوحيد الذى يؤلمه حقيقةهو صوت البومة التى يقطن عندهاوالتى تظل تنعق فوق رأسه كلما رأته ، أما كل مادون ذلك فمحتمل ، وكل محتمل هو من غير شك أدنى الى الخير .

وظل يسير ، ويسير ، حتى ابتعد عن المدينة ، وعن الناس . وعن الألم . وكلما اقترب فى سيره من المكان الحبيب الى نفسه ، من الغابة النائية الشاسعة التى أجمل ما يحببه فيها هو اسمها ـ الغابة السوداء ـ انه بعد لحظات سوف يلتقى فيها بعصفوره الجميل ، الذى يغرد فى صمت فيملأ الغابة أنسا وأفراحا وبهجة .. انه يحب هذا العصفور الجميل .. ويهفو اليه قلبه بل هــو يعيش على غذائه الروحى .. بل هو لولا هذا الغذاء الروحى ، الذى يستعيض به كثيرا عن الغذاء المادى ، لـكان قد مات مـنـ زمن .. ولكن هل يعرف العصفور ذلك .. وهل لو عرف ترى ماذا سيكون الموقف ؟ ماذا سيكون بين عصفور غـــرد لم يكد

يشب بعد عن الطريق ·· وبين عقاب هرم ، تكاد تقعده الأيام، ويكتم أنفاسه الزمن ؟ وهل سيستجيب هذا العصفور الى هذا النداء ؟ من غير شك لا ·· ولـكن لم لا ؟ ·· ان له قلبـا لم يمسسه الهرم ·· ولن يمسه · بدليـل أنه قلب فتى ·· ألم يزل يحب ويعشق ، ويهفو الى الجمال ، والى الحب ؟·· ولـكن هل ترى القلوب ، وتتعرف عليها العين كما ترى السحن والاجسام وتتعرف عليها ؟؟ من سوء الحظ لا ··

ولذلك فمن الخير له أن يحجم وأن يصمت ·· وأن يتـدرع بالصمت ، كما تدرع به كل تلك الشهور الطوال التى مضت·

ولكن من يدرى ؟ ·· أليس احساسك بالشىء يفوق رؤيتك له ؟ أليس الوجدان أصدق حكما على حقيقة الأشياء من العين ؟

ودلفت قدمه الثقيلة المتعبة الى الغابه ، وهو يعيد ويزيد ، ويقبل ويحجم ، ويستعجل ويتريث ، كعادته فى كل يوم ،منذ وقعت عينه على هذا العصفور الجميل يغرد فى الغابة ·· منـذ الساعة التى أنس اليه فيها ، منذ اللحظة التى راح يحلق فيها فوق رأسه بجناحه ··

وبلغ مقعده المريح ، وهو جـــذع سنديانة هرمة ، وجلس يسترد أنفاسه بعد السير الطويل ، ويستعيد فى مخيلته شريط هذه الافكار ·· ويعد القول الذى يقوله ، وهو نفس القول الذى كان يعده كل يوم · ولكنه أحس فى هذا اليوم بعزم أى عزم ، كما كان يحس فى كل يوم بعزم أى عزم ·· حتى اذا ما أقبل العصفور ، وهلت طلعته فى السماء ، وحـوم حواليـــه وحط بجانبه ، فوق جذع السنديانة الهرمة ، أمتنع الاقدام ، وتبدد الكلام ، وأتخذ العقاب سبيلا غير الذى كان يريد أن يتخذه · واتخذ العصفور أيضا طريقه الذى يتخذه كل يوم ·· طـريق الهناءة والمرح ، يغرد ويهزج ، ويهفهف ويصفق بجناحيه فرحا وأنسا وأبتهاجا ، دون أن يدرى من أمر العقاب الهرم شيئا ، ومن أمر قلبه الجريح شيئا ·

وراح وهو فوق مقعده المريح الذى حط عليه ثقله ، وثقـل الأيام معه ، راح يتلفت حواليه ، ويستـعجل طلعة العصـفور تهل عليه من الأفق ·· وأقبل العصفور هيمان ، كما تعود أن يقبل عليه هيمان كل يوم ··

ونظر هو الى طلعته ، والى جماله ·· والى شبابه والى فتوته

وزم على شفتيه فى حزن كبير . انهذا الجمال الذى يملأ الكون أنسا وأبتهاجا ، وهذه الفتاة التى تعطر الدنيا وتحيلها الى هذه الباقة من الزهر ، ان هذامكانه السماء . أنه أسطورة الهيــة من اساطير السماء ، انه حورية منحوريات الجنة ، أنه قبس من نور مكانه القمر ، وليس قفصه أبدا هذه الارض .. وليست قسمته أبدا أن يكون لهم خادما ، وأن تدمى يده التى صنعت من لجين القمر ، هذه العربة الثقيلة ، والتى يزيدها ثقلا هذا الطفل الضخم الذى ينام فى قلبها كما ينام خنزير منتفخ ..

وتلفت ذات اليمين مرة ، وأرسل بصره الكليل مرة ، واذا بـ (كلارا) تقبل كما اعتادت أن تقبل كل يوم مشرقة كطلعـة الصبح ، تدفع أمامها عربة سيدها الذى ينام فيهـــا . وما ان رآها حتى أضطرب ، ولهثت أنفاسه ، وهمهمت شفتاه وخلجت عينه اليسرى وراحت ترقص ، كما لو كانت توقع لحنـــا من الألحان .. أنه سيقول لها كل شىء ، سيعترف لها بـكل شىء .. وسيكون جريئا مقداما ، لا جبانا أو خائفـا أو مترددا .. لقد كره ذلك الاحجام الذى يضايقه كل هذا الضـيق ، والذى كلما أقدم رده كما لو كان حجرا ثقيلا سقط فوق لســانه .. أجل سوف يكون اليوم غيره بالامس ، وغيره بكل أمس مضى ، ولن يكون أبدا السهم الذى تغرسه فى كبــــده ــ أن هى ردته خائبا ــ بأكثر غورا ، ولأ أعمق جورا ، من السهام التى تدميه؟

وأقبل العصفور وحوم حواليه ، ومن ثم حط بجواره ، وهو يحييه ويبتسم له تلك الابتسامة المنورة التى تضىء قلبــــه . ودار الحديث بينهما فى أول الامر كما كان يدور كل يوم .. هو يتحدث اليها بقلبه ولسانه وشفتيه ، وهى تكتب له حديثها على الهواء بأصبع جميلة كأنها البلسم الذى يشفى الجراح ، وترسم له بها الكلمات وكأنها تنفر أحرفها نقرا على شغاف القلب .. وسألها كما هى العادة عن البيت الذى تعمل فيه ، والأســياد الاجلاف الذين تخدمهم ، وهذه العربة الثقيلة البغيضـــة التى تدفعها أمامها كل يوم من البيت الى الغابة .. وأراد بعـد هـذا كله أن يقول لها شيئا آخر غير هذا كله ، ولـكنه تردد فجأة . ونظرت هى اليه وابتسمت ، ومدت يدها الناعمة الى حقيبتهـا الجلد الكبيرة التى تضع فيها حاجاتها وحاجات الطفل ، وأخرجت منها ورقة كبيرة ملفوفة على شريحة كبيرة من فطيرة شـــهية

محشوة •• وقالت له وهي تقدمها اليه ، في ابتسامة خجول مشوبة بشيء من الخوف خشية أن يرد لها يدا :

ـ هذه لك • وكم يسعدني أن تشاركني في هذه اللقمة من الطعام ••

فقال وشيء في قلبه يدق :

ـ انه طعامك أنت ••

ـ صدقني أنني أعددتها لك خاصة منذ الأمس ••

••• يالله •• انها تذكرني اذن •• تفكر في •• تهتم بأمري •• انها تريد أن تقدم لى صنيعا أى صنيع •• فقط يكون غاليا •• ولذلك قدمت لى أغلى ما يمكن لخادم أن تقدم •• قدمت لى •

ومد يده التى ترتعش فرحا ، وتناول شريحة الفطير من يدها ، وهو يقول سريعا حتى لا تعود شجاعته فتخونه :

ـ كلارا •• أ •• أ •• أ •• أنا أريد ••

وصمت كأن شيئا أخرسه ، فقالت وهي تغمر وجهه بالحنان الذى يفيض من عينيها ••

ـ تريد ماذا • ؟

فدق قلبه وتدهورت أنفاسه ، وتفرقت الالفاظ وهي تخرج من بين شفتيه ، وهو يتمتم بصوت كصوت الكمان المختنق •

ـ أ •• أ •• أر •• يد •

وأمسك عن القول ثانية ، ولم ينطق هذه المرة قط ، حتى لكان لسانه أصيب بالخرس • فنظرت هي اليه ، وتأملته ، ثم تمتمت هي ، وقد نضر وجهها بشيء من الخجل زاده أحمرارا ، فزاده أيضا فتنة وبهاء ••

ـ أعرف سلفا ماذا أنت قائل •• وأعرف أيضا ماذا كنت تريد منذ شهور أن تقول ، ولكن على الرغم من عدم استجابتي الى قولك • وليس هذا الفرق مابيننا كما تظن •• ولكن لشيء آخر غير هذا كله •• أن رجلا أخر سبقك الى قلبى ، فأخذه وانصرف به • رجل أحبه بقدر ما أحب نفسى •• بقدر ما أحب حياتى • بقدر ما أحب دنياى وشبابى •• رجل أعيش له ومن أجله •• وصدقنى اذا قلت لك أننى سوف ألفظ الرمق الاخير له هو وبين يديه هو •• وليس أبدا بين يدى أحد سواه •

وعاد هو ينظر مرة أخرى ، الى هذه الاحرف التى سطرتها له على الهواء ••

وعاد ونظر مرة أخرى إلى وجهها الذى نضره هذا الاحمرار ، وهى تعترف له ٠

ومن ثم راح يفكر ، لا فى الامل الذى انقطع ، ولا فى الرجاء الذى خاب ، ولكن فى هذا الرجل المحظـــوظ الذى أعطيت له كنوز الارض ٠٠ انه لم يشعر أبدا نحوه بشىء من الحقد ، كما كان يجب أن يشعر ٠ ولا بشىء من الغيرة ٠ أو الحسد ٠ وانما شعر نحوه بشىء كثير من السعادة التى غمرت قلبـــه ٠ والتى جعلها تماثل السعادة التى يعيش فيها هذا الرجل المحظوظ ٠ لقد آمن الآن بأنه يستطيع أن ينتظر الخير من الدنيـا ، مادامت أغدقت على رجل من الناس كل هذا النعيم ، ولذلك قال لها وهو يبتسم :

ــ ما أسعد هذا الرجل ياكلارا ٠٠

ــ لا أعرف هل هوسعيد أولا ٠

ــ كيف ؟ ٠٠ ألم تشعرى أنت بالسعادة التى يعيش فيها؟٠

ــ لم أسمع حديثه حتى الآن ٠٠ ولم تقع عينى عليه بعد ٠

ــ ماذا تقولين ؟ ٠٠

نطقها فى دهشة زائدة جدا ٠٠ فقالت له :

ــ لقد أحببت فيه فنه ، فى أول الامر ، ثم انتهيت بحبه هو فى آخر الامر ٠٠ ثم قنعت من الاثنين بهذا الحرمان الذى أعيش فيه منذ سنوات ٠

فزادت دهشته وقال :

ــ وهل يعرف هو ذلك ؟

ــ طبعا لا ٠٠

ــ أين يقيم ؟

ــ لا أدرى ٠٠

فنظر أليها طويلا جدا وقال ٠

ــ خادم هو ،أم سيد ؟

ــ أنه ملء الاسماع ٠ انه ياصديقى العزيز « لودفيج فان بتهوفن » ٠٠

فأضطربت أنفاسه أضطرابا شديدا وهو يغمض عينيه ، حتى لكأن أحدا صفعه على وجهه صفعة موجعة ، ممـــا جعلها تدهش دهشة كبيرة وتقول له على الفور فى لهفة زائدة :

ــ أنت تعرفه ؟

فتمتم وهو مغمض العينين :

ـ وهل أحد لايعرف ··· بتهوفن ؟
ـ ولكن يبدو لى أنك تعرفه شخصيا ···
فقال وهو يتمتم بصوت خافت جدا ، ومازال مغمض العينين:
ـ أجل ، أعرفه شخصيا ···
فقفزت من فوق مقعدها ذاهلة من الفرحة ، وركعت أمامه وتناولت يده الغليظة المغبرة التى ترتعش بين يديها الناعمتين وراحت تقول بصوت كأنه من فرط الفرحة ·· دقات الطبول :
ـ اذن فأنت الوحيد الذى سيقدم لى هذا الصنيع ··
ـ أى صنيع ؟ ··
ـ أن أمثل مرة واحدة أمامه ·· وأن أراه بعينى هاتين ···
فسحب يده التى مازالت ترتعش من بين يديها ، وقال وهو ينهض ويلقى بجسمه المتعب الثقيل فوق ساقيه المتعبتين :
ـ سوف أحقق لك هذه الأمنية يافتاة ··
فتناولت يده مرة أخرى ، وأرادت أن تقول له شيئا آخر ·· ولكنه كان قد انصرف ، وراح يدب بقدميه فوق الطريق على مهل، كما يدب جواد جريح ينزف الدم من كبده ·· وفى الطريق لم يشغله شيء ·· بقدر ماشغلته يده الغليظة ·· والوخزة الموجعة التى تؤلمه ، ويحس بها أشبه ماتكون بوخزة الابرة التى تغرس فى الجسد ·· ونظر الى يده وهو يسير فى الطريق للمرة العاشرة فلم يؤلمه شيء هذه المرة ، بقدر ماآلمته تلك القطرة من الدموع التى تبخرت من فوق يده ، والتى كانت قد ذرفتها عين عصفور يبكى فرحا ·· ترى لماذا يعبث به القدر كل هذا العبث ؟؟

لقد كان يظن أن آخر مافى جعبة القدر هو وجه هذه البومة العجوز التى يقطن عندها ، وهذا العذاب الذى تنزله به كل صباح ومساء ، فلماذا اذن يحتفظ له القدر أيضا بهذه اللعبة القاسية ··؟ ترى ·· سيجابه الفتاة بالحقيقة ، فتتبخر آمالها كما تبخرت تماما قطرة الدموع من فوق يده ·؟ أم يخفيها عنها ويجعلها تعيش حياتها على هذا الوهم الكبير ؟ ·· وهل اذا قال لها أنا هو العبقرى الذى تحبينه ·· هل ستظل تحبه ؟ ··· وهل اذا لفظته ·· سيتحمل هو قساوة هذه اللحظة ·· ؟ ·· وهل هى تحب الانسان بتهوفن ·· انها من غير شك تحب ·· بتهوفن العبقرى ومادام الأمر كذلك فلماذا لايصرح لها ؟ ·· لماذا لايقول لها ·· أنا هو العبقرى ·· أنا هو بتهوفن ؟··

ومن غير أن يدرى بصق على شيء ... بصق على العبقرية التى تؤذى صاحبها كل هذا الايذاء .. وتعذبه كل هذا العذاب ..

وفى الصباح لم يستيقظ ... لأنه لم ينم .. وتسلل من البيت مبكرا على غير العادة .. ومن ثم راح يدب فى الطريق الى « الغابة السوداء » ، الى بيت العذاب الجديد ، وكان قد عقد العزم على شيء ... وبذلك استرد أنفاسه من عناء الأخذ والرد ... انه سيقول لها الحقيقة ... سيقول لها أنك تحبين العبقرى بتهوفن» وهأنذا آتى به اليك .. وهأنذا هو العبقرى الذى تحبينه . والذى هو يتعذب فى حبك منذ أزمان ، وسوف ينتظر الرد .. ومهما كان فلن يكون أقسى أو أمر من مرارة هذه اللعبة التى لعبها القدر ..

ودلف الى الغابة وهو يرتعش من زمهرير هذا البكور ، الذى أتعبه على غير العادة وأرهقه ارهاقا شديدا ، وذهب الى مقعده المفضل فى قلب جذع السندبانة الهرمة . ومن ثم راح ينتظر طلعة عصفوره الحبيب ..

وأقبلت كلارا كما تعودت أن تقبل تماما ، فملأت الدنيا عطرا ، والكون بهاء وفتنة ..

ونظر اليها وأغمض عينيه وهو يلهث كثور جريح ، وكانت تظن أنها هى التى جاءت مبكرة على غير العادة ، لذلك ما أن رأته حتى هرعت اليه . وارتمت بين أحضانه .. كطفل يلهو فوق صدر أبيه ، وسألته فى لهفة ، وفى حرارة لم يستشعر فى حياته نارا كتلك التى تمثلت فى أنفاسها الدافئة التى غمرت وجهه وهى تسأله ...

ـ هه .. ماذا صنعت يا أبى .. ؟

ـ كل خير ...

ـ قصصت عليه الأمر ؟

ـ ورحب باللقاء ..

فلمعت عيناها فى طفولة نزقة ، وقالت فرحة وهى تتمرغ فوق صدره ، وتمسح على يده الغليظة بشفتيها الرقيقتين ..

ـ حدثنى .. حدثنى يا أبى كيف التقيت به ، وأين قابلته ..

ـ فى داره .

ـ فى أى قصر يقطن هو ؟

فتذكر « قصر » البومة التى يقطن فى غرفتها ، وقال مبتسما

ـ فى قصر منيف جدا فى الريف .
ـ يبعد كثيرا عن المدينة .. ؟

فابتسم مرة أخرى وهو يتذكر طـول السلم الحلزونى الذى يصعد فيه الى السطح ، وكأنه يصعد الى السماء ، وقال :

ـ أجل ، بعيد جدا ..

ثم ابتسم مرة ثالثة ، وعقب وهو يكاد يضحك هذه المرة :

ـ ولذلك تعبت كثيرا حتى وصلت اليه ..

فنظرت اليه فى اشفاق وقالت :

ـ ذهبت اليه على قدميك يابى ؟
ـ أجل .
ـ اذن أنا أتعبتك كثيرا ..

فنظر اليها وقال وهو يبتسم ابتسامة رابعة :

ـ الذى أتعبنى الخدم .. حتى أذنوا لى فى المثول بين يديه .
ـ ولما أذنوا ؟ ..
ـ رحب بى ترحيبا زائدا جدا .. لقد عانقنى ..

فقالت فى فرحة غامرة .. وهى مازالت متعلقة بصدره :

ـ اذن أنت تعرفه معرفة وطيدة ؟ ..

فقال فيما يشبه الفخر ، وهو يرجع بظهره الثقيل الى الخلف :

ـ كنت فيما مضى أشتغل حوذيا عنده
ـ عنده .. عنده ؟

فنظر الى فرحتها وقال :

ـ عنده .. عنده ..
ـ ما أسعدك يا أبى ..

ثم عقبت وهى تريد أن تقبله :

ـ وماذا قال لك ؟
ـ له شرط بسيط جدا .

فتوجست خيفة وهى تقول :

ـ ماهو ياترى ؟
ـ أن يرى رسمك أولا .

فسرح بصرها لحظة ، ثم قفزت فجأة من فوق صدره ، كمايقفز الطائر تماما ، وتناولت حقيبتهـا الصغيرة .. وفتحتهـا وهى تقول :

ـ من حسن الحظ أن جدتى لأمى كانت تجيد الرسم ، وها هو رسمى على هذه القطعة من النحاس .

فتناولها من يدها وقال وهو ينظر الى رسمها طويلا :
ـ سوف يكون هذا أعز شيء يمتلكه •• ثم وضع الصورة في صدره وهو يقول :
ـ وغدا موعدنا هنا لأصحبك اليه •
ـ قبل أن يرى الرسم ؟
ـ هذا اتفاقي معه ••
ـ قد لاتعجبه صورتي ••
ـ العباقرة لايرون الصور ، ولكنهم يرون ماوراء الصور
فهتفت من قلبها غير مصدقة :
ـ غدا •• غدا ؟
ـ غدا •• غدا

فقبلته •• فارتعشت شـــفتاه ، فصمت الكون •• ولـــكن العصفور الغردلم يصمت •• ودار الحـــديث ثانية • • وتفـــرع الى أشياء كثيرة •• وعن أشياء كثيرة •• عـــن الحب • • وعـــن العشق •• وعن الغرام •• وعن العبقرية •• وعن الموسيقى••

و •• وعن بيتهوفن •• و•• وعن الحوذي الذى كان يعمل عنده •• وعن العصفور الغرد •• والعقاب الهرم •• ولم يفطنا الى الزمن ولا الى مروره •• الا بعد أن عتمت السماء • فنهضتوهى

أسعد ماتكون انسانة بهذا اليوم الذى قضته مع حوذى بتهوفن •• ونهض هو •• وهو أشقى مايكون انسانا يعرف بتهوفن •

ومن ثم راح يدب بقدميه فى الطريق ، بعد أن اتفق معها على اللقاء في صباح هذا الليل الذىأقبلسريعا علىغير العادة ،وعتمت سماؤه أيضا سريعا • وظل يسير فى الطريق غير واع لشىء •• أو مدرك للوقت أو فطن الى قواه الخائرة ، وصـــحته المعتلة •• وجسده المنهار •• لم يفطن الى شيء من هذا الا عند مادهمتهفجأة فى الطريق عاصفة ثلجية هوجاء كاد يجرفه سيلها ويرنحه كما يترنح المخمور تماما •• ولكنه قاوم وتماسك ، وظـــل كذلك طويلا يقاوم ويتماسك ، وكل همه أنيحافظ على (الرسم) الذى خبأه فوق القلب حتى لايلوثه السيل ، أو يمحو شيئا منه حتى بلغ البيت بعد جهد ، ولكنه بدل أن يدلف اليه سريعا ويحتمى به من هذه العاصفة التى تريد أن تقتله ، وقف حائرا يتردد •• فقد رأى نافذة البومة العجوز صاحبة الدار مضاءة ، وعز عـــلى نفسه أن يختتم ليلته هذه القاسية بعاصفة أخرى أشد قتلالنفسه

من عاصفة الطبيعة ٠٠ ان جسمه هذا الخائر المنهك لم يعد فيه مكان يتسع لسهم جارح من سهام السباب الذى تستقبله به هذه العجوز كلما رأته ٠٠ ووقف طويلا والسيل ينهمر فوق رأسه ٠٠ وأخذ يروح ويجيء ، يبتعد حينا عن الدار ويقترب أحيانا منها ، وحبات الثلج القاسية تصفع وجهه حينا ، وتدمى عينيه حينا آخر وكلما أحس بالوجيعة شعر بأنه غير قادر على احتمالها فتح عينيه ونظر الى النافذة الى أن وهن الليل ووهنت أيضا معه قواه ، وأغلقت النافذة الملعونة آخر الليل ، ففرح كثيرا جدا ، وتسلل وهو أسعد مايكون انسانا بشيئين : الرسم الذى لم تصبه العاصفة بسوء ، والبومة التى استغرقت فى النوم ٠

وما أن بلغ الفراش حتى ارتمى عليه لاهثا والرسم فى يده المرتعشة ، ينظر حينا الى الرسم الحبيب فتلمع عيناه كما تلمع تماما ذبالة المصباح الزيتى الذى يرى معالم الرسم على ضوئه الشاحب ، وحينا تخبو عيناه كما تخبو أيضا ذبالة المصباح ، وتكاد تلفظ أنفاسها ٠

وفى الصباح ـ وكان على وجه التحديد الصباح الخامس من ديسمبر عام ١٨٢٧ ـ بر بوعده ، ومكن لكلارا من أن تلتقى بمن تحب ، ولكنها تلتقى على صفحات مجللة بالسواد تنعى الى العالم وفاة العبقرى بتهوفن ٠٠

وفى غمرة هذا اللقاء وقفت (كلارا) تنظر وتتأمل وترى ٠٠ تنظر الى وجه الرجل الذى كانت تحبه منذ سنوات ، وتتأمل صدر الحوذى الذى كانت تتمرغ فوقه منذ ساعات ٠٠ وترى رسم العبقرى « لودفيج فان بتهوفن » الذى مات وحيدا فى غرفة على السطح وقد أمسك بين يديه برسم باهت الظل ٠٠ يقولون انه كان الظل الوحيد الذى شيعه الى قبره ٠

قناوى

تعرفت على قناوى عندما قطنت فى زقاق المردنلى المتفرع من حارة الباخشونجى خلف مسجد السيدة زينب .. وكان ذلك فى عام ١٩٤٥ .

وقد تعرفت عليه أول ماتعرفت فى المسجد ، اذ كنت ذات ليلة بعد صلاة العشاء أجلس بجوار حائط الضريح أستمع الى الشيخ الدناصورى رحمة الله عليه وهو يلقى علينا درسه الدينى بعد الصلاة ، فاذا برجل بجانبى يمد لى يده ويصافحنى فى حرارة زائدة وهو يقول ويهز يدى فى نفس الحرارة :

ـ أهلا وسهلا .. حضرتك نورت الزقاق وشرفت الحاره .

وكأنه لاحظ على دهشتى فقال يعرفنى بنفسه :

ـ أنا قناوى .. الفكهانى .. وقد رأيتك مرارا تدخل الحارة .. ولما سألت عنك قيل لى انك الساكن الجديد الذى قطنت حديثا فى منزل الست أم نرجس .

فازدادت دهشتى ، لاننى لم أكن أعرف من هى أم نرجس هذه التى قطنت فى منزلها .. ولذلك قلت :

ـ من أم نرجس ؟ ٠٠ اننى أقطن فى منزل الشيخ عليش مأذون الشرع ٠

فقال :

ـ ولكنها فى الحى مشهورة بدار الست أم نرجس ٠٠ كانت من أولياء الله الصالحين وتوفيت منسنتين رحمة الله عليها ٠

ثم سحب يده من يدى ورفع يديه الى أعلى وقال وهو ينظر الى السماء :

ـ الفاتحة لروحها الفاتحة ٠٠

ورأيتنى أقرأ معه الفاتحة ٠٠ كما رأيتنى بعد الدرس أسير بجانبه نخترق الحارة فى الطريق الى الزقاق ٠٠ وهو يتحدث فى براءة وطيبة قلب كبيرة عن تاريخ حياته الطويل الحافل بكل ماهو شقى ٠٠ وكيف أنه نزح من أسيوط منعشرين عاما ٠٠ واشتغل عاملا فى ميناء البصل بالاسكندرية ٠٠ ثم عجانا فى مخبز كبير فى المنصورة ٠٠ ثم حطت به الرحال بعد ذلك فى حى السيدة يبيع الفاكهة على عربته الصغيرة ذات العجلات الثلاث ٠٠ وكيف أنه تزوج وله الآن ثلاثة أولاد مازالوا أطفالا ٠٠ يلعبون فى الحارة ٠٠ ويجرون كالدجاجات فى الزقاق ٠

ثم حدثنى بعد ذلك عن أشياء أخرى كثيرة ٠٠ نسيت أكثرها الآن ٠٠ وحدثنى عنها جميعا فى اخلاص وصدق ٠٠ كما لو كنا صديقين قديمين ٠٠ فأعجبتنى منه هذه الصراحة ٠٠ وهذا الصفاء ٠٠ الذى يبلور نفوس هؤلاء العامة من الناس ٠٠ ويطمئنهم الى الغير ٠٠ ويجعلهم يصرحون لهم بأسرارهم رغم أنهم لايعرفونهم من قبل ٠

وكنا قد بلغنا الزقاق ٠٠ فوجدت عربته الصغيرة بجانب الجدار ٠٠ عليها عدة أسفاط من الجريد ٠٠ بعضها فارغ وملقى على الارض ٠٠ والبعض الآخر فوق العربة ومازالت به بعض بقايا من فاكهة ٠٠ وقد اختلط بعضها ببعض ، حتى أنك لاتستطيع أن تفرق بين الجوافة والبلح ٠٠ ولا بين الرمان والبرتقال ٠٠ كما رأيت طفلتين صغيرتين ٠٠ قد استلقتا على الطوار بجانب العربة ٠٠ واستغرقتا فى نوم عميق ٠٠

ورأيت طفلة ثالثة كانت تقف بجوار العربة ·· تذب بيدها الصغيرة على الفاكهة بمذبة لم يبق منها غير يدها الخشبية فقط ·· ولما اقتربت من العربة تبينت وجهها على ضوء المصباح الزيتى المعلق فى مقدمة العربة ·

ولما رأتنا الفتاة ·· تقدمت من أبيها ومدت له يدها ببعض القروش التى تلوثت من طول أطباق كفها عليها ·· وقالت وهى تعد له بعض القروش الملوثة والمليمات الصدئة السوداء :

ـ نص أقة جوافه ·· ورطل بلح ··

ثم مست الفتاة بأصبعها شيئا لزجا كان على جفنها وقالت ثانية :

ـ ومسعوده بنت الشيخ بسيونى أخذت رطل بلح على الحساب ·

فتناول قناوى النقود من يدها ·· وضعها فى جيبه وهو يقول لى :

ـ اتفضل أعمل لك شاى ·

فشكرت له هذا الكرم ·· وأردت أن أرده له بأن أشترى شيئا من فاكهته ·· فقط لأنقده شيئا ·· أى شىء ··· ولكى لا أجعله يفطن الى قصدى ·· تقدمت من العربة ·· ونظرت الى الجوافة ·· وأمسكت بواحدة وامتدحتها ·· وقلت وأنا أخرج نقودا من جيبى :

ـ أقة جوافة ·· وثلاثة أرطال من البلح ·

وما أن نطقت بهذا حتى رأيت وجه الفتاة يتهلل ، ورأيت أساريرها تنفرج عن ابتسامة أنارت الوجه كله ·· وهى تنظر بعينيها الصغيرتين الى يدى التى سأخرج بها النقود ·· ولكن هذه الفرحة ·· وهذه السعادة التى غمرتها سرعان ماتلاشت عندما سمعت والدها يقول لى وهو يتفرس فى الجوافة التى أمامه ·· والبلح قائلا :

ـ الجوافة الليلة ماتنفعكش ·· والبلح بينى وبينك مش ولا بد ··

وأوشكت أن أوافقه على مايقول ، ولكن الحسرة التى ارتسمت على وجه الفتاة عندما استشعرت ضياع هذه الصفقة ، جعلتنى أصر على طلبى ·

ونقدته الثمن وانصرفت الى الطريق أتلفت حوالى فى الظلام الى أن ابتعدت عنه ·· ولما لم أجد أحدا يرانى ، وكانت رائحة البلح الذى أحمله قد ضايقتنى ، ألقيت بما فى يدى الى جانب الحائط ، وانصرفت الى بيتى أفكر فى أرزاق الناس ، والطريقة الحسابية التى وزعت بها عليهم ، وهذه الفاكهة والذين يأكلونها، وهذا الرجل قناوى ، وأطفاله الثلاثة وزوجه ، وكيف يعيشون··

فكرت فى هذا كله وأحسست بحبى الزائد لهذا الرجل ، حتى أصبح لا غنى لى عن رؤيته ·· فأنا أمر عليه فى الغدو ،وأمر عليه فى الرواح ، وأجلس اليه فى المسجد أتحدث اليه ،ويجلس هو الى عند العربة يتحدث الى ·· حتى مررت به ذلك يوم ووقفت أتحدث اليه كالعادة ، وأصغى الى حكاياته ، فقد كان يضحك أيضا ، بل كان دائما يضحك ، فاذا به فجأة يقول لى وهو يضحك:

ـ سلفنى عشرة قروش ··

وظننته يمزح لأنه كان يضحك ، فقلت :

ـ ليه عايز تستلف ؟

فأرسل ضحكة طويلة هذه المرة··وقال وهو يحاول مااستطاع أن يخفى شيئا ماكان يرتسم على شفتيه :

ـ زى مابتستلف الناس ··

وما أن مددت يدى له بالقروش العشرة التى طلبها حتى ناولها ابنته وهو يربت على كتفيها ويثبت لها بين ذراعيها قرطاسا من البلح ويقول :

ـ خمسة صاغ عيش ·· وقرشين صاغ طعميه ·· وبقرشين سكر وشاى ، وقوليلها تخلى بالها من البنت ·

فقلت له :

ـ عندك حد عيان ؟

ـ البنت الصغيرة دافية شوية ··

ثم مسح بلسانه على شفتيه ·· وكأنه يمسح شيئا لايريدأن أراه وقال :

ـ أصل الدنيا برد وهدومها خفيفة ··

ثم نظر الى الفتاة وهى تنصرف ، والتفت الى وقال وهويضحك أيضا :

ـ نعمة ٠٠ ،

فاندهشت وقلت :

ـ ايه هي ؟

ـ اللي بنلاقي حد يسلفنا ٠٠

فجاريته في ضحكه ثم تركته وانصرفت ٠٠ وفي اليوم التالي لم أجده في المسجد كالمعتاد ٠٠ وكنت أعرف أنه يحرص على صلاة العشاء جماعة بصفة دائمة ٠٠ ولكنى لم أجده بين المصلين ٠٠ وفي الطريق مررت على الزقاق فأدهشني أن رأيت عربته بجانب الحائط ملقاة في الظلام بين بعض الأسقاط الفارغة ، وسألت عنه فلم أعرف أين هو ، وكنت لا أعرف بيته حتى أذهب اليه ٠٠ غير أنني في اليوم الثاني وجدت العربة قد انتظمت عليها الاسقاط من جديد عامرة ببعض أنواع الفاكهة ، كما وجدت الفتاة الصغيرة بجوارها تذب عليها بيدها المرتعشة ، وتنادي بصوتها على الرطب والحياني ٠٠ ذلك الصوت الصغير الذي يشبه صوت الملائكة ٠٠ وبينما أنا أتجه اليها لأسألها عن أبيها ،رأيته يقبل علينا لاهثا يحمل على كتفه جوالا من الرمان ، وضعه بجانب العربة وجفف عرقه المتصبب وهو يقول :

ـ متأخذنيش ٠٠ مارحتش الجامع امبارح ٠٠

ـ ليه ؟ كنت فين ؟

فقال وهو يجفف العرق المتصبب من وجهه مرة أخرى :

ـ أصل فتحية تعيش انت ٠٠

ـ فتحية مين ؟

ـ بنتي ٠٠

فجمد الدم في عروقي ، ووقفت ذاهلا أتطلع الى الرجل ٠٠ وكأنه لاحظ على دهشتي فقال :

ـ الحمد لله اللي ارتاحت ٠٠

ثم اقترب مني وهو مازال يجفف عرقه ، وقال هامسا كمن يريد أن يفضي بسر لايريد أن يسمعه آخر :

ـ أصلها كانت بتكح ٠٠

وتركته وانصرفت ٠٠ ومضى على ذلك ستة أيام كاملة لم أره، لأنه كما علمت ذهب الى الصعيد حيث موطنه الأول ليحضر بعض

نقود كانت له هناك .. ولما جاء ذهبت اليه على رأس الزقاق ، عند العربة ، وداعبتــه كالعادة . . ثم سألته عــن رحلته .. فامتعض قائلا :

ــ ياريتنى ماسافرت ..

ــ ليه ؟

ــ خسرت أجرة السفر .. ورجعت لقيت فاطمة تعيش انت ..

وتصورت كل شيء الا أن فاطمه هذه ابنته الثانية .. ولذلك قلت له :

ــ فاطمه مين ؟

فأجابت عائشة ــ وهذا كان اسمها ــ وهي تذب بيدها المرتعشة على الفاكهة وقالت :

ــ أختى التانية الله يرحمها ..

وأدهشتني المفاجأة فلم أقل شيئا ، ولكنى بعد لحظات هممت أن أسأله سؤالا كأنه أدركه لأنه قال :

ــ مش قلت لك أختها كانت بتكح ؟

ــ أيوه ..

ــ كحت هى رخره ..

ثم فجأة غير مجرى الحديث وقال :

ــ الجوافة الليلة قشطه .. أوزن لك وقة ؟ ..

وتناولت منه أقة الجوافة وانصرفت بعد أن أنقدته ثمنها ..

ومكثت أتردد عليه بعد ذلك حينا .. سواء في المسجد .. أو عند رأس الزقاق .. وأتعمد بصفة خاصــة أن أشترى جــوافة وبلحا من عائشة التى كان يطربها كثيرا أن أشــترى منها .. وكانت فرحتي بذلك لاتقل عن فرحتها هى عندما أنقدها القروش القليلة ثمن الجوافة أو البلح .. الى أن انتهى العام الدراسى .. وسافرت الى القرية ومكثت هناك ثلاثة شهور .. ثم عدت بعدها الى الحارة والزقاق وقناوى .. غير أننى عندما رجعت الى الحارة ليلة عودتى من السفر واتخذت طريقى كالعادة الى عربة الفاكهة لاحظت من بعيد شيئالا أدرى لماذا خفــق له قلبى ، وأحسست فجأة بما يشبه دبيب الألم الأكبر يتسلل الى قلبى ... لقد رأيت شيئا غريبا .. رأيت قناوى هو الذى يمسك بالمذبة ويذب بها

على الفاكهة ، ولم أر عائشة ٠٠ كما تعودت أن أراها دائما ٠ ٠ وأحسست بشيء يسمر قدمي ويمسك بي ويمنعني من مواصلة السير تجاه العربة ٠٠ وفضلت أن أرجع ثانية وأخترق طريقا آخر ٠٠ ورجعت فعلا ٠٠ ورجعت أسير في الظلام ٠٠ أصغي الى صوت قناوي وهو ينادي على فاكهته بصوت كان له صدى غريب في أذني ٠٠ وكلما ابتعدت امتد خلفي الصـوت ، حتى دخلت داري وصوت قناوي يرن في أذني وهو ينادي مغنيا في الليـل بصوته الحزين الباكي :

صلاة النبي ياعيشه
وبلح عيشـــــه
ياريت يوم الـوداع
لم كان ياعيشـــــه

الصيف الذى مضى

فى مساء الخامس والعشرين من شهر أغسطس من العام الماضى، وكان اليوم على ما أذكر جيدا ـ لأنه من أيام حياتى التى لاتنسى ـ يوم خميس ،كنت فى الاسكندرية ، وكان آخر أيامى فيها ، بعد قضاء أجازتى الصيفية ، اذ قررت العودة الى القاهرة فى صباح الجمعة مبكرا جدا ، حتى أقطع الطريق قبل الحر وقيلولة الصحراء، ومتاعب الطريق الصحراوى الذى مارأيته مرة الا رأيت ثعبانا ضخما طويلا لا نهاية لطوله يتلوى أمام عينى على الرمال !.

وقلت انني مادمت سأستيقظ مبكرا ، يجب أن أنام مبكرا أيضا ، حتى أستطيع أن أستيقظ فى الرابعة صباحا أو الخامسة على الأكثر . ونظرت الى الساعة فوجدتها العاشرة والنصف ، وأطربنى أن الوقت مازال ميسرا ، وما زال يسمح لى بساعة أو نصف ساعة قبل الذهاب الى النوم ، أولعلنى غالطت نفسى بهذه لأن المكان الذى كنت أجلس فيه ، وهو حديقة المايفير على الشاطىء، كان ممتعا ، والهواء عليلا ، والنسيم يروح ويجىء بين الأشجار

معطرا برائحة الحسان ، وقد تناثرت مقاعدهن بين الزهـــور ، فتختلط رائحة عطرهن الزكية بنفحات الزهر التى تترى عـلى أنفاسك بهيجة مسكرة ٠

وقلت أجلس حتى الحادية عشرة ، وفي سبيل هـذا الحسن ، تهون متاعب الصحراء القاحلة ، وتهون أيضا رؤية ذلك الثعبان الكريه الذى يتمرغ على بساطها ٠ وجلست أنظر وأتمتع وأعيش ٠٠ وبينما أنا كذلك ، اذا بصديقين عزيزين من الذين يعملون فى السينما ، كان أحدهما قصيرا ممعنا في القصر ، وكان أيضا مرحا ممتعا في حديثه ٠٠ ولكن فى اللحظات التى تقضيها معه فقط ٠ أما اذا فارقته فهو أروع مثل للحكمة القائلة : « اتق شر من قرب من الارض» ٠٠ وكنا جميعا نعرف عنه ذلك ، ولكنا نحبه رغم بذور القذارة الطويلة التى تعيش من خلفه لانهـا كانت تضربه أكثر مما تنفعه ٠ أما الصديق الثانى فكان يختلف عنـه اختلافا كبيرا فى كل شيء ٠ فهـو طويل فارع الطـول ، طيب القلب الى حد السذاجه ، يحب النساء حبا جما ، ويحـــدثك عنهن حديث العالم ببواطن الأمور ، مع أنه فى حقيقته جاهـل فى هذه الأمور ٠ وكانت له خصال حميدة كثيرة ، ترى فيـــه شهامة الصعيدى الحق ، وترى فيه كرم الريفى المطبوع ٠ وكانت من صفاته التى عرفت عنه أيضا ، الجرأة والاقدام ٠٠ لا يخشى الليل ، ولا يخاف الصحراء كما يقـول المتنبى ٠٠ وكان يحب المتنبى ويحفظ الكثير من شـعره ، وفيه منه صفات ٠ فمثـــلا المتنبى كان يؤمن بأن الشيء الوحيد الذى يحفظ عليه كرامتـه دائما ويذود به عن نفسه أبدا هو سيفه الذى لا يفارقه ، وهكذا كان صاحبنا ، فقد استبدل بالسيف مسدسا من نوع جيد جدا يحمله ولا يجعله يفارق خاصرته أبدا ٠٠

وطربت لمقدمهما عندما أقبلا ، وجلسنا نضحك ونتندر كمـا هى العادة اذا اجتمع ثلاثتنـــا ٠ تحدثنا عن الاسكندرية وعن الصيف فيها ٠ وعن مصايفها الجديدة المتعددة ، وموضة المايوهات على الشاطيء ، والبكينى المباح هنا والمرح هناك ٠٠ وراح كـل منا يقص ما رأى وما شاهد طوال أشهر الصيف ، حتى جـــاء الحديث عن السفر والعودة الى القاهرة ، وما أن أخبرتهما بعزمي على السفر فى صباح الغد حتى رحب الصديق القصير بالســفر

معى ٠٠ ورحنا نتحدث عن الأسفار الطويلة الجميلة التى صحبنى فيها ، أو صحبته فيها ٠٠ وما حدث لنا فيها من طرف واحداث تروى ، وذكريات جميلة ، مما أغرى صديقنا الثالث بأن يسافر معنا هو الآخر ، فهو سيعود الى القاهــــرة بعد يوم أو يومين ، فلماذا لا يصحبنا فى هذه الرحلة الجميلة ؟ ٠٠ وحاولنا اقناعــه بذلك فاقتنع ، وان كان لايزال التردد يشوب هـذا الاقناع ٠ وفجأة أقبلت زميلة من المشتغلات بالفن نعرفها جميعا وتربطنا بها صلات كثيرة من الودوالصداقة والزمالة فى العمل ٠ وطلبنا اليها أن تجلس معنا فاعتذرت بأنها تبحث عن زميل من الزملاء وعدها أن تعود معه فى سيارته الى القاهرة صـــباح الغــد ٠ وانتهز الصديق القصير اللئيم هذه الفرصة واخبرها بعزمنــا ثلاثتنا على السفر فى سيارة واحدة ، ففرحت ورحبت بالعودة معنا ٠ ولعل هذا هو الذى قطع حبل التردد الذى كان صديقنا الطويل العملاق الخبير بالنساء مازال يمسك بأطرافه ٠ وجلسنا نتحدث فى أمر السفر ، وكيف سنلتقى فى السادسة صـباحا ٠٠ واقترح من يقطن فى البلد أن نلتقى فى محطـــة الرمل ، واقترح من يقطن فى الرمل أن نلتقى فى الرمل ٠٠ ونظــــر صديقنا القصير غفر الله له ــ وان كنت أعتقد أن الغفران مهما اتسعت رحابه فهى لن تتسع الى مغفرة ذنوبه ٠٠ نظر ــ لـه الله ــ الى المكان الجميل الذى نجلس فيه والهواء العليل المسكر الذى تترى عليناأنفاسه ، والقمر الذى يتألق نورا فوق رءوسنا فى الأفق ويعكس وجهه المنور على صفحة اليم الصافية لتزيدها صفاء ، كما تعكس الحسناء جمالها على أديم المرآة فتزيدها تألقا وفتنة واغراء نظر الى هذا كله ، ثم نظر الى ســاعته الذهبيـــة الغالية الكبيرة التى أثقل بها معصمه كما تثقل الغانية معصمها بالذهب وقال :

ــ ايه رأيكم لو سافرنا دلوقت ٠٠ وبدال ما نسافر فى نور واحد نسافر فى نورين ، ونصل القاهرة مـــع اشراقة الفجــر الجميلة ؟

فقلت دون أن أفطن الى قصده :

ــ ايه النورين ؟

فنظر الى القمر الذى يتألق فى الافق والفنانة التى تجلس معنا وقال :

ــ نور القمر ‥ ونور الجمال ‥

فقالت الزميلة الفنانة على الفور وكأنما أطربها هـذا الثنـاء ، أو كأنها أول مرة تستمع فيها الى ثناء عليها :

ــ والله أنا ماعنديش مانع ‥

ثم عقبت مسرورة وقالت ببهجة حتى لكأنها اقتنعت حقيقة بأن هناك فعلا صلة تربط بين الجمالين ، جمالها وجمال القمر :

ــ وتبقى رحلة لذيذة جدا ، وخصوصا أن أم كلثوم سهرانه الليلة ، وبتغنى فى حفلة خيرية مذاعة ‥

وما أن لفتت نظرنا الى أن أم كلثوم تغنى الليلة ، حتى أخذنا جميعا الامر مأخذ الجد ورحنا نفكر فيه باهتمام ، ولعلنى كنت أكثر تفكيرا ، لسببين متعارضين : الاول أننى بطبعى أكره السفر فى الليل ، وأخشى أخطاره ‥ والسبب الثانى أننى أحب كثيرا أن أستمع الى غناء أم كلثوم ، وأنا فى سيارة تسير بى فى الليل وحدى أو مع آخرين ، وحبذا لو كان من بين الآخرين وجه جميل ‥ أو حتى غير جميل ، أى وجه والسلام ‥

ونظرت الى وجه الزميلة الفنانة التى تصحبنا ‥ حقيقة لم أجد أيه صلة بينه وبين وجه القمر ، ولكنى رأيته وجها على أى حال ، وأحسست برغبة فى الموافقة عـلى السـفر فى الليل ، وصمتنا بعض الشيء ، وسادت فترة صمت كادت تطول لولا ان نظر الى الصديق الطويل العملاق وقال وهو يتحسس مسدسه الضخم الملتصق بخاصرته :

ــ سيارتكم جاهزة للسفر دلوقت ؟‥

ــ زى ماهى جاهزة للسفر بعد دلوقت ؟ ‥

ــ وضامن أنها ماتتعطلش بينا فى الطريق ؟ ‥

وأحسست فى صوته بشيء أشبه ما يكون بعدم الاطمئنان ، فقلت :

ــ ليه بتسأل الأسئلة دى ؟ ‥

فقال على الفور فى صوت عال فيه جدية لما يقول :

ــ الا بسأل دى كمان ‥ أنت نسيت الحادثة اللى حصلت فى الطريق الصحراوى من ثلاثة أيام ؟ ‥

وما أن سمعنا ذلك حتى تجهمنا جميعا ، وتذكرنا على الفور ذلك الحادث المروع الذى ذهب ضحيته طبيب شاب وزوجته فى الطريق الصحراوى ، اذ كانا مسافرين ليلا بالسيارة ، فخرج عليهما لصوص الصحراء ، وأوقفوا السـيارة ، وقتلوا من بها ونهبوا ما فيها ٠

ومرت فترة صمت ثقيلة استعادت فيها أذهاننا ماروته الصحف عن هذا الحادث المحزن ، وصورة السيارة الملوثة بالدماء ، وجثة القتيل الذى بقرت بطنه كما تبقر الشاه ، وصورة زوجته وهى مازالت تحضنه مرتاعة ، وكيف أن الروع مازال مرتسـما على وجهها حتى بعد ان ماتت ومثل الجناة بجثتها ٠

تصورنا ذلك كله ، ورأينا رأى العين فى خيالنا ، وأحسسنا جميعا بشىء من الخوف ٠ ولعلنى أنا أكثرهم احساسا بالخوف ٠٠ ولذلك نظرت الى الصـديق القصير الممعن فى القصر واللوم ، وصاحب الاقتراح ، فرأيته ينظـر الى وهو يزم على شـفتيه حتى لايضحك لانه كان يفهمنى جيدا ، ويفهم ما يدور بخلدى اذا اصمت ولم أتحدث ، وقال :

ـ أن هذا الحادث له ظروفه ، والطريق فى الليل ليس محفوفا بالاخطار كما نتصور أو نظن ، ومع ذلك فنحن رفقة ونحن جماعة ٠٠ فمن نخاف ، ممن نخشى ؟؟ ٠٠

ثم نظر الى الصديق الطويل العملاق والمسدس الكبير الـذى يحتضن خاصرته ، وعقب بما معناه أننا مسلحون ومعنا رجال ، وانه ـ أى نفس الصديق العملاق ـ قد سافر عشرات المـرات فى نفس الطريق ، فى الليل وفى النهار فلم ترهبه الصـحراء أو يخف ظلامها ، أو حدث له حادث ٠٠ وأدرك صاحبنا العملاق انه المعنى بهذا الثناء وهذه الشجاعة ، فابتهج وتألقت أساريره ونهض على الفور ونهضنا معه ٠٠

وماهى الا فترة وجيزة جدا ، حتى كان كل شىء قد أعد ٠٠ السيارة والحقائب وجيوبنا التى امتلأت بالسجاير ، وبطوننـا التى اكتظت بالطعام ، وما أن سارت بنا السيارة وقطعت بنـا طريق المكس الملتوى المتعرج الذى يشـبه فى التوائه وتعرجه أزقة القللى وحارات المغربلين وبلغت الطريق الممهد واستقامت عليه ، حتى انطلقت فوقه فى الليل كما ينطلق العقاب فى السماء

يشق طبقات الجو ، وأحسست بمتعة زائدة ، لانني الوحيد الذى فزت بنصيب الاسد ، من حيث جلستى المتعة المريحة فى قلب السيارة ، وقد جلست بجانبى بحكم أنى القائد للسيارة ، الفنانة الحسناء ٠٠ وجميل من غير شك ، وممتع من غير جدال أن تجلس بجانبك حسناء فى هذا الطريق الطويل الموحش ، وزادنا جميعا أمتاعا ضوء القمر الصافى الذى يغطى الصحراء بطبقة من الفضة باهرة الجمال ، والنسيم العليل الذى تتماوج نفحاته وتضمه براثحة الرمال الناعمة ، وزاد هذا كله جمالا وامتاعا ولذة تفيض على القلب ، ونشوة تغمر الفؤاد صوت أم كلثوم الذى راح يتلألأ فى فضاء الليل العريض ، ويعطره بأنغامه كما يتلألأ صوت الكروان فى الليل فيستمع اليه الكون ويصغى اليه الازل ٠٠ وأحسست بنشوة تفيض على ، وشعرت بقيمة حياة الانسان فيما لو عرف كيف وأين نوجد لحظات الامتاع الحسى ، وكيف أن هذه اللحظات تفوق العمر مهما امتد ، والكون مهما امتلأ ، والدنيا مهما ازدحمت بكنوز السماء والارض ، وكان هذا احساسنا جميعا ، لاننا رحنا جميعا نصفق مع المصفقين لأم كلثوم ونهلل مع المهللين ونغنى نحن أيضا ونردد مع أم كلثوم فى صوت واحد ، « ولما أكون وياك» ٠٠ هايم فى بحر هواك ٠٠ ما أعرفش ايه فات من عمرى ٠٠ ان كان رضا أو كان حرمان ٠٠ يااللى باحبك زى زمان ٠٠ »

وظللنا كذلك حتى قطعنا شوطا كبيرا فى قلب الصحراء ، وما كنا لندرى اننا قطعنا مع هذا الشوط أيضا حبل هذه الهناءة التى نعيشها ، وأجهزنا على شريان هذه السعادة التى نحن فيها ٠٠ فقد تعطلت السيارة فجأة ، وأصيب جهازها بما يشبه السكتة القلبية تماما ، وكل الذى حدث اننا سمعنا صوت الموتور يرتفع فجأة كأن مطارق غلاظا تنهال عليه ،. ثم عاد وصمت فجأة أيضا ، ولكنه صمت الى الابد ٠٠ البنزين ٠٠ ٠٠ الزيت ٠٠ الكهرباء ٠٠ الكوتش ٠٠ كل شىء كما هو الا صوت المحرك الذى صمت صمت القبور ، وهبطنا من السيارة ، ورحنا مرة أخرى نقلب فيها ذات اليمين وذات الشمال ، وندفعها مرة الى الامام حتى تنقطع قلوبنا ٠٠ وندفعها مرة الى الخلف حتى تلهث أنفاسنا ، دون فائدة ، ورحنا جميعا نتصبب عرقا ، ووقفنا حولها حيارى ، كما نقف تماما حول جثة ميت لا نعرف صاحبه

ولكن نظرة واحدة يلقيها واحد منا على الآخر خلسة كفيلة بأن تجعلك تدرك تماما الخوف الذى يمتلىء به قلبه ٠٠

ونظرنا الى الصحراء التى كانت من لحظات فى عيوننا كغانية من غانيات الاساطير تتلألأ نورا وجمالا وفتنة تريح القلب ، فاذا بها بشعة كريهة ، تثير الرعب والخوف والاضطراب ٠٠ سكون أصم ٠٠ وفراغ مطبق ٠٠ وتيه كاللجه التى تتحفز لابتلاع كل شىء ٠٠ وصمت لايشوبه سوى صوت عواء ذئب يترامى الى أذنيك كالصدى فى الليل ، أو فحيح أفعى تقترب من سمعك فى همس وكأنه « يوشوشك » على حياتك ، ويشاورك على عمرك ٠٠ أو صوت أزيز عقرب ينطلق مزغردا مارا فوق رأسك ، أو زاحفا من تحت رجليك كما ينطلق السهم مزغردا فى الفضاء تماما ٠ وراح كل منا ينظر الى أخيه مرة ثانية لعله يظفر منه بنظرة أمل أو تشجيع ، أو يحظى بمجرد لقاء العين بالعين ،فلا يزيده الا رعبا وفرقا ٠٠ ووقفنا هكذا لحظات كأنها الدهر ، وفجأة طلع علينا قبس من نور أمل كبير تعلقنا به جميعا كما تتعلق الاطفال بثياب أم تمسك لهم بقطعة من الحلوى فى يدها ، اذ رأينا على بعد بعيد ضوء سيارة مقبلة علينا ، فغمرتنا جميعا الفرحة ونطقت وأنا أكثرهم فرحا :

ــ الحمد لله ٠٠ أهى سيارة جت أهه ٠

فقال صاحبنا الطويل العملاق ، وكأنه يعتصر لسانه اعتصارا بين شدقيه ويرغمه ارغاما على النطق ٠

ــ ماتفكروش أبدا أن أى سيارة ح تقف لنا ٠ ٠ ليلتنا سودة !

ــ ليلتنا سوده ليه بقى ؟؟

نطقتها فى رعب ، فقال فى صوت مصفر كسحنته تماما :

ــ لأن اللصوص فى هذا الطريق يستعملون نفس الطريقة ٠

ــ طريقة ايه ؟

ــ يوقفون سيارة فى الطريق ، ويطلبون النجدة ، حتى اذا وقفت سيارة مارة انقضوا عليها فجأة ٠ وهذا ما حدث للطبيب الشاب الذى قتل هو وزوجته ٠

وما أن قال ــ له الله ــ هذا القول ، حتى تمثلنا الحادث مرة ثانية ، ورحنا نرى بعيوننا الخائفة المرتعشة صورة القتيل كما جاءت فى الصحف ، وقد بقرت بطنه كما تبقر الشاه ٠٠

وصمتنا جميعا ولم ننطق ، واقتربت السيارة المقبلة من بعيد ، وشق ضوءها القوى الظلام الى أعيننا ، فلم نفقد الأمل ، ووقفنا فى قلب الطريق نلوح لها بأيدينا ، وكأننا نلوح الى الله فى ذلة وخضوع أن يرد علينا حياتنا وأن تقف هذه السيارة ، راب يكون من فيها رحماء عطفاء على ناس يحدق بهم الموت فى قلب صحراء قاحلة ، ولكن السيارة ـ لها ولأصحابها الله ـ ماان رأتنا ورآنا قائدها على نورها الكبير الذى أعشى أعيننا ، حتى أطلق النفير فى صوت مرعب ، وزاد من سرعتها فى جنون ، حتى أنها مرت بنا كما يمر البرق سواء بسواء !

ووقفنا نفرك أعيننا من قوة الضوء الذى أعشاها ، وتحاشى كل منا أن ينظر الى أخيه ثانيه ‥ ورحنا ننظر الى ما حولنا فلم نجد الا فراغا ‥ وصمتا وظلاما راح يطبق على الصحراء شيئا فشيئا ، حتى القمر هو الآخر أخلى بنا ، وتركنا وتوارى سريعا وكأنه لا يريد أن يشهد المأساة ‥ وهكذا أطبق كل شىء فى رعب ، لا صوت ولا حركة ، ولا حتى هبة من هواء ، اللهم الا صوت عواء ذئب ، أو فحيح أفعى ، أو أزيز عقرب يطير مزغردا من فوق رءوسنا ، أو زاحفا من تحت أرجلنا ‥ وهكذا مرت لحظات ، أكذب أن وصفتها لأن الأحاسيس والمشاعر والفهم ، كل ذلك تجمد ، وكأنه قطع من حجارة ، الى أن تنفس صديقنا الطويل العملاق ، وقال بعد جهد كبير بذله ليتكلم :

ـ وما العمل ؟ ‥

فقالت الفنانة الحسناء ـ لعنة الله عليها ، لانه لولاها لما كان استقر رأينا على السفر ليلا ـ قالت وكل شىء فيها يضطرب ويصطك كأسنانها التى كنت أسمع لها صوتا ككركبة الزجاج وهو يتساقط متكسرا على جسم صلب :

ـ وايه اللى اللصوص تعمله فينا ، اذا بقينا معاهم كويسين وكرماء وأديناعم كل حاجة ؟ ‥

فنطق الصديق القصير المتسبب فى هذا البلاء من أول الامر ‥

ـ وهو اللى معانا شوية ؟ دانا لوحدى فى جيبى أربعمائة جنيه ‥

فرد الصديق الثانى فى صوت خافت وهو يتلفت حواليه :

ـ وأنا كمان فى جيبى مايتان ، غير الساعة والخاتم وتمنهم خمسماية جنيه ‥

وكدت أضحك رغم ماأنا فيه من اضطراب ، فقد تصورت منظرهما وهما يقدمان الى اللصوص هذه الثروة الكبيرة ، ويقدمانها عن طيب خاطر وفوقها أيضا كلمة شكر من الاعماق

وعاد الصمت مرة أخرى يلفنا بكسائه المخيف الرهيب ، لولا أن الزميلة الفنانة قالت مقترحة ، وأشهد بأنها كانت خارقة الذكاء فيما قالت وما اقترحت ، اقترحت أن نأتي بمنديل كبير ونجمع فيه كل ما معنا من أشياء غالية : نقود ، وساعات ... وخواتم .. والذهب الذى تحلى به جسدها ومعصمها ، وهو يزيد كما قالت على الثلاثمائة جنيه أيضا تضع كل هذا فى المنديل وندفنه فى قلب الرمال ، فى مكان قريب من السيارة ، حتى اذا وقع المحظور وداهمنا اللصوص ، أعطيناهم كل شيء ، فى حين أننا نكون أخفينا عنهم كل شيء ..

واستصوبنا جميعا هذا الاقتراح المعقول فعلا ، وابتعدنا عن السيارة بمسافة تزيد على عشرة الامتار ، وحفرنا حفرة كبيرة ، وجئنا بالمنديل وفردناه ، ومازلت أذكر جيدا منظرنا وكل منا يخرج مافى جيبه ويضعه فى المنديل ، ولم نبق معنا غير بعض نقود تتراوح بين الجنيهين والثلاثة حتى لا يفطن اللصوص الى فعلتنا ، وكذلك أبقيت ساعتى الفضية أو المعدن لا أدرى ، وقد كان ثمنها لا يزيد على الجنيهات القلائل ، وما ان وضعنا كل شيء نخاف عليه فى المنديل ، وأمسكت الزميلة بأطرافه لتعقده على متاعنا كله وتضعه فى الحفرة ، حتى رأيت صديقنا العملاق الطويل الفارع الطول يقول وهو يمسك بيدها حتى لا تعقد المنديل ، وهو يقدم لها شيئا فى يده لم أتبينه فى أول الأمر فى الظلام :

ـ خدى ده كمان حطيه فى المنديل

ونظرت ثانية الى يده فاذا به يقدم لها المسدس الذى كان حلى به خاصرته لتضعه أيضاً فى المنديل ، فاندهشت دهشة زائدة وقلت وأنا لا أصدق عينى :

ـ ايه ده ؟؟

فقال ببساطة لا حد لها :

ـ المسدس ..

ـ ح تخبيه كمان فى الرمل ؟

ـ أيوه ..

ومع ذلك لم أصدق وقلت •
ــ أنت بتتكلم جد ؟
فقال في غضب :
ــ أنت عارف دا تمنه كام ؟
ثم ابتلع ريقه الجاف وعقب :
ــ دا تمنه تسعين جنيه

قال ذلك وهو يضع المسدس في قلب المنديل ويعقد المنديل على ما فيه ، ويدفنه بيده في قلب الحفرة • فلم أنطق ، وانما نطقت المرأة التي معنا وقالت في دهشة هي الاخرى :
ــ أمال انت شاريه ليه •• وشايله معاك ليه ؟
فقال محتدا عليها جدا :
ــ أظن شاريه عشان اللصوص تاخده منى ؟

ولم أسمع بعد ذلك شيئا مما قيل ، أو مما دار • فقد أذهلني الخوف الذي ألم بي كثيرا ، بعد أن عرفت من هم الرجال الذين معي • ورحت في الظلام أصغي الى تدهور أنفاسي ، والى صوت أسناني التي راحت على الرغم مني تصطك هي الاخرى وتحدث نفس الصوت الذي تحدثه أسنان الزميلة تماما • ووقفنا لحظات بعد أن وضعنا المنديل في الحفرة ، وأهلنا عليه الرمال ووضعنا فوق الحفرة حجرا أسود لنتعرف عليها به • أقول وقفنا لحظات لا أظن أبدا أن في مقدور أي شخص أن يتصورها أو يحسب لها حسابا في عالم الخيال ، وظللنا كذلك يجاهد كل منا نفسه لكي لاينظر الى صاحبه حتى لايزداد رعبا وفرقا ، الى أن طلع علينا من بعيد ضوء سيارة مقبلة مرة أخرى ، ويلتمع نورها في جوف الصحراء ، كما تلتمع تماما عين قط برى •• فداعبتنا من جـديد الآمال ، ولكنها آمال خائبة من غير شك ، لأنها ستكون كسابقتها سـواء بسواء ، ولذلك لم نهتم بها ، ولم نتحدث عنها ، أو نفـكر حتى في أن نشير اليها مجرد الاشارة للوقوف • ولـكن الزميلـة ، وأشهد مرة أخرى بأنها كانت أيضا خارقة الذكاء هـذه المرة ، قالت على الفور ، واقترحت هذا الاقتراح الصائب حقيقة ــ فقط لو نجح ــ وهو أن نختفي سريعا نحن الرجال الثلاثة ، وننام على بطوننا في قلب الرمال ، وتقف هي وحدها في قلب الطريق تشير الى السيارة • ومن غير شك أن الذين فيها عندما يرونهـا امرأة ، ووحدها وتعطلت سيارتها في الليل وفي الصـحراء فسوف يشفقون عليها من غير شك ، ويمدون لها يد العون ••

وعند ذلك تستطيع أن تقنعهم بالحقيقة ، واننا لسنا من اللصوص أو قطاع الطرق ..

ونفذنا جميعا الفكرة ونفذناها سريعا جدا ، اذ رحنا ثلاثتنا نركض مبتعدين عن السيارة ، ولما دخلنا في قلب الرمال ، انبطحنا على بطوننا حتى أصبحنا نحن والرمال بساطا واحدا ، بحيث يتعذر على أى عين أن ترانا .. واعترضت هي الطريق ، ووقفت تلوح للسيارة القادمة في ذلة واستعطاف ، أذابت قلوبنا نحن الذين ننظر اليها من بعيد .. واقتربت السيارة ولهثت مع اقترابها أنفاسنا ، ودقت قلوبنا دقا موجعا خشية أن يتبدد أيضا هذا الامل ، وتفشل كذلك هذه الخطة . واقتربت السيارة كثيرا ، واقتربت جدا ، ولكنها كانت في نفس السرعة، حتى مرت بها دون أن تلتفت اليها أو تعيرها اهتماما ، أو تشفق على امرأة تكاد تموت رعبا ، وثلاثة من الرجال دفنهم الخوف أحياء في قلب الرمال ..

بيد أن شيئا ما حدث فجأة فلم نصدقه في أول الامر ، لانه كان أكبر من تصورنا . فقد وقفت السيارة فجأة بعد أن تخطتها بأمتار طويلة ، وهبط منها رجل بدين لا تبشر هيئته ولا سحنته الغليظة بخير . وأسرعت اليه الزميلة ، ورأيناها تتحدث معه ، وفجأة هبط رجل آخر ، فاسترد كل منا أنفاسه بعض الشيء ، ولم يمتد الحديث بين الثلاثة طويلا وانما انقطع فجأة ، وانقطع بشيء مذهل رهيب لم يكن أبدا في الحسبان . فقد انصرفت الزميلة بهما ، وركبت معهما السيارة التي انطلقت بالجميع ، وتركتنا كما نحن ، وكما لو كانت وحدها فعلا في قلب الصحراء .. ونظر كل منا الى صاحبه وهو متمدد كلوح من خشب فوق الرمال ولم ينبس ، وتمثلت لاعيننا قذارة المرأة وخيانتها وانحطاط خلقها وتخليها عنا في أحرج الأوقات . وراح صاحبنا العملاق ينفخ من الغيظ ، وهو ينطض ويزيل حبات الرمل التي ملأت خياشيمه وعينيه ، وهو يسب ويلعن النساء جميعا ، ويعدد مساوئهن وكيف أنه لا فرق بين غلظة قلوبهن وقسوة هذه الصحراء ..

وكنا قد اقتربنا من سيارتنا الملقاة على جانب الطريق كجثة الميت تماما ، وجلسنا نحن الثلاثة بجانبها نكاد ننهى حياتنا .

ونحن ننتظر مصيرنا الاسود الذى تحدد بهذه الليلة وفي قلب هذه الصحراء ·· ورحنا مرة أخرى نصغى فى خوف الى أنفاس الظلام ، ووحشة الصمت الذى لا تشوبه شائبة اللهم الا صوت عواء ذئب هناك ، أو فحيح أفعى هنا ، أو أزيز عقرب ينطلق مزغردا من فوق رءوسنا · وكنت أتصور كل شيء دائما ، وأتخيله كالحقيقة دائما ، حتى لكأننى عشته تماما ، الا هذه الساعات الثقال التى تسبق دنو الاجل ، أو التى ينتظر فيها الانسان مصيره · وأحسست نعمة الحياة حقيقة ، وأشفقت على حياتى لا من أن تنتهى فحسب ، ولكن أن تنتهى هكذا ظلما وعدوانا وعلى هذه الصورة من البشاعة ·· ورحت أسترجع كل ما قرأته فى الكتب عن غلظة قلوب البشر وبشاعة منظر رجال العصابات ، وقسوة قطاع الطرق ، وغلظة كبد سافك الدماء ·· ورحت أنظر حولى فلم أجد الا خوفا ممثلا فى الصديق الذى عن يمينى ، ورعبا فى الصديق الذى عن شمالى ، واضطرابا لا حد له فى منظر السيارة الصامتة صمت القبور ··

وكما تتعلق آمال الغريق حتى فى عود ثقاب يتأرجح أمام عينيه على صفحة اليم ، كذلك تتعلق آمال الحائر بأى فكرة تطرأ عليه ، سواء صائبة أو غير صائبة · ولذلك واتتنى فكرة طربت لها كثيرا : أن اللصوص لو مروا بنا فى هذا الظلام ، فسوف يرون أول ما يرون السيارة أولا من غير شك ، وهى التى ستعنيهم ، وأنهم سيقتلون من فيها لا حبا فى القتل وانما حبا فى سرقتها · فاذا لم يجدوا السيارة ، ولم يجدوا معها أحدا ، سهلت مهمتهم بطبيعة الحال ، فلماذا لا نبتعد عن السيارة ونهرب فى الرمال ، وسوف يظنون حتما أن أصحاب هذه السيارة قد تركوها فى الطريق وانصرفوا بسيارة أخرى ؟

وعرضت هذه الفكرة على الاثنين فرحبا بها ترحيبا كبيرا ؟ وفكرنا أن نتفرق حتى لا نكون عصبة فيرانا أحد · وانصرف أحدنا ـ وهو الصديق القصير ـ قاتله الله ـ الى يمين ، وأمعن فى قلب الصحراء حتى اختفى تماما · أما الآخر ، الطويل العملاق ، فقد نظر الى وهو يرتعد فرقا كما ارتعد أنا تماما ، وقال :

ـ ما دام الغرض من الاختفاء هو الابتعاد عن السيارة فقط ،

فلماذا لا نختفي معا في مكان واحد ، بدل أن يختفي كل منا في مـكان ؟

وأطربتني الفكرة ، ولعل الخوف هو الذى جعلني أوافق على رأيه • ووافقته على الفور ، وأنا أعلم سلفا ومنذ أن رأيته يخفي مسدسه في الرمال ، أنه يضر أكثر مما ينفع • ولكن الذى يضر قد ينفع أحيانا في ساعات الموت • وسرنامعا نزحف على بطوننا في قلب الرمال ، حتى ابتعدنا كثيرا عن مكان السيارة ، وأمعنا الى حد كبير في قلب الصحراء ، ومن ثم تمددنا فوق الرمـــل ، نتلفت ذات اليمين ونتلفت ذات الشمال ، فلم تقـــع عيوننا الا على كل ما يخيف في هذا التيه المترامي في قلب الظلام وجـوف الصحراء • ومرت فترة صمت أحسست فيها بشيء من الطمأنينة ما دمنا قد اتخذنا لكل أمر عدته ، غير أن هذه الطمأنينة لم تدم كثيرا وأسفاه ، فقد أحسست بصاحبي يلكزني فجأة في كتفي وهو يتمتم هامسا في اضطراب شديد ، ويقول بصوت خـافت جـــدا :

ـ بص •• بص !!

ـ فيه ايه ؟

ـ بص على اليمين •• عند الطريق ••

وأرسلت عيني في الظلام فلم أر شيئا :

ـ مش شايف حاجة ••

ـ بص كويس •• فيه ناس ماشيين هنـــاك أهم ، رايحين جهة العربية ••

فلهثت أنفاسي سريعا وأنا أمد نظراتي مدا طويلا في الظلام ، فرأيت فعلا عدة أشباح ، منها القميء ، ومنهـــا غير القميء ، تسير زاحفة على جانب الطريق تماما ، في اتجاه السيارة ، فقلت له هامسا وكل شيء في كأنه يذوب ويتلاشى :

ـ أيوه •• أنا شايف ثلاثة ••

ـ وطي صوتك ••

ثم ابتلع ريقه وقال :

ـ ثلاثة ايه ؟ دول أكثر من عشرة ..

ـ أنا خايف يشوفونا ..

ـ انكتم ..

وكنت قد رفعت صوتى ، فلكزنى مرة أخرى ثم قال :

ـ نام على بطنك وحط رأسك فى الرمل ..

وفعل ذلك ، وفعلته أنا ايضـــا .. ورحنا بنظرات كليلة وعيون راجفة ننظر فى الليل الى اللصوص وهم يسيرون أو يجلسون القرفصاء على جانب الطريق . لاندرى ومرت لحظـات كأنها دورة كاملة من دوران الأزل ، ونحن ننظر اليهم وهم فى مكانهم لايتحركون ، أو لعلهم يتحركون رويدا ، الى أن أحسست بصاحبى فجأة وعلى حين بغته مرة أخرى يلكزنى فى كتفى لكزة موجعة وهو يقول متقطع الانفاس .

ـ الحق .. بص .. بص ..

ـ أيه ؟ أيه ؟ ..

ـ شايف ؟ واحد منهم جاى علينا أهو ..

فاصطكت أسنانى وأنا أقول .

ـ هو فين ؟

ـ أنت أنعميت ؟ .. شايف الاثنين اللى لابسين أسود جنب العربية تمام ؟

ـ أيوه ..

ـ شايف اللى بينهم ؟

ونظرت فاذا بواحد ينهض من بينهم فعلا ويســـير ، وكأنه يتحسس الخطى تحسسا فى اتجاهنا تماما .

ـ لكن هو شايفنا ؟

ـ بيقولوا معاهم نظارات فى الليل ..

وتدهورت انفاسى وأنا أقول :

ـ دا قرب .. لازم شايفنا ..

واقترب فعلا ، ولكنه وقف لحظات وراح يتلفت حواليه ... ثم اتجه يمينا بعد أن كان يقصدنا مباشرة . ولاحت بارقة من أمل ، ولذلك دفنا رءوسنا دفنا فى قلب الرمل مرة اخرى ، غير

أنه فجأة غير الاتجاه ، وراح يدب الخطى نحونا مباشرة ..

ـ بقول لك شايفنا ..

ـ انكتم

وانكتمت مرة اخرى ، ولكنى لم استطع ، فقلت :

ـ أسمع .. أن قرب منا نعمل نايمين وفجأة نمسكه من رجليه ونخنقه ..

ـ ولما اللى وياه يشوفونا ؟؟ ..

ـ وبعدين ؟ ..

ـ انكتم ..

واقترب منا فعلا ، ولما رأيته يقصدنا حقيقه ورأيت معه الموت المحقق ، قلت أعمل اى شيء .. فحركت ذراعى الى الامام لكى أمسك به ان استطعت ، ولكن فجأة رأيت شبحة عندما أحس بحركة ذراعى فوق الرمال يصرخ صرخة مكتومة ، وهو يحاول أن يرتد سريعا . وشجعنى هذا على ان أمسك به ، وأحسست بقوة خارقة تسرى فى جسمى كله لعلها هى التى تسبق أحيانا طلوع الروح ، فنهضت سريعا . وما أن وقفت حتى شجعنى جدا شيء آخر رأيتــــه ، وهـــو ان رفاقه رأيتهم يهربون أمام عينى ويبتعدون ، ولذلك اسرعت خلفه واسرع معى صاحبى أيضـــا وأمسكنا به ، فسقط على الارض ، ونحن فوقه . ومان مددت ذراعى وفتحت يدى لاقبض على عنقه وصاحبى العملاق يرتمى فوقه بجسمه الثقيل ، مأن فعلنا هذا حتى رحنا فىذهول ننظر الى صديقنا القصير الذى ظنناه اللص ، والذى كان من الخوف يبحث عنا فى الصحراء :

ـ الله يخرب بيتك ! مش تقول انك آنت ؟

لا أدرى أينا قال ذلك للآخر ، ولكن الذى أدريه ـ لانه كاد يذهلنى أكثر من هذا كله ـ أننى رأيت اللصوص الذين كانوا يزيدون على العشرة فى ملابسهم السوداء يجلسون القرفصـــاء بجانب الطريق ، ورأيتهم فاذا بهم فناطيس سوداء تناثرت عـــلى جانب الطريق لتحدد معالمه فى النهار وفى الليل .. كما حدث شيء اخر غير هذا كله ، لم يكن ايضا فى الحسبان أبدا ، رأيت سيارة جيب تقف أمامنا فجأة ، ويهبط منها بعض رجال حرس الطريق فى الليل ، وتهبط معهم الزميلة الفنانة ، التىاتهمناها

بالحسة والنذالة وقذارة الخلق ، اذ ظنناها قد تخلت عنا فاذا بها ذهبت لتأتى لنا بهذه النجدة ..

أما الشيء الذى مازلت أذكره جيدا ولن أنساه ماحييت ، فهو اننا بعد أن سحبت سيارة الجيب سيارتنا ، وانصرفنا فى تلك الليلة المشئومة ، تذكرنا ونحن نجلس فى الرست نشرب بعض الماء لنسترد حياتنا ، تذكرنا المنديل الذى فيه متاعنا ، والحفرة التى دفناه فيها فى قلب الرمال ، والحجر الأسود الذى وضعناه فوق الحفرة ليهدينا اليها ..

ومنذ تلك الليلة ، ومنذ ذلك الصيف الذى مضى ، ونحن نبحث عن مكان فى الصحراء ، وحفرة من الحفر فى قلب الرمل، وحجر اسود فوقها ، لانعرف له لونا من بين آلاف الحجارة السوداء، التى امتلأت بها الصحراء !

ساعات الفراق

.. لم يبق غير نصف ساعة

فأربدت سحنتها ، وجحظت عينـاها ، وتدهورت أنفاسـها سريعا ، كما تدهورت أيضا نظراتها ، وهي تنظر الى الحائط وترى الساعة الكبيرة الدقاقة التي أمامها ، وعقاربها السوداء البشعة التي تمثلت لها كالثعابين الضريرة تتخبط في الظلام .. حتى هذه العقارب السوداء تتآمر عليها هي الاخرى ، وتركض في هذه السرعة الجنونية حتى انها أتت على النهار كله فيما يشبه الغمض .. حتى هذا الجماد هو الآخر يسره أن تموت امرأة ..

وتلفتت حواليها ذاهلة ، تنظر الى المخدع الذى احتواها سنوات طويلة وكأنها تبحث عن شيء .. شيء تعرفه جيدا ولكنها تجهل ماهو .. والغريب أنها كلما جدت في البحث عنه ، جد هو في الاختفاء ، وظلت كذلك حتى خارت قواها ، فارتمت على أول مقعد قابلها وتكومت عليه كحزمة من القش ألقى بها ريثما تحترق ..

وظلت تبكى ..

وظلت كذلك ترسل النظر صامتة فى أعقاب ذلك الشيء الذى يشبه تماما رهبة ذلك السكون الشامل الذى يكتنفها والذى لولا أنفاسها الحارة الملتهبة وصوت دموعها المتساقطة ، لكان أشبه بالموت .. انه الموت فعلا ، فكيف تجد فى البحث عنه ، السعى وراءه ، الحصول عليه ؟

وانسابت دموعها ، وانساب أيضا صمتها الرهيب ..

وفجأة دوى شيء فى قلبها فانذعرت وارتعدت فرائصها ،حتى أنها تكورت فى جلستها ، تماما كما تتكور الهرة التى يلم بها الموت من كل جانب ..

ان صوت الساعة اللعينة ينذرها بالزمن الباقى ..

انه لم يكن نصف الساعة كما كان من لحظة . انه ربعهافقط ثم يحدث بعد ذلك .. يحدث ماذا ؟

وفغرت فاها وراحت تنظر الى الفضـــاء المعتم حواليها ، الا ما أبغض هذه الساعة .. ما أسمج ظلها ، ترى هل هى تتآمر عليها حقيقة ، أم ترى الزمن نفسه يتسابق معها للاشتراك فى الجرم ؟ ماذا يفيد الزمن أن تقع الجريمة .. أن تمـوت امرأة ، يهوى عرض ، يتشرد خلق ؟ ..

حقيقة .. ترى ماذا يفيد الزمن هذا ؟

انك تتجنين على الزمن ، تماما كما تتجنين على نفسك الآن . هل هو الذى جعلك تتورطين هذا التورط ؟ .. هـل هو الذى قال لكلبى هذا النداء الآثم ؟ هلهو الذى قاللك افتحىنافذتك اذا فتح هو نافذته ، واجلسى فى الشرفة اذا جلس هــو فى شرفته ؟

انك تعلمين منذ اليوم الأول الذى قطن فيه المسكن المقابل لمسكنك بأنه أعزب وأنت زوجة . ماذا كنت تنتظرين أن يريد الأعزب اذا مانظر الى امرأة ؟ ماذا يريد الرجل ، أى رجل ، اذا نظر لامرأة ، أى امرأة ؟ هل يريد أن يقول لها : أغربى عنوجهى .. !بتعدى عن طريقى؟ ..

ان الرسل أنفسهم ــ لولا ارداة من الله ــ لما عصمهم عاصم فى حضرة امرأة جميلة .. وأنت امرأة جميلة ، وهو ليس برسول، فماذا كنت تنتظرين ، غير هذا الذى سيحدث بعد لحظات ، بعد دقائق ؟ ..

وفغرت فاها ، وأربدت سحنتها أربدادا مخيفا ٠ وزمت على شفتيها المرتعشتين وهى تتمتم بصوت شبه فحيح الأفعى :

ـ ماذا سيحدث بعد دقائق ؟ ٠٠ ماذا يحدث بين رجل قوى وامرأة جميلة ؟

وانسابت دموعها ، وتمتمت بنفس الصـــوت الذى يحرق شفتيها :

ـ ولكنى زوجة ، ولكننى شريفة ، ولكننى طاهرة الذيل ٠٠ لو أنك كنت كذلك فعلا لما تجرأ هو على ٠٠ على ٠٠ على أن ينظر اليك من النافذة ، يتحدث اليك من الشرفة ، يتصل بك فى التليفون ، وأخيرا على ٠٠

وحانت منها نظرة الى صوان ملابسها ، فرأته غاصا بالهدايا الغالية التى قدمها اليها

كل هذه الهدايا أغدقها عليك ٠٠ لم يلتق بك بعد ، قـــدمها اليك عن طريق تلك الخادم العجوز التى تعمل عنـــده ٠٠ هـــذه الخادم ! هذه العجوز ! يالها من داهية !!

وزمت شفتيها مرة أخرى وانسابت دموعها مـــرة أخـــرى ، وتمتمت بنفس الصوت الذى يشبه لفحات النار أو فحيح الأفعى :

ـ حقيقة هذه العجوز الماكرة هى التى فعلت هذا كله ٠٠ بعد أن استطعت أنا أن أرد كل محاولة له ، بعد أن حرمت على نفسى النافذة المطلة على شرفته ، بعد أن أوصدت فى وجهه جميع النوافذ والأبواب ٠٠ بعد أن مكثت الشـــهور لا أرى النور حتى لا أراه وأرى تلك الابتسامة العذبة التى كانت تخترق جسدى وتنفـــذ الى قلبى مترنحة ٠٠

حقيقة أنا أحببته ٠٠ أحببته فى لحظة من لحظات ذلك الضعف الانثوى الذى يعترى النساء جميعا فى لحظة ما ، ولكنى ثبت الى رشدى سريعا ونجوت من النار قبل أن أحترق ٠ فكيف استطاعت هذه العجوز الماكرة أن تصنع هذا الذى لم يستطع أن يصنعه حتى الشيطان ؟

تطرق بابى ، ثم قلبى ، ثم تجعلنى أذوب شوقا ، أذوب غراما لمجرد ذكر اسمه ، جعلتنى أنا أفتح النافذة لأراه ٠٠ واقف فيها الساعات أتحرق شوقا لطلعته ، لرؤياه ، ثم جعلتنى ٠٠ جعلتنى ماذا ؟

وفغرت فاها ، وأربدت سحنتها ، اربدادا مخيفا ، وانسابت دموعها الغزيرة بكماء هذه المرة على شفتيها المقرورتين وتمتمت:
ـ وجعلتنى أنتهز فرصة مغيب زوجي الليلة وأضرب لهموعدا .. وسيمكث معي ساعات ربما امتدت الى الليل كله .. وأين؟ عنا في البيت ، في هذا المخدع الذى لم تمسسه في حياته غير كل يد طاهرة .. وذيل شريف

أجل سيجيء الآن .. وسيمكث معي ..
مع من ؟
. معك أنت

وهنا ، وفي مخدع زوجك ..
ودارت بها الارض ، بل الدنيا جميعا ، وكادت تسقط من فوق المقعد الذى احتواها ، كل هذه اللحظات الهائلة ..
وفجأة ، هبت مذعورة ، وغادرت المقعد هلعة صارخة ، تريد أن تصرخ ، تريد أن تستغيث ..

ولكنها وقفت ذاهلة تنظر بعينين مرهقتين وتتأمل شيئاما ..
تتأمل صورة زوجها الحبيب المثبتة أمامها على الحائط ، ورأت الصفاء والطهر الذى ينبعث من عينيه وهو يرنو اليها .. ورأت شفتيه الطاهرتين ووجهه الذى يقطر نورا كنور الانبياء تماما .
ليته يعود الليلة على غير ميعاد .. يعود الآن ، هذه اللحظة بالذات .. ان لم يعد فماذا سيحدث ؟
وأربدت سحنتها .. وجحظت عيناها ، وثبتت نظراتها مرة أخرى على صورة الزوج ..
وظلت تنظر الى الصورة ، صامتة لاتنبس ، جاحظة لاتطرف، وكأنها احست بشيء مريح .. مريح جدا ، كلما تعمقت فى الصورة التى أمامها وتفرست فيها ..
وهمت أن تنظر اليها مرة أخرى ، وتتفرس فيها مرة ثانيه ، بيد أن شيئا مرعبا مخيفا ، سقط في قلبها وهوى بين جنبيها ..
ذلك هو صوت الساعة الدقاقة اللعينة وهي تدق الثامنة .. والنصف تماما ..
والتفتت مذعورة الى الساعة ، والى عقاربها التي تركض فى الظلام كما تركض الأفاعي الضريرة ، وتولتها رعشة هزت كيانها كله .. وهي ترفع يديها فى جنون لتحطم هــذه الساعة التى

أخافتها دقاتها كل هذا الخوف ·· بيد أنها لم تكد تمد ذراعيها حتى ارتدت هلعة جزعة ، تبرق عيناها بريقا مخيفا ·· ذلك أنها سمعت دقات أخرى ، انها لم تكن دقات الساعة هـذه المرة ·· ولكنها كانت دقات الموت ·· لقد جاء ، جاء في الموعد تماما ·· جاء في الثامنة والنصف بالضبط ، كما قالت لها تلك الخادم العجوز ··

وسمعت الدقات مرة أخـرى ، فخـافت ، خافت وجحظـت عيناها ··

وتعالت الدقات على الباب ، وازداد خوفها ، تركض من حجرة الى أخرى حتى لاتسمع ذلك الصوت الذى يخيفهـا كل هـــذا الخـوف

وتعالى الدق على الباب حتى كاد يقلـق النـاس ، ترى ماذا سيقولون لو أنهم رأوا هذا الشاب الأعزب يدق على بابها في هذه الساعة ·· في هذه الليلة التى غاب فيها زوجها ؟··

وجففت العرق المتصبب من وجهها ، ومسحت على وجهها بيديها المرتعشتين ، مدت يدها الى الباب ، وما أن فتحته حتى وقفت ذاهلة تنظر اليه تماما كما كانت تنظر اليه منذ لحظة واحدة ·· وترى بعينى رأسها الصفاء والطهر الذى يقطر من وجهه ··

وقال لها زوجها الذى عاد فجأة وعلى غير ميعاد :

ـ ماذا بك ؟

فلم تجب ، وانما قفزت في جنون الى ذراعيه تحتضنه وتقبله، وتمسح بصدرها على صدره ، وشفتيها على شفتيه ، وهى تتمتم ودموعها العذبة تغمر شفتيه :

ـ كان قلبى يحدثنى بأنك ستجىء ··

للأزواج فقط

المشهد الأول

غرفة مائدة فخمة للغاية ، يفصلها عن غرفة الصالون ستارة خفيفة شفافة ، ويرى طلعت الزوج جالسا يتناول طعام الافطار وشيء من الضيق على وجهه ، فى حين تدخل الخادمة ، وهى فتاة فى مقتبل العمر ، مرتدية ملابس الخدم الأنيقة المنشأة ، وتقبل حاملة صينية الشاى على يديها ، وتضعها أمام الزوج على المائدة ، وتحاول الانصراف ...

***

طلعت ـ (للخادمة دون أن ينظر اليها) الست لسة نايمه ؟

الخادمة ـ قامت من بدرى .

طلعت ـ أمال هى فين ؟

الخادمة ـ بتتكلم فى التليفون .

طلعت ـ لما تخلص قولى لها تتفضل .

الخادمة ـ (وهي تنصرف) حاضر .

طلعت ـ (مخاطبا نفسه وهو يصب الشاى) لو الحكومة تحدد ساعات معينة في النهار ، تتعطل فيها تليفونات البيت ، كان .. (يسمع حركة فيمسك عن القول)

(تدخل دريه الزوجة حاملة على يد آلة التليفون ، وممسكة باليد الاخرى السماعة على أذنها وهي تتحدث)

درية ـ لا .. لا ماعجبتنيش أبدا ...

طلعت ـ (ناظرا اليها) صباح الخير ..

درية ـ (لاترد عليه وتواصل حديثها) تعرفى اللون الفسدقى .. أحسن منه ألف مرة .. وحياتك ياعليه .. وعلى فكرة .. لقيت صنف تانى عشان السواريه ، لكن جنان .. برضه فى شارع قصر النيل .. بس أنا عايزة أروح للكوافير النهارده . وانت عارفه قرفه . والقعدة بالساعتين والتلاتة ... طيب ياريت .. وكمان عشان نروح سوا لبتاع الجزم .. وبالمرة نفوت مع بعض على الخياطة ...

طلعت ـ (ينظر اليها في غيظ من حين الى حين)

درية ـ (فى فرحة) بتتكلمى جد ؟ ... زى ماقلتى لى على الكريم بتاعك ، اللى انت طالعه لى بيه السما ؟ .. ح تجيبيه معاك ؟ ... أما أشوف .. قلت لك الفسدقى جنان .. أيوه لما تشوفيه .. ح نتقابل ازاى ؟ .. زى ماتقولى .... ياتجينى ، يا أروح لك ..

طلعت ـ (لنفسه فى غيظ) ياتقول أروح منك فين ...

درية ـ (مستطرده) اتفقنا .. لأ ، خليها احداشر ..

طلعت ـ طبعا عشان تلحقى تلبسى .. وتعملى تواليت ..

درية ـ (لطلعت وهى تضع يدها على السماعة) وبعدين معاك ؟ ..

طلعت ـ أنا قلت حاجة .. ؟

درية ـ (ترفع يدها وتواصل الحديث) خلاص احداشر .. وتجيبى عينة الصوف اللى قلت لى عليه معاك .. غالى ؟ .. ليه؟ بكام ؟ .. واتنين جنيه يبقى غالى ؟

طلعت ـ (ساخرا) مين قال كده ؟ .. الا غالى دى كمان ..

درية ـ (تضع السماعة ثم تعتدل فى جلستها) خلاص . مستنياكى .. أروفوار ..

طلعت ـ (ناظرا اليها) صباح الخير ...
درية ـ صباح الخير ...
طلعت ـ افتكرتك لسه نايمه ...
درية ـ بالعكس .. أنا قمت بدري
طلعت ـ أمال كنت فين ؟

درية ـ باتكلم في التليفون .. عايزة أروح للخياطة .. وعايزه آخد ميعاد من الكوافير .. وامبارح اشتريت قماش ماعجبنيش لونه .. عايزه أرجعه .. وحاجة تقلب الدماغ ...
طلعت ـ والحاجات دي كلها تشغلك لدرجة اني أقوم ، وأحلق دقني .. وألبس هدومي .. وأفطر .. وماأشوفكيش ؟ ..

درية ـ ماهي فاطمة موجودة بدالي ..
طلعت ـ يبقى كان لازم أجوز فاطمة بدالك ..
درية ـ يعني ايه ؟!
طلعت ـ يعني فاطمه دي خدامه .. لكن انتي الست بتاعتي .. على الأقل لما أكون موجود .. مافيش حاجة تشغلك عني .. مش ألبس وأفطر وأخرج .. وحتى صباح الخير ما أسمعهاش منك ..

درية ـ قلت لك كنت باتكلم في التليفون .. قول لي .. أنا عايزه كمان تلاتين جنيه ..
طلعت ـ (وهو يقلب فنجان الشاي) غير الخمسين بتوع امبارح طبعا ..
درية ـ مش قلت لك .. إشتريت فساتين وجزم ..
طلعت ـ هو كل يوم .. فساتين وجزم .. وجزم ، وفساتين ؟..

درية ـ مش موسم .. وباجيب حاجات الشتا مرة واحدة ؟..
طلعت ـ وكمان عشرين يوم ، موسم ، وباجيب حاجات الربيع .. وعشرين يوم موسم ، وباجيب حاجات الصيف .. وأسبوع ولا اتنين وموسم ، وباجيب حاجات الخريف ...
درية ـ وما دام ح تدفع .. لزومها ايه التهليلة دي ؟
طلعت ـ لزومها اني طهقت ...
درية ـ أمال لو كنت زى الرجالة .. اللي بيجيبوا هدوم لستاتهم بمتين جنيه كل موسم .. كنت عملت ايه ؟!

طلعت ـ مستعد أجيب ·· بربعمية ·· وبألف كمان ··بس أشوفها ·· أشوفك يوم قاعدة معايا ·· أشوفك يوم لابسة فستان كويس ·· مش كله عشان الخروج ·· عشان الخروج·· عايز أفهم ·· انت متجوزاني ·· ولا متجوزة الخروج !؟

درية ـ (في ضيق) بلاش ·· وكمان دلوقت ح أجيب لك الفلوس اللي خدتها منك امبارح ··

(تدخل الخادمة وهي تحمل صينية على يديها عليها طعام ـ جبنه وزبد وشاي ، وتضعها أمام درية وهي تقول)

الخادمة ـ الفطار عشان حضرتك ياستي ··

درية ـ (وهي تشير لها بيديها) لأ ·· رجعيه دلوقت ·· لما أغسل وشي ··

الخادمة ـ (وهي تحمل الصينية ثانية وتعود بها) حاضر ··

طلعت ـ وليه ماغسلتيش وشك لحد دلوقت ؟

درية ـ (ببساطة) ماكانش عندي فكرة انى ح أخرج النهارده ··

طلعت ـ (في دهشة) ولما ماتخرجيش ·· تقومي ماتغسليش وشك ·· ؟

درية ـ قصدي ·· مش مستعجلة ··

طلعت ـ وعشان مش مستعجلة ·· تقعدي في البيت بعبلك ·· تقعدي معايا من غير غسيل وش !! ؟؟

درية ـ هو انت غريب !؟؟

طلعت ـ (ساخرا) لك حق ·· هو أنا غريب ؟ ·· وفيها ايه يعني لما أشوفك معمصة ·· شعرك منكوش ·· بفستان مقطع·· مانتوفلي من غير نعل ·· رجليك مقشفه ؟ ··

درية ـ (ضاحكة) مش جوزي ··· !؟؟

طلعت ـ مظبوط ·· مدام جوزك مش مهم ·· لكن لما تخرجي تقعدي ساعتين وتلاته تتزوقي ·· وأحمر وأبيض ·· ومونوكير ·· وفستان للصبح ، وفستان للعصر ، وفستان لليل ··لكن جوزك ·· طظ ·· ايه يعني جوزك ؟··

درية ـ قصدي انت عارفني ·· مش غريب ·· لكن بره ·· الناس لازم تشوفني جميلة ··

طلعت ـ انت متجوزاني ·· ولا متجوزة الناس ·· ؟!

درية ــ ماهو عشان متجوزاك ٠٠ لازم الناس يقولوا انك متجوز واحدة حلوة ٠٠

طلعت ــ (نائرا) ياستى ٠٠ اللى لازم يقول كده ، أنا٠٠مش الناس ٠٠

درية ــ (تنادى فى غضب) فاطمه ٠٠ بنت يافاطمه ٠٠

الخادمة ــ (تظهر على الباب) أفندم ياستى ٠٠٠

درية ــ جيبى الشنطة بتاعتى من على الكومودينو ٠٠

(الخادمة ترتد سريعا)

طلعت ــ ألا قال يقولوا! انى مجوز واحدة حلوة ٠٠ لأ ٠٠ عايزهم يقولوا ٠٠ مجوز واحدة وحشة ٠٠

(الخادمة تدخل وتناول الشنطة لدرية وتنصرف)

درية ــ (وهى تفتح الحقيبة) اتفضل آدى الخمسين جنيه بتوعك أهم ٠٠ أنا مش عايزهفلوس ٠٠ مش كل ماتدينى قرشين تعمل لى الهليلة دى ٠٠

طلعت ــ (فى ضيق) ياستى افهمينى ٠٠ الحكاية مشحكاية فلوس ٠٠

درية ــ أمال حكاية ايه ؟؟

(يدق جرس التليفون فتضع النقودفوق المائدة ،وتمسك بالسماعة وتتحدث)

درية ــ آلو ٠٠ أيوه يامدام رنيه ٠٠ بونجور ٠٠ لا لا ٠٠أنا جاية لك حالا دلوقت ٠٠ لا ماتفصليش القماش اللى جبته لك امبارح ٠٠عشان لونهمش عاجبنى٠٠ لا لا ٠٠ أنا اشتريتقماش غيره ٠٠ لا لا ، احداشر ونص حاكون عندك ٠٠ حاضر ٠٠أرفوار ٠٠ (تضع السماعة وتنادى)

فاطمه ٠٠ فاطمه ٠٠

الخادمة ــ (تدخل سريعا) أفندم ياست هانم ٠٠

درية ــ بالعجل حضرى لى الحمام ٠٠٠

الخادمة ــ (وهى تنصرف) جاهز ياستى ٠٠

طلعت ــ (لنفسه) طبعا الحمام لأن الست خارجة ٠٠ لكن اذا كانت ح تقعد فى البيت مافيش داعى تغسل وشها ٠٠

(الخادمة تعود وتناولها الحقيبة وتنصرف)

درية ــ (تفتح الحقيبة وتخرج منها نقودا) اتفضل الفلوس بتاعتك أهه ٠٠ مش عايزاهم ٠٠

طلعت ـ (وهو يخرج من جيبه نقودا) لا ‥ اتفضلى انتى آدى التلاتين جنيه اللى انت عايزاهم أهم ‥

درية ـ (مبتهجة) طب وكان لزومه ايه دا كله ؟ ‥ مدام ح تدفع ‥ ح تدفع

طلعت ـ (وهو ينهض) أنا غلطان ‥ وان شاء الله ح ترجعى الساعة كام ؟

درية ـ انت عارف بقى الخياطه ‥ رح ألف شوية على المحلات، وبعدين ح أروح للكوافير ‥

طلعت ـ بقى مش نتغدى سوا ‥ ؟

درية ـ يمكن أتأخر شوية ‥

طلعت ـ يعنى أفطر لوحدى ‥ وكمان أتغدى لوحدى ‥‥ وبالليل ألاقيكى نايمة ‥

درية ـ لأ ، بالليل ح أتعشى معاك ‥

طلعت ـ طب ح نتعشى ايه ؟

درية ـ اللى نفسك فيه ‥

طلعت ـ الحقيقة أنا من زمان نفسى فى حاجة معينة ‥

درية ـ (باهتمام) ايه هى ؟

طلعت ـ ولو حتى طبق بيض ‥ بس تكونى عاملاه انت باديك ‥

درية ـ افتكرتك بتتكلم جد ‥

طلعت ـ ودا مش جد !؟

درية ـ وايه أنا ‥ وايه الطباخ ؟

طلعت ـ (فى ألم) برضه لك حق ‥ ايه الفرق ؟ ‥

(ينهض ويشعل سيجارة ويحاول الخروج ، فى حين تدخل الخادمة)

الخادمة ـ الطباخ بيقول الغدا ايه النهارده ‥‥

طلعت ـ اى حاجة ‥

درية ـ اسمعى ‥ أنا نفسى فى الكشك ‥ خليه يعمل النهارده كشك ‥

طلعت ـ واشمعنى الكشك ؟؟

درية ـ نفسى فيه ‥

طلعت ـ لكن أنا ماحبهوش ‥

درية ـ بلاش تأكل منه ‥

طلعت ـ ماباطقش أشم ريحته •• أشوفه ••
درية ـ بسيطة •• اتغدى أنت برة ••
طلعت ـ لك حق ••• (يخاطب الخادمة) يبقى كشك •••
(يخرج)

درية ـ (وهى تضع النقود فى الشنطة وتخرج) الحمام جاهز •• ؟؟
الخادمة ـ جاهز ياستى ••
(درية تخرج)

الخادمة ـ (تتقدم من المائدة وتحمل بعض الاطباق وتنصرف بها وهى تردد مغنية) لأ مش أنا اللى ابكى •• واللا أنا اللى أشكى مهما جار على هواك ••
(تخرج ثم تعود ثانية وتحمل بعض الأطباق الأخرى وتنصرف وهى تردد مغنية) تبقى انت اللى ظالمنى •• وانت اللى هاجرنى •• وعايزنى أترجاك ••

(تخرج ثم تعود ثانية وهى تردد باقى المقطع من الأغنية)
(يدق جرس التليفون ، فتضع الأطباق وتتناول السماعة وتتحدث) :
آلو •• أفندم •• محلات مين ؟ ••• سيكوريل ؟ •• أيوه ياأفندم •• لأ ، المدام مشغولة •• يلزم خدمة ؟ •• أفندم •• البالطو اللى حجزته امبارح ؟ •• ماله ؟ •• أفندم •• طيب عن اذنك لحظة •••

(تضع السماعة على المائدة وتخرج وهى تردد مغنية)
تبقى انت اللى هاجرنى وانت ••• (تخرج)
(بعد لحظة تعود ثانية وترفع السماعة وتتحدث)

آلو •• أيوه •• ستى بتقولك ابعت البالطو على البيت •• وابعت الفاتورة لسيدى على المكتب •• الأيه ؟ الأدريس ؟ •• ماانتو عارفينه •• (وهى تضع السماعة) الهى ينوجع درسك ••
(الخادمة تضع السماعة وتبدأ فى رفع بعض الأطباق ، وتحاول الخروج • فى حين تدخل علية ، وهى سيدة أسبور جميلة ، تبدو فى غاية الأناقة • وتتجه الى الصالون ، بعد أن ترفع الستارة التى بين غرفة الصالون والمائدة) ••
علية ـ بونجور فاطمه ••

الخادمة ـ أهلا ستى عليه هانم ‥ اتفضلى ‥
عليـة ـ (وهى تجلس) أظـن سـتك لسه ماخرجتش من الحمام ؟؟
الخادمة ـ خرجت وبتلبس ‥ ودقيقة جاية حالا ‥ اعمـل لحضرتك فنجان شاى ؟ ‥

عليـة ـ مرسيه ‥
الخادمة ـ طب فنجان قهوة ؟ ‥
علية ـ (وهى تخرج علبة سجاير من حقيبتها وتشعل واحدة) شربت ثلاثة من الصبح لحد دلوقت ‥

درية ـ (تدخل وقد ارتدت ثياب الخروج ، وتبدو فى غاية الأناقة والجمال والفتنة) ‥

عليـة ـ اش اش اش ‥ ايه الجمال دا كله ؟ ‥
درية ـ (وهى تجلس بجوارها) ياختى انت رخـره ‥ صباح الخير قبله ‥
عليـة ـ جوزك هنا والا خرج ‥ ؟ ‥
درية ـ خرج ‥

عليـة ـ وشافك بالجمال دا كله وخرج ؟
درية ـ (ضاحكة) وحياتك دا شافنى من غير غسيل وش ، وقال ايه ‥ حضرته زعل ‥
عليه ـ ليـه ؟

درية ـ قال اللى شافنى من غير غسيل وش ‥
علية ـ (فى دهشة) مش معقول ‥ ؟!
درية ـ (متنهدة) أيوه ياستى ‥

علية ـ اما الرجالة دول ‥ يقوا حاجة تجنن ‥ هو جوز الواحدة غريب عنها ؟ ٠ اذا كانت تغسل وشها ولا ماتغسلوش ناقص عليها كمان لما تشوفه ‥ تقول له أهلا وسهلا ‥ شرفت وآنست ٠ ونورت البيت ٠ وتقدم له فنجان قهوة وسيجارة ٠
درية ـ قلت له الكلام ده ‥ زعل ‥ وتعرفى قال لى ايه ؟ ‥ انت مجوزانى ‥ ولا مجوزة الغرب ؟!
علية ـ سيبك منه ‥ خلينا فى المهم ‥ قولى لى ح تروحى فين الأول ؟؟

درية ـ نفوت على مدام رنيه . وبعدين نروح نتفرج على القماش ..

علية ـ أيوه كده .. افتكرتك ح تقولى لى الكوافير الأول . وبعدين يضيع علينا النهار ... (وهى تفتح حقيبتها وتخرج منها علبة) على فكرة .. جبت لك مفاجأة .. (تناولها العلبة) اتفضلى ..

درية ـ (وهى تتناولها منها) ايه دى ؟

علية ـ الكريم اللى قلت لك عليه ..

درية ـ (فرحة) برافو عليك .. ميت مرسيه ...

علية ـ وزى ماقلت لك .. مرة والتانية .. وح تلاقى وشك .... تقوليش حرير ..

درية ـ كده .. !؟

علية ـ عارفة تستعمليه ازاى ؟

درية ـ مش قلتى عند النوم ..

علية ـ أيوه .. بس مش دهان وخلاص ..

درية ـ أمال ايه ؟

علية ـ لازم تلغمطى وشك .. يعنى على الأقل طبقة بتاعة نص سنتى فوق الوش كله .. وتستنى طول الليل ..

درية ـ (ضاحكة) ياستى ألغمطه قوى .. أنا ح يخس على حاجة ؟ ..

(تنهض علية ومعها درية يحاولان الخروج ، فتقبل الخادمة)

الخادمة ـ الطباخ بيقول فيه حاجة .. غير الكشك .. ؟

درية ـ شوفي سيدك قال لك ايه ؟

الخادمة ـ ماقاليش حاجة ..

درية ـ (وهى تخرج مع علية) يبقى خلاص مافيش حاجة .

علية ـ (لدرية وهى عند الباب) ياختى جوزك دا راخر بأين عليه عندى .. مش يقول عايز يتغدى ايه ؟ ..

درية ـ (وهى عند الباب) عشان تعذرينى .. بقولك النهارده .. فتح بقه قد كده وعمل له هوالليلة قد الدنيا ... قال ايه عشان ماغسلتش وشى ..

علية ـ (ضاحكة وهى تختفى مع درية) ياستى ابقى اغسليه له ...

(يخرجان ، وتبقى الخادم التى تتجه الى المائدة وتحاول تنظيفها • فى حين يدخل الطباخ ويخاطب الخادمة ••

الطباخ ـ هه ؟ •• الست قالت ايه الغدا النهارده ؟ ••

الخادمة ـ كشك ••

الطباخ ـ كشك •• ؟؟

الخادم ـ (مقلدة) أيوه كشك •• كشك ••

الطباخ ـ والبيه ؟

الخادمة ـ برضه كشك ••

الطباخ ـ (وهو يخرج) كشك •• كشك ••

المشـــهد الثـانى

غرفة مكتب طلعت فى احدى الشركات ، وهى غرفة مكتب أنيقة للغاية ، ويرى طلعت جالسا وفى يده سيجارة وأمامه فنجان من القهوة • واحـــدى الموظفات تعرض عليه أوراقا فى دوسيه يوقعهـا ، وتبدو الموظفة سيدة فى الثلاثين من عمرها غـير مهتمة بزينتها ، مع أنها سيدة جميلةجمالا ملحوظا •• وحين ذلك يفتح الباب فهمى أفندى ، وهو أحد الموظفين الكبار فى الشركة ، ويدخل ويلاحظ عليه عند وصوله الألم والتفكير ، وهـو رجـل رفيع الى حد كبير ••



فهمى ـ صباح الخير يا أفندم •

طلعت ـ (وقد رفع رأسه من فوق الدوسيه) صباح الخـير ياأستاذ فهمى ••

فهمي ـ التقرير اللى سيادتك طلبته ، بعد نص ساعة ح يكون جاهـز ..

طلعت ـ (وهو ينظر الى دوسيه أمامه) متشكر .. سـيب لى بقى البوستة دى دلوقت ، وكمان شوية اتفضل خدها ..

فهمي ـ (فى ارتباك) ممكن .. بعد شوية .. تسـمح لى سيادتك .. أستأذن مشوار صغير ؟ ...

طلعت ـ (وهو يرفع رأسه وينظر اليه) عندك ايه ؟ ..
(ويلاحظ عليه الوجوم) الله .. فيه ايه ؟ مالك ..

فهمي ـ ولا حاجة .. بس الست تعبانة شوية ...

طلعت ـ خير ؟ .. عندها ايه ؟؟

فهمي ـ والله يا سيدى ولا حاجة .. كانت عال والأشـيا معدن .. قال ايه ؟ تخينة شوية فـلازم تخس .. عملت رجيم .. وخد عندك .. فقد دم وأنيميا .. وهبـوط فى القلب .. وتضخم فى الكبد .. والكلية الشـمال مابتفرزش .. واليمين معصلجة .. وحكاية .. وهات يادكاترة .. وهات يأدوية .. وهات يافلوس .. وعدوك .. لما الواحد اتخرب بيته .

الموظفة ـ لازم حضرتك اللى مش عايزها تخينة ..

فهمي ـ والله ياستى .. ان كان عـلى .. أنا عايزها تتخن كمان شوية .. لكن ازاى بقى تخرج .. وتطلع .. وتمشى فى الشارع .. ويقولوا عليها تخينة ؟ ..

الموظفة ـ وهو التخن عيب ؟

فهمي ـ الموضة .. الموضة .. قال ايه ، الموضة السنة دى .. لازم الست تكون سمبتيك ..

(لطلعت) تصور الموضة كمان فى التخن .. وفى الرفع .. ناقص بكره كمان تبقى فى الطول وفى القصر ..

الموظفة ـ والله ماتأخذنيش .. برضه حضرتك اللى غلطـان .. لأنك لو قلت لها ماتعمليش رجيم . يعنى ماتعمليش رجيم .. ماكانتش عملت ..

فهمي ـ ألا أقول لها دى كمان ؟ .. قول لها انت ياطلعت بيه ..

طلعت ـ والله ياسيدى الرجيم أهون الف مرة من قلة غسيل الوش ..

فهمي ـ إيه قلة غسيل الوش دى كمان ؟ ‎٠‎٠ موضة رخرة ؟
طلعت ـ (وهـــو يلقى بالقلم الـذى كان فى يده ويشعل السيجارة) على فكرة ناخد رأى الست زكية فى الموضوع ده ‎٠‎ ‎٠‎٠ وطبعا هى أدرى بالحاجات ده منا ‎٠‎٠
الموظفة ـ أفندم ‎٠‎٠

طلعت ـ الموضة السنة دى ‎٠‎٠ الست التخينة ولا الرفيعة ؟
الموظفة ـ أفتكر ياأفندم دا كلام فارغ ‎٠‎٠ وما فيش موضـة بالشكل ده ‎٠‎٠ وأى حاجة خلقة ربنا ‎٠‎ فيه التخينة ‎٠‎٠ وفيـه الرفيعة ‎٠‎٠ وفيه الطويلة ‎٠‎٠ وفى القصيرة ‎٠‎
فهمي ـ أمال ايه حكاية الرجيم دا اللى ودانا فى داهية ‎٠‎ ؟
الموظفة ـ والست منا زى ما يوجهها جوزها ، ولازم تسمع كلامه ‎٠‎٠

فهمي ـ وان ما سمعتش ؟ ‎٠‎٠
الموظفة ـ ما يسمعش هو كمان كلامها ‎٠‎٠
فهمي ـ يعنى ايه ؟؟
الموظفة ـ يعنى ان عملت حاجة تدايقك ‎٠‎٠ انت ح تعمـل حاجة تدايقها ‎٠‎٠
فهمي ـ يعنى عملت هى رجيم ‎٠‎٠ أعمل انا كمان رجيم ؟

(الموظفة ومعها طلعت يضحكان)
فهمي ـ (فى ضيق وتحسر) والله ياريت أعمل زى ما بتقولى ‎٠‎٠ وأعمل أنـا كمان رجيم يدخلنى القبر ، عشـــان أرتاح من البلاوى اللى أنا فيها دى ‎٠‎٠ قال موضة قال ‎٠‎٠
الموظفة ـ اللى أعرفه أن الموضة بس فى الهدوم ‎٠‎٠ فى الشعر ‎٠‎٠ فى التواليت ‎٠‎٠

فهمي ـ (حانقا) ويعنى لازم التواليت ، والفرنجة ، والكوافير ‎٠‎٠ والشعر ؟ ‎٠‎٠ اللى مرة كحكات كحكات ‎٠‎٠ زى كحك العيد ‎٠‎٠ ومرة مواسير مواسير ‎٠‎٠ زى مواسير الكوارع ‎٠‎٠ ومـــرة ‎٠‎٠ قال ايه فرح ديبا ‎٠‎٠ ومرة كليوباترة ‎٠‎٠ مرة ومـــرة ‎٠‎٠ شاطرين بس نقلد ؟ نقلد الناس ؟ حتى الأمـــوات ؟ ‎٠‎٠ طب ما نقلد نفسنا أحسن ماتقلد الناس ‎٠‎٠
الموظفة ـ بس ماتنساش ان الزينة ‎٠‎٠ والتواليت دى حاجات لازمة للست ‎٠‎٠

فهمي ــ (ســـاخرا في غيـــظ) والحكما •• والأدويا •• والاجزاخانات •• وفواتير شملا •• وشيكوريل •• وصيدناوى •• دى حاجات لازمة للرجالة ؟ مش كده •• !؟
الموظفة ــ (مبتسمة) طبعا ••
طلعت ــ (للموظفة) أمال ليه انت مابتحطيش تواليت ؟؟
الموظفة ــ مين قال كده ؟

طلعت ــ انت بقى لك هنا في المكتب حوالى تلات سنين •• عمرى ماشفتك مرة حاطة روج ••
الموظفة ــ أنا باحط روج •• بس لما باكون في البيت ••
طلعت ــ (في دهشة) بس في البيت !؟

فهمي ــ في البيت بس !!
الموظفة ــ طبعا •• لأن المفروض الست تكـــون جميلة في بيتها •• مش في الشارع •• واللى لازم يشوفها جميلة دايمـــا •• هو جوزها •• مش حد غريب ••
فهمي ــ (متوسلا) تجيش تتجوزيني تعملى معروف ••

طلعت ــ (مازال في دهشته) أنا كنت فاكر في المكتب بس ••

الموظفة ــ في المكتب •• وفي الشارع •• وفي السينما •• لكن في البيت •• صدقني اذا قلت لحضرتك أن لى دلوقت تمن سنين مع جوزى عمره ماشافني مرة واحدة من غير تواليت ••
طلعت ــ لكن لما تخرجى ؟

الموظفة ــ (مقاطعة) زى ما أنا كده •• لأن اللى خارج بيتى •• لا يهمونى في شيء ولا أنا أهمهم في شيء ••
طلعت ــ دا جوزك لازم يكون سعيد جدا ••
الموظفة ــ وأنا كمان الحمد لله سعيدة جدا ••
طلعت ــ طيب أفرضى •• انك عملت حاجة تزعله ••
الموظفة ــ ما أقدرش •• لأنه هو كمان ح يعمل حاجة تزعلنى
طلعت ــ يعنى ايه ؟

الموظفة ــ يعنى افرض انى خرجت ورحت السينما ، وسهرت •• هو تانى يوم ح يخرج ويروح السينما ويسهر ••
طلعت ــ طب افرضى حاجة نفسك فيها •• وعاوزة تاكليها • بصارة مثلا •• وهو مابيحبهاش ••

الموظفة ـ ما آكلهاش ..
طلعت ـ تحرمى نفسك منها ؟

الموظفة ـ ماهو كونى أحرم نفسى منها .. أحسن من انـــه تانى يوم يجيب هو حاجة أنا ماباحبهاش .. فسيخ مثـلا .. وياكله ويزفرلى البيت .. وأقعد تلات تيـــام قرفانة وعنـدى مغص ..

طلعت ـ (فى تحسر) سامع يا أستاذ فهمى ؟ ..
فهمى ـ يا عم دى أبخات .. تلاته بالله العظيم لو مثــــلا اجوزت الست زكيةالصبح .. لا يتلحس دا كله .. قلت لك أبخات .. أبخات .. وأنا بختى مهبب .. (ينظر فى ساعته) عن اذنك يا أفندم .. الست .. متأسف .. المدام .. عنـدها كونسلتو الساعة ١١ ..

المشــــهد الثالث

نفس المشهد الأول

يرى طلعت داخـلا الصــالون وفي يده بعض الصحف ، يضعها على الطاولة ، ويدق الجرس فتدخل الخادمة ..



الخادمة ـ أفندم ..
طلعت ـ فين ستك ؟
الخادمة ـ لسه ماجاتش من بره ..
طلعت ـ لغاية دلوقت ؟؟!
الخادمة ـ اتكلمت من شوية .. وقالت .. انها لسة عنـــد الكوافير ..
طلعت ـ يعني حتيجي على الغدا .. والا لأ ؟ ..
الخادمة ـ ماقالتش ..

طلعت ـ (فى ضيق وهو يخرج) حضرى الغدا ..
الخادمة ـ حاضر ...

(يخرج طلعت بينما الخادمة تعد المائدة وترفع الغطاءالقطيفة من عليها ، وتعد الاطباق وتخرج ، وتعود ثانية ومعهـا بعض أطباق الطعام ، فى حين يدخل طلعت مرتديا بيجاما وروبا أنيقا للغاية ، ويتجه الى المائدة ، ويجلس ويبدأ فى تناول الطعـام ، فى حين يسمع رنين الجرس الخارجي ، فلا يهتم ، ويواصـل تناول طعامه ، فى حين تدخل درية من الخارج وهى فى غـاية الأناقة ، وتقف أمام المائدة) ..

درية ـ بونجور طلعت ..
طلعت ـ (معجبا بجمالها) اش .. اش .. ايه الجمـال دا كله ؟ ؟

درية ـ (وهى واقفة تتناول شوكة وتأكل) جيت امتى ؟؟
طلعت ـ ما تقعدى ...
درية ـ (وهى تأكل سريعا) مستعجلة ..
طلعت ـ (فى دهشة) ايه ؟ .. خارجة تانى ؟!
درية ـ اسمع .. انت أهلى ولا زمالكى ؟
طلعت ـ (ساخرا) والله الحقيقة .. أنا مش عارف أنا ايه .
درية ـ أصلك مش رياضى ..
طلعت ـ طب ارتاحى .. دقيقة .. كلى لك لقمة ..

(يسمع صوت بوق سيارة من الخارج) ..
درية ـ (وهى تبتلع وتخرج سريعا) عن اذنك .. الماتش زمانه بدأ .. والهام مستنيانى بره بعربيتها .. (تخرج) ..
(طلعت يواصل طعامه فى ضيق ، ثم ينتهى منه ، ويمسـح يده بالفوطة وهو ينهض ويلقيها بعنف فوق المائدة ، ثم يتجـه الى الصالون ويجلس على أحد المقاعد متنهدا ، ثم يمد قدميه الى الأمام ، ويرجع بظهره الى الخلف ، ويغمض عينيه لحظات ، فى حين يدق جرس التليفون ، الموضوع على طاولة بالقرب من مدخل المائدة . يفتح عينيه وينهض متخـاذلا ، ويذهب الى التليفون ، ويرفع السماعة .. ويتحدث ..)
طلعت ـ آلو .. أفندم .. فستان ايه ؟ .. حضرتك مين ؟ .. أيوه .. أيوه .. نعم يامـدام رنيه .. لا ، الســت مش

موجودة .. راحت السبق .. متأسف راحت الماتش .. الماتش .. أرفوار ..

(يعود ثانية الى المقعد ويجلس متخاذلا ، ويتناول احـــدى الصحف ويطالع فى ضيق ، ثم يلقى بها ويتناول صحيفة أخرى .. فى حين تدخل الخادمة ، حاملة صينية القهوة ، تضــــعها أمامه ، وتحاول الانصراف) ..

طلعت ـ (للخادمة وهى تخرج) افتحى الراديو ..

الخادمة ـ حاضر .. (تخرج) ..

(طلعت يتناول فنجان القهوة وفجأة يسمع صوت المذيع فى الراديو يصف المباراة فى لهجة تقليدية سريعة) ..

المذيع ـ الكورة مع عصام .. أيوه يا عصام .. خدها منـه رفعت الفناجيلى .. أيوه يارفعت .. أيوه يارفعت .. دخـــل عليه رأفت .. جرى بيها .. أيوه يا رفعت .. شوط يا رفعت .. يا خسارة أوت..

« طلعت يضع فنجان القهوة على الطاولة ويدق الجـرس فى ضيق ، فتدخل الخادمة سريعا »

طلعت ـ « فى غضب شديد للخادمة » اقفلى الزفت ده ..

الخادمة ـ (وهى ترتد خارجة سريعا) حاضر ...

صوت المذيع ـ أيوه يا عصام .. جدع يا عصام .. برافو يا .. (يصمت الراديو) ..

(طلعت يتناول فنجان القهوة ثانيـــة ويشربه ، ويطفىء السيجارة التى كانت فى يده ، ويمدد قدميــه ثانيـة الى الأمام ويعود بظهره الى الخلف ، ويغمض عينيه ، وشيئا فشيئا يتعالى زفيره وشهيقه وهو نائم) ..

المشـــهد الرابع

(غرفة نوم طلعت ودرية ، وهي غرفة أنيقــة للغاية ، ويرى السرير فسيحا جدا ، والوقت ليلا ، ونرى درية مستغرقة في نوم عميق ، وقـــد لفت نفسها في ملاءة بيضاء لفا محكما بحيث لا يبـــدو شيء ظاهرا من أطرافها ، ونرى أباجورة صـــغيرة بجانب السرير ، ترسل ضوءا شاحبا جدا ٠٠في حين يفتح الباب ويدخـل طلعت وعليـــه شيء من الابتهاج ، ويحمل في يده بعض علب الحلـــوى يضعها على الشيفونيرة ، يصفر مبتهجا بصـــوت واطيء ، ثم يتجه الى زر الكهرباء الكبير ويشـــعله فيضيء الغرفة ، ويبدأ في نزع ثيابه ، وهو يصفر مبتهجا ، وينـــادي من حـــين الى آخر عـلى درية النائمة ٠٠٠) ٠٠

طلعت ـ درية ·· درية ·· (يصفر) ياست درية ··
درية ـ (وهى تتقلب في ضيق) جرى ايه ؟؟
طلعت ـ (وهو ينزع ثيابه) بونسوار ···
درية ـ (وهى تحكم الغطاء على رأسها) عايزه أنام ···
طلعت ـ (وهو يضع الجاكتة والقميص على الشماعة) لا ·· لا ·· قومى ·· انت مش نفسك فى لقمة القاضى ·· واتخانقت مع الطباخ اللى ماعملهاش وانت نفسك فيها ؟
درية ـ (لا تجيب)
طلعت ـ (يرتدى البيجاما ، ويمد يده الى قدميها من تحت الغطاء مداعبا) قومى أمال ··
درية ـ قلت لك عايزة أنام ··
طلعت ـ الساعة لسة عشرة ··
درية ـ (لا تجيب) ··
طلعت ـ (وهو يزرر البيجاما) مـــين غلب ؟ الزمالك والا الأهــلى ؟
درية ـ (وهى تتقلب فى ضيق) ماعرفش ··

(طلعت يمد يده مرة أخرى ويداعبها من قدميها ·· فتنهض مذعورة وتكشف الغطاء من على وجهها ، فيبدو وجهها ملطخـــا بمعجون الكريم ، مما يجعل وجهها بشعا مخيفا للغاية ، وكذلك منظر شعرها المربط فى عديد من الدبابيس ، مما يجعل طلعت يخاف ، ويرتد الى الخلف فى رعب شديد جدا) ··

طلعت ـ بسم الله الرحمن الرحيم ·· ايه ده ؟!
(درية لا تجيب وتتحسس وجهها)
طلعت ـ ايه اللى انت عاملاه فى نفسك ده ؟!!
درية ـ (ببساطة) داهنة كريم ··
طلعت ـ واللى تدهن كريم ·· تلطخ وشها كده ·· ؟!
درية ـ الكريم ده كده ·· لازم أتقل منه ··
طلعت ـ تقومى تلطخى وشك كده ·· ؟!
درية ـ (فى غضب) يا أخى أنا حرة · هو وشى ولا شك ؟!
طلعت ـ شوفى شكلك عامل ازاى ·· ولا شكل البومة ··
درية ـ (تعود الى النوم) بومة ·· بعبع ·· قرد ·· عفريت ·· ماحدش له دعوة ··

طلعت : (في ألم شديد وهو يبتعد) لك حق ..
(طلعت يتجه الى باب الغرفة ويغلقه في ضيق ، ثم يتجه الى النور ويطفئه ، بحيث يبقى فقط نور الاباجورة الشـــاحب ، ويتجه الى ناحية السرير ، ويقف أمامه)
طلعت : تسمحي لي أنام ؟ ..
درية : (في ضيق وهي تبتعد) جرى ايه يا طلعت ؟ ... ماهو السرير واسع أهو ..
(طلعت متنهدا ، يدخل الفراش ويســحب الغطاء عليـــه وينام) ..

درية : أطفى الاباجورة ..
طلعت : (وهو يكتم غيظه) حاضر ..
(ثم يمد يده الى الاباجورة ويطفئها ، وماهي الا لحظـــات حتى يهب طلعت صارخا في الظلام صرخة مفزعة) آى ..

درية : (وهي تهب صائحة) بسم الله الرحمن الرحيم .. مالك !؟ ..
طلعت : (وهو يشعل الاباجورة يتأوه ماسكا كتفه) آى .. آى ..
درية : جرى ايه ؟ .. مالك ؟ .. مال كتفك .. !؟

طلعت : آى .. الحقى .. الحقى ..
درية : (تمد يدها الى كتفه)

طلعت : (صارخا) حاسبى .. حاسبى ..
درية : ياشيخ خضتني .. دا مشبك من مشابك شعرى ..
طلعت : (في ألم) مشابك شعر ايه .. وهبــاب ايه ؟ .. دى ولا مشابك غسيل .. لزومها ايه البلاوى دى ؟ ..
درية : أصلي رافعة شعرى ..

طلعت : (وهو يتألم) ماأنا عارف انك مهببة شعرك رافعاه .. أمال رافعة شعرى أنا .. !
درية : خلاص بقى نام ..

طلعت : فين الزفت .. قزازة الكولونيا .. ؟
(درية تنهض وتناوله زجاجة الكولونيا فيبدو وجهها أكثر بشاعة) ..

درية : وج ترزفتها ليه بس ؟ (تدهن كتفه كولونيا ثم تعيد الزجاجة وتصعد الى السرير) .. خلاص بقى .. نام ...

طلعت ـ (وهو ينام ويسحب الغطاء عليه) حاضر ..
درية ـ (وهي تشد أيضا الغطاء عليها) اطفى الأباجورة بقى
طلعت ـ (وهو يمد يده الى الأباجورة) حاضر ..

(يعم الظلام ويسمع صوت طلعت) ..
طلعت ـ آى ..
درية ـ ايه تانى ؟
طلعت ـ ولا حاجة .. ولاحاجة ..

درية ـ (فى غضب) طب ما تنام بقى .. وتخلصنا ..
طلعت ـ حاضر ..

المشـــــهد الخامس

(نفس المشهد الأول ، غرفة المائدة ونرى درية جالسة تتنـاول طعام الافطـار فى ملابس منزلية أنيقة ، بيجاما ، وروب دى شامبر ، وقد عقصت شعرهاولفته فى عمامة بيضاء ·· وحين هى تتناول الطعام ، يدخل طلعت ، ويبدو مشـوشا جـدا ، بيجاما غير نظيفة ، مفككة الأزرار ، وطويل الذقن · مشوشا بشكل يلفت النظر) ··



طلعت ـ (فى حركة تمثيلية) صباح الخير ··

درية ـ (وهى تنظر الى منظره فى دهشة كبيرة) بسم الله الرحمن الرحيم ·· مالك ؟ ·· عامل فى نفسك كده ليه ؟؟ ··

طلعت ـ (متجاهلا) ايه ؟ ·· فيه ايه ؟؟

درية ـ صدرك مفتوح ·· وبيجامتك وسخة ·· وشعرك منكوش ·· ودقنك طويلة ··

طلعت ـ (ببساطة) أصلى مش خارج النهاردة ..
درية ـ (فى دهشة أكثر) واليوم اللى تقعد فيه فى البيت وما تخرجش .. تقعد مبهدل كده .. ؟؟
طلعت ـ ما هو ما فيش حد غريب ..

درية ـ (فى ضيق) يعنى ايه ما فيش حد غريب ؟؟
طلعت ـ (وهو يحاول أن يمد يده الى الطعام) يعنى انت مراتى .. وانا جوزك .. مش مهم .. دقنى طويلة .. عينية معمصة .. من غير غسيل وش .. مافيش تدقيق .. الكلام دا لو فيه حد غريب ..

درية ـ ومش مفروض ان مراتك تشوفك كويس ؟؟
(تدخل الخادمة ، تحمل صينية الشاى ، تضعها أمام طلعت وتهم بالانصراف)
طلعت ـ (وهو يستوقف الخادمة) أنا عايز بيض مقلى .. وبرشت ومسلوق سوى زيادة ..
درية ـ (فى دهشة) ايه اللى مقلى . وبرشت ومسلوق سوى زيادة ؟؟

طلعت ـ أيوه ..
درية ـ منين برشت .. ومنين مسلوق سوى زيادة ؟؟
طلعت ـ (ممتلا بيديه وهو يتحدث) يعنى بيض برشت لوحده .. ومسلوق سوى زيادة لوحده .. اظن مفهوم ..
درية ـ طيب ما ياده .. ياده ..
طلعت ـ مزاج .. مزاج ..
(درية تهز راسها)
(الخادمة تخرج)
درية ـ طيب قوم احلق دقنك .. واغسل وشك قبل مايجى لك البيض ..
طلعت ـ (وهو يشرب الشاى) قلت لك مش خارج .. مش خارج ..
درية ـ طيب قوم شوف وشك فى المراية ..
طلعت ـ عاجبنى ..
درية ـ لكن مش عاجبنى أنا ..
طلعت ـ ياستى انت ح تفطرى وتخرجى .. مالك ومالى ؟ .

درية ــ مش خارجة النهاردة ..
طلعت ــ يبقى كده كويس ..
درية ــ يعني ايه بقى يبقى كده كويس ؟؟
طلعت ــ انت ح تفتي فيه ؟؟ أنا كده عاجب نفسى .
درية ــ لكن لازم تعجبني أنا كمان ..
طلعت ــ ما قلت لك ما احناش غرب عن بعض .
درية ــ هو احنا ما نبقاش نضاف .. وكويسين الا قـــدام الغرب بس ؟؟
طلعت ــ طبعا ..
درية ــ يعنى لو قمت خرجت دلوقت .. ح تحلق دقنك و..
طلعت ــ (مقاطعا) طبعا .. وأخد دش وابقى شيك ..
درية ــ اشمعنى بقى لما تخرج ؟؟
طلعت ــ عشان الناس يشوفوني شيك .. يقـــولوا عليك انك مجوزة واحد شيك ..
درية ــ واذا كان الشيك دا اللى بيقولوا عليه الناس ، قاعدلى بيته بالشكل ده ؟؟
طلعت ــ أقول لك طور تقولى لى أحلبه ؟ .. ياستى قلت لك احنا مش غرب عن بعض ..
درية ــ (ثائرة) هو أنا متجوزاك انت . ولا متجوزة الغرب ؟

(تدخل الخادمة تحمل طبق البيض المقلى ، وتضعه أمام طلعت وتحاول الانصراف)

درية ــ (للخادمة) هاتي شوكة ..
الخادمة ــ (وهى تخرج سريعا) حاضر
طلعت ــ (وهو ياكل بيده) كده كويس ..
درية ــ (في دهشة بالغة) ح تاكل بايدك ؟؟
طلعت ــ الواحد أصله فى البيت .. فى البيت ..
درية ــ (تمسح شفايفها بالفوطة وتلقى بها على المائدة فى غضب) حاجة تقرف ..

(تدخل الخادمة ، وتضع الشوكة أمام طلعت وتقول)
الخادمة ــ الطباخ بيقول الغدا ايه النهارده ؟؟
طلعت ــ (سريعا جدا وهو يبلع) شوربة كوارع بالمواسير..

درية ـ (ثائرة) أنا ماطقش أشوف الكوارع ٠٠ دي لاتدخل البيت ولا أشم ريحتها ٠٠
طلعت ـ نفسي فيها ٠٠ نفسي فيها ٠٠٠
(مخاطبا الخادمة) ـ والمواسير بتيللو ٠٠ مش ضاني ٠٠ الضاني دي صغيرة ٠٠ مافيش في قلبها حاجة ٠٠ أنا عايزها مواسير كبيرة ٠٠٠ عجالي ٠٠ عجالي ٠٠
الخادمة ـ (وهي تخرج) حاضر ٠٠٠
درية ـ أنا قلت الكوارع ماطقش ريحتها في البيت ٠٠
طلعت ـ قلت لك نفسي فيها ٠٠٠
درية ـ كلها بره ٠٠٠
طلعت ـ مالكيش حق الواحد لما مايكلش في بيته اللي نفسه فيه ٠٠ ياكله فين ؟؟
درية ـ (ثائرة وحانقة) قلت مابحبهاش ٠٠ مباحبهاش ٠٠
طلعت ـ بلاش تاكلي منها ٠٠٠
درية ـ ماباطقش ريحتها ٠٠ ماباطقش ريحتها ٠٠
طلعت ـ (ببساطة) اتعودي عليها ٠٠ اتعودى عليها ٠٠
درية ـ (ثائرة) انت بتعاندني والا ايه ؟ ٠٠ طب أنا مش حاتغدى في البيت النهارده ٠٠٠
طلعت ـ (متخابثا) وانت تعرفي أنا تجيني نفس من غيرك ؟؟
درية ـ وكل يوم حاتغدى بره ٠٠٠
طلعت ـ لأ ٠٠ اليوم اللى فيه كوارع بس ٠٠
درية ـ يعني مصر ؟؟
طلعت ـ طبعا ٠٠
درية ـ (وهي تنهض سريعا في غضب وتخرج) طيب ٠٠٠
(طلعت ينظر اليها في ابتهاج وهي تخرج ، ويمد يده الى الفوطه ويمسح بها شفتيه ، وينهض واقفا ، في حين تدخل الخادمة بالبيض)
الخادمة ـ دا البيض اللى برشت ٠٠ ودا المسلوق سوى زيادة ٠٠
طلعت ـ (وهو يتركها ويتجه الى الصالون) خلاص أنا شبعت ٠٠ جيبي القهوة ٠٠
الخادمة ـ (وهي تخرج في دهشة) جاهزة
(طلعت يتجه الى الصالون ويقف لحظات ثم يتناول راديو

صغيرا ترانزستور من على ترابيزة ويديره ، وتسمع أصـوات المخطات ، الى أن يسمع فى احـدى المحطات صـوت احـدى المذيعات)

المذيعة ــ ودلوقت بقى أقول لك تتغدوا ايه النهارده ..

طلعت ــ (وهو يغلق الراديو سريعا ويعيده الى مكانه) كوارع .. كوارع ..

(يتجه الى مقعد مستطيل ويجلس ممددا ، ويمسك باحـدى المجلات ، في حين تدخل الخادمة ، وتضع أمامه القهوة وتخرج، ويبدأ هو في شرب القهوة ، وهو يقرأ في المجلة في حين تدخل الخادمة ثانية ، وهي تحمل شبشبا تضعه في قدميه ، دون أن يشعر ، ولما يحس بها يخاطبها)

طلعت ــ ايه ده ؟؟

الخادمة ــ ستى قالت لى أجيب لحضرتك الشبشب ده ...

طلعت ــ ودا ماله ؟؟

الخادمة ــ مقطع ..

طلعت ــ قولى لها أنا أحب المقطع ؟ ..

(الخادمة تحاول الخروج بالشبشب فى يدها)

طلعت ــ (يستوقفها ويخاطبها) اسمعى

الخادمة ــ أفندم ..

طلعت ــ زى ماقلت لك .. فهمى الأسطى أحمد .. الكوارع بالمواسير .. المواسير البتلو .. العجالى .. مش الضانى ..

الخادمة ــ قلت له ياسيدى .. (تخرج)

(طلعت يشعل سيجارة ، فى حين يدق جـرس التليفـون فيتناول السماعة ويتحدث)

طلعت ــ آلو .. أفندم .. سعاد هانم مين يافنـدم ؟ .. حضرتك عايزة مين ؟ .. حاضر .. حاضر .. لحظة واحدة ..

(يضع السماعة على الطاولة بجانب التليفون ، ويدق الجرس فتدخل الخادمة)

الخادمة ــ أفندم ..

طلعت ــ دخلى التليفون لستك جوه ..

الخادمة ــ ستى خرجت ..

طلعت (فى دهشة) خرجت ؟؟

الخادمة ــ أيوه ..

طلعت ــ (يتناول السماعة ويتحدث) آلو .. والله يافندم

متأسف ، الست خرجت •• ما أعرفش راحت فين •• أنا • •
أنا الخدام •• برضه ما أعرفش ح ترجع امتى•• العفوياافندم••
(يضع السماعة وينهض واقفا ويحاول الخروج ، ولكنه يقف عند الباب ويخاطب الخادمة)
طلعت ـ اسمعى ••
الخادمة ـ أفندم ••
طلعت ـ زى مافهمتك •• الغدا بس شوربة كوارع ••
الخادمة ـ بالمواسير ••
طلعت ـ العجالى •• وأنا حاتغدى بره النهارده ••
الخادمة ـ (فى دهشة) والكوارع ؟؟
طلعت ـ (شاخطا) مش شغلك ••
الخادمة ـ (فى خوف) حاضر ••
طلعت ـ ولما تيجى ستك •• خليها تتغدى هي ••
الخادمة ـ ستي مابتحبش الكوارع ••
طلعت ـ (شاخطا مرة أخرى) قلت لك مش شغلك ••
الخادمة ـ حاضر ••
طلعت ـ وفهميهابالليل •• ماتنتظرنيش على العشا ، يمكن أتاخر لأنى حأروح سينما ••
الخادمة ـ حاضر ••
(يدق جرس التليفون)
طلعت ـ (للخادمة) شوفى مين ••
الخادمة ـ (تسرع الى التليفون وترفع السماعة وتتحدث)آلو •• أفندم ستى ••
طلعت ـ (سريعا يهمس للخادمة) فهميها انى أنا خرجت ••
الخادمة ـ أيوه ياستى •• تكلمى سيدى ؟ •• سيدى خرج •• لسه خارج دلوقت •• وبيقول انه حيتغدى بره •• أفندم •• الكوارع ؟ ••
طلعت ـ (هامسا بسرعة) ح تتصل •• ح تتصل ••
الخادمة ـ لا ياستى •• نبه علينا لازم نعملها ضرورى • • أفندم •• حضرتك كمان حتتغدى بره ؟ •• لأ ، ماقاليش حيرجع امتى •• لكن فهمنى أقول لحضرتك ماتنتظرهوش على العشا•• لأنه ح يروح سينما •• لأ والله ياستى ماعرفش انهى سينما••
(الخادمة تضع السماعة ، وتنظر الى طلعت الذى يتركها ويخرج)

المشهد السادس

(نفس المشـــهد ، غرفـة نوم طلعت ودرية ، الوقت ليلا ،ويرى طلعت في الفراش نائما ،ومغطى بالملاءة البيضاء غطاء محكما ، بحيث لايبدو شيء من أطرافه ، في حين يفتـح الباب وتدخـل درية تحمل في يدها شيئا ملفوفا في ورقة ، ولما ترى طلعت نائما ، يظهر عليها الابتهاج ، تقف لحظة تنظر الى طلعت مبتهجــة ، ثم تضع مافي يدها عـلى الشيفونيرة وتبدأ في نزع ثيابها ، وهى تنادى على طلعت)

***

درية ـ طلعت .. طلعت ..

(طلعت لايجيب)

درية ـ (في ابتهاج وهى تداعبه من قدمه) كنت بتقول رايح سينما يعنى ..

طلعت ـ (يتقلب فى الفراش ولا يجيب)
درية ـ (بصوت عال) طلعت ..
طلعت ـ (وهو يتقلب فى ضيق) وبعدين ؟؟
درية ـ ايه الوخم ده ؟ .. داحنا لسه الساعة تسعه ..
طلعت ـ كابس على النوم ..
درية ـ مش قلت انك رايح سينما ؟
طلعت ـ (وهو يتقلب متناوما) ماعجبنيش الفلم ..
درية ـ (وهى ترتدى الروب) فلم ايه ؟؟
طلعت ـ (لايجيب)
درية ـ (وهى تقترب من قدميه) بقولك فلم ايه ؟ ..
طلعت ـ (فى ضيق وهو يتقلب) ماعرفش .. ماأعرفش..
درية ـ طب قوم أقعد ..
طلعت ـ لأ .. عايز أنام ..
درية ـ جبت لك حاجة حلوة ...
طلعت ـ قلت لك عايز أنام ..
درية ـ (ملاطفة) حاجة انت بتحبها ..
طلعت ـ ميرسيه .. كليها انت ..
(درية تقترب من نهاية السرير مداعبة ، وتقرصه فى قدمه فينهض مذعورا ، ويكشف عن وجهه ، فاذا بوجهه كله ملطخ بدهان أسود بحيث يبدو منظره بشعا للغاية)
درية ـ (وهى ترتد مذعورة فى خوف شديد)
بسم الله الرحمن الرحيم .. ايه اللى انت عامله فى وشك ده!!
طلعت ـ ايه ؟؟
درية ـ (صارخة) بقولك ايه اللى انت ملطخ بيه وشك ده ؟؟
طلعت ـ (ببرود) آكتيول ..
درية ـ ايه ؟؟
طلعت ـ أكتيول ..
درية ـ ليه ؟؟
طلعت ـ بعد ماحلقت لقيت فى وشى حرارة ..
درية ـ حرارة ؟؟
طلعت ـ أيوه ..
درية ـ (فى ضيق شديد) وهبابة حرارة .. تقوم تلغمط وشك كده .. ؟؟

طلعت ـ قلت لك حرارة ..
درية ـ بص للمرايه .. وشوف شكلك كده ..
طلعت ـ (وهو يحاول العـــودة الى النـوم) كويس .. كويس ..
درية ـ ايه هو اللى كويس ؟؟
طلعت ـ قلت لك حرارة .. ولازم الواحد يبقى وشه كويس .. ويحافظ عليه عشان البشرة تبقى ناعمة .. (يحاول النوم) عن اذنك .. (ينام)
درية ـ (في غيظ شديد تطفىء النور وتقترب مـن السرير لتنام) طب تسمح تتأخر شويه عشان أتلقع أنام ..
طلعت ـ (بأدب شديد وهو يفسح لها مكانا) اتفضلى .. اتفضلى ..

(درية تدخل الفراش وتشد الغطاء عليها وتنام ، ولكنها تعود ثانية وتهب جالسة في ضيق شديد)
درية ـ أنا مش طايقه ريحة الزفت الاكتيول ده ..
طلعت ـ (ببساطة) أمال أنا أعمل ايه ؟
درية ـ وخد جبرك يا أخى ؟
طلعت ـ الحرارة ..
درية ـ حرارة ايه ونيلة ايه .. ما أنا ســـايباك الصـــبح كويس ..
طلعت ـ (وهو يمد يده ناحية الشيفونيرة) فين الحاجة الحلوة؟
درية ـ (في غيظ شديد وهى تنام وتشـــد الغطاء عليها) ماعرفش ..
(ينخفض النور ويتلاشى المشهد)

المشهد السابع

(نفس المشهد الاول ، غرفة المائدة صباحا ، وترى درية جالسة بالروب تتناول طعام الافطار . ويبدو عليها الضيق ، فى حين تدخل الخادمه تحمل على يديها سلطانية وتضعها على المائدة ، وتحاول الانصراف)

***

درية ـ (فى ضيق وهى تنظر الى السلطانية) ايه ده ؟؟
الخادمة ـ شوربة كوارع .. سيدى طلبها دلوقت
درية ـ (حانقة) شيلى القرف دا من قدامى قوام ..
طلعت ـ (داخلا ومتجها الى المائدة وهو بمنظره الذى كان به ليلا ، ويخاطب الخادمة) خليها .. خليها ..

درية ـ (للطباخ) شوف الكرنبيت استوى والا لأ ..
الطباخ ـ (بعد أن يكشف الغطاء) استوى ياست هانم ..

درية ـ ايه الجنان ده ؟ ·· حد ياخد شـوربة كوارع الصبح ··؟؟
طلعت ـ (وهو يجلس) نفسى فيها ··
درية ـ (صارخة) الصبح ؟؟
طلعت ـ (وهو يتناول الملعقة) ايه الفرق بين الصبح والظهر؟ ·· الشوربة هى الشوربة ·· والمعدة هى المعدة ··· (ببرود)
درية ـ (فى ثورة) انت بتعاندنى والا ايه ؟؟
طلعت ـ ياخبر ·· أنا أعاندك ؟؟
درية ـ أمال ايه ؟ ·· بالليل اكتيول ·· والصبح شوربة كوارع ·· وبالنهار فى البيت حافى ومن غير غسيل وش ··
طلعت ـ أولا ،الاكتيول عشان الحرارةزى مافهمتك ··ثانيا، شوربة الكوارع لأنى باحبها زى ماقلت لك ·· أما فى البيت حافى ومبهدل ومن غير غسيل وش ·· لأن مافيش حد غريب ··
درية ـ (فى ضيق وهى تلقى بالفوطة فى عنف على المائدة) مافيش حد غريب ·· مافيش حد غريب ·· هو أنا حأفت فى الغريب ·· والا أنا متجوزة الغرب دول اللى بتقول عليهم ؟ ··
طلعت ـ مش قصدي ·· قصدى يعنى ·· تقعدى معايا من غير غسيل وش ·· شعرك منكوش ·· لابسة فستان ··جلابية ·· قميص ·· أنا مش غريب ·· أنا كمان أبقى فى البيت حافى ·· دقنى طويلة ·· عينية معمصة ·· مافهاش حاجة أبدا ·· انت مش غريبة · دا قصدى ··
درية ـ لكن أنا بأقرف لما بأشوفك كده ··
طلعت ـ (فى خبث) أمال ليه أنا مابقرفش ··
درية ـ ما أعرفش ··
طلعت ـ طب افطرى ·· افطرى ··
درية ـ (وهى تنهض خارجة فى ثورة) لما تخلص حضرتك من شوربة الزفت الكوارع دى ··
طلعت ـ (فى ابتهاج لنفسه وهو يشرب) يبقى مش حأخلص أبدا · ·
(يظل يشرب حينا ، يدق الجرس فتدخل الخادمة)
الخادمة ـ أفندم ··
طلعت ـ قولى لستك تتفضل تكمل فطورها ·· قولى لها أنا فطرت خلاص ·

الخادمة ـ (وهى تحاول الانصراف) حاضر ..

طلعت ـ وقولى للطباخ أنا عايزالضهر كمان شوربة كوارع ..

الخادمة ـ تانى ..؟؟

طلعت ـ (شاخطا) أيوه .. أيوه .. (يخرج)

الخادمة ـ (فى خوف) حاضر ..

(الخادمة تقترب من المائدة ، وتحاول رفع سلطانيةالشوربة من على المائدة ، ولكن جرس التليفون يدق ، فتترك السلطانية وتذهب الى التليفون وترفع السماعة وتتحدث)

الخادمة ـ آلو .. أفندم .. ست شكرية ؟ .. صباح الخير ياستى ... لا أبدا! .. ستى صاحية من بدرى .. دقيقة واحدة .. أندها لحضرتك .. دقيقة واحدة ..

(تضع السماعة ، وتحاول الخروج فتقابلها درية داخلة)

درية ـ مين على التليفون ؟؟

الخادمة ـ ست شكرية ..

درية ـ (وهي تتجه للتليفون ، تقول للخادمه فيغضب)

شيلى الزفت السلطانية من على السفرة ..

(الخادمة تسرع الى السلطانية وتحملها وتخرج بها سريعا)

درية ـ (تذهب الى التليفون وتتحدث)

آلو .. صباح الخير ياشكرية .. ولا حاجة .. وحياتك أنا خلاص طهقت ياشكرية .. متنرفزة ايه ومهببة ايه ؟ .. دى حاجة بقت تجنن .. تصورى البيه بسلامته بيفطر الصبح ايه .. شوربة كوارع .. أيوه وحياتك .. وانت عارفة بقى أنا أطيق العمى وما أطقش أشوفها .. ياأختى انت كمان .. لا .. لا .. ياشكرية دا بقى حاجة فظيعة خالص ... تعرفى بالليل بعد ماخرجت من السينما معاك وروحت البيت ؟ .. والنبى تسكتى .. أصلك ماشفتيش منظره بالليل .. طلع على جتتى البلا .. وتقولى لى متنرفزة ليه ؟ .. قلت لك دى بقت حاجة تجنن .. وقال ايه الموضة الجديدة طول ماهو فى البيت حافى ودقنه طول كده .. وبيجاما مايلبسوهاش الخدامين .. وكل ما أكلمه يقولى انت مش غريبه .. لما طهقت خالص .. لا .. لا مش أقدر أخرج النهارده .. لا وحياتك ياشكرية .. أناراكبنى عصبى .. وحالتى زى الزفت .. طيب كلمينى بعدما ترجعى

... بس سعاد بتقولى دا تمنه غالى قوى .. على كل حال كلمينى لما ترجعى ..

(تضع السماعة ، وتتجه الى المائدة ، وتجلس وتفرغ فنجانا من الشاى ، فى حين يدخل طلعت وقد غسل وجهه وبدا أنيقا ويتناول علبة السجاير من على المائدة ، ويحاول الخروج ثانيةوهو يردد مغنيا) لأ مش أنا اللى أبكى ..

(درية تنظر له فى غيظ وهو ينصرف)

درية ـ (له وهو عند الباب) ايه .. عاجبك صوتك قوى ؟؟

طلعت ـ (وهو يعود اليها) تعرفى أنا لو طلعت مغنى ؟ .. كان عبد الوهاب دا الله يرحمه من زمان ...

درية ـ (دون أن تنظر اليه) طيب .. الحمد لله ..

طلعت ـ ياسلام لوتسمعى كلامى .. وماتبقاش دماغك ناشفه ... وتشربى شوربة الكوارع الصبح .. تفـوقك وتروقـك وتسلك زورك .. وتخلى صوتك فشر أم كلثوم ..

درية ـ (فى غيظ شديد) انت يعنى مـش عايزنى أفطـــر ولا ايه ؟؟

طلعت ـ (وهو يخرج سريعا) طيب . بس . بس . بس .. (يخرج)

(درية تواصل شرب الشاى ، فى حين يدق جرس التليفون ثانية ، فلا تلتفت اليه ، ويظل الجرس يدق فتدخل الخادمة)

درية ـ (للخدامة) اللى تسأل عنى قولى لها أنا خرجت ..

الخادمة ـ (وهى تتجه الى التليفون وترفع السماعة)

حاضر .. آلو .. مين يافندم ؟.. ست عليه ؟.. أهلا .. صباح الخير ياست علية .. لأ دى ستى خرجت من بدرى .. ما أعرفش والله ... أيوه يمكن تتكلم من بره .. نعم .. ان اتكلمت أقول لها تروح لحضرتك عند الكوافير ؟... حاضر .. مع السلامة ياستى ..

(تضع السماعة وتتجه الى درية وتخاطبها)

الخادمة ـ ستى عليه بتقول ...

درية ـ (مقاطعة فى غضب شديد) سمعت ..

(الخادمة فى خوف، وتخرج سريعا)

(درية تنتهى من شرب الشاى ، وتنهض خارجة ، وتتجه الى غرفة النوم ، وتفتح الباب وتدخل)

المشهد الثامن

(غرفة نوم طلعت ودرية • درية تفتح الباب وتدخل ، فترى طلعت وقد ارتدى ثياب الخـروج واقفا فى المرآة ينظر الى اناقته معجبا جدا)

***

درية ــ ايه دا كله ؟ •••
طلعت ــ (متخابثا) ايه ••• ؟

درية ــ معجب بنفسك والا ايه ؟؟
طلعت ــ طبعا •• طبعا •• ولازم الواحد دايما يبقى وجيه ••
درية ــ وفى البيت يبقى مبهدل ، مش كده ؟؟
طلعت ــ ماقلت لك •• عشان مافيش حد غريب ••
درية ــ أنا عايزة أعرف •• مين اللى يهمك •• أنا ولا اللى بره ؟
طلعت ــ اللى بره طبعا ••

درية ــ أيوه خليك صريح واتكلم ..
طلعت ــ ماتكلمت وقلت عشان لما يشوفونى وجيه .. وشياكه .. وكدا راجل اسمارت .. يقولوا عليك انك متجوزة واحد شيك بصحيح ..

(وهو ينظر الى الكرافته وينزعها من رقبته)
ايه رأيك ؟.. لون الكرافته دى مش مناسب للون البدلة؟..
درية ــ اسأل اللى انت بتتواجه عشانهم ..
طلعت ــ (وهو يتجه الى الدولاب ويتناول كرافته أخرى)
أيوه .. آهى دى أشيك فعلا ..
(يعود الى المرآة ويحاول لبس الكرافتة فى حين يسمع دق على الباب)

طلعت ــ (فى حركة تمثيلية) ادخل ..
(الخادمة تفتح الباب وتظهر عليه)
الخادمة ــ (توجه حديثها لدرية) سيدى طالب النهارده كمان على الغدا شوربة كوارع .. والاسطى أحمد بيقول الشوربةاللى هنا خلصت .... وعايز يخرج يروح السوق عشان يشترى كوارع ..

درية ــ (فى ضيق) كمان النهارده شوربة كوارع ؟
طلعت ــ أيوه .. أيوه .. (للخادمة) يخرج .. يخرج..
درية ــ (فى غيظ) انت قصدك ايه ؟؟
طلعت ــ (للخادمة) أيوه خليه يخرج ..
الخادمة ــ (وهى ترتعد) حاضر ..

درية ــ أنا ما أقدرش على العيشة دى .. انك تدور على كل حاجة تضايقنى وتعملها ..
طلعت ــ (جادا) هو كونى باكل حاجة نفسى فيها ، أبقى باضايقك ؟ (مغيرا مجرى الحديث) ايه رأيك فى الكرافتة دى على البدلة ؟ ..

دربة ـ (صارخة) أنا مش حتغدى هنا ‥ ومش النهارده بس ‥ كل يوم ‥

طلعت ـ مش دا المهم ‥ المهم أنك توصيه أنه يعمل الشوربه كويس ‥ (يخرج سريعا) ‥

(يخرج طلعت ، فى حين تنفجر باكيـة ، وترتمى فوق السرير ، وتجهش بالبكاء ، ثم تنهض ، وتجفف دموعها ، وتخرج ، وتسير ثم تفتح بابا وتدخل) ‥

المشـــهد التاسـع

(المطبخ ، وهو معد على أحدث طراز)

درية ـ (تدخل المطبخ فتجد الخادمة منهمكة فى أكل اصـبع من الموز وهى تغنى)

الخادمة ـ (مغنية) ح أقابله بكره ·· وبعد بكره ·· وبعد بعده ··

درية ـ راح السوق يجيب الكوارع ؟؟

الخادمة ـ (وهى تبتلع سريعا فى خوف) أيوه ··

درية ـ (وهى تنظر الى ملابسها والمريلة اقلعى المريلة دى ·

الخادمة ـ (فى دهشة) خير ياستى ··

درية ـ (بصوت عال) اقلعى المريلة دى قلت لك ··

(الخادمة تقلع المريلة) ··

(درية تتناولها منها وترتديها هى) ··

الخادمة ـ (فى دهشة) نهار أبيض ·· جرى ايه ياستى ؟ ·

درية ـ ولا حاجة ··

الخادمة ــ طب دى وسخة ٠٠ أجيب لحضرتك النضيفة ٠٠
درية ــ (وهى تناولها لها) طب بسرعة ٠٠
(الخادمة تخرج سريعا)

(درية تلتفت الى البوتاجاز والحلل التى عليه ، وترفع غطاء احداها فى حين تعود الخادمة ، وفى يدها مريلة نظيفة تناولهــا الى درية التى ترتديها) ٠٠
درية ــ فيه ايه على الغدا تانى ؟

الخادمة ــ غير الكوارع ؟
درية ــ أيوه غير الهبابة دى ٠٠
الخادمة ــ فيك كرنبيت ، وبيقــول مسقعة بدنجان ٠٠ ورز بالشعرية ٠٠
درية ــ وايه كمان ؟

الخادمة ــ وايه كمان ؟ ماعرفش ٠٠
درية ــ وفيه ايه حلو ؟
الخادمة ــ بيقول عيش سرايا ٠٠ والماظية ٠٠
درية ــ طب يالله شيلى الحلل دى ٠٠ وقشرى البدنجان ٠٠٠ وجيبى لى أنا أسلق الكرنبيت ٠٠

الخادمة ــ ليه ياستى ؟ ٠٠ حضرتك ح تطردى الطباخ ؟؟
درية ــ مش شغلك ٠٠

الخادمة ــ (فى خوف) حاضر ٠٠
(وتنهمك درية فى العمل بمعاونة الخادمة ، وتشــعل عيون البوتاجاز الأربع ، وتضع عليها بعض الأوعية ملآى بالمــاء ، وتبدأ فى قطع الكرنبيت ، والخادمة فى تقشير الباذنجان ، مما يجعل درية تتصبب عرقا ، فى حــين يسمع جــرس التليفون يدق) ٠٠
الخادمة ــ جرس التليفون ياستى ٠٠
درية ــ شوفى مين ٠٠ وأى حد يسأل عنى أنا خرجت ٠٠
(الخادمة تخرج سريعا)

(درية منهمكة فى العمل والعرق يتصبب منها)
الخادمة ــ (تعود) مدام رنيه الخياطة بتقــول ميعاد حضرتك الساعة عشرة ، ودلوقت اتناشر ، قلت لها ستى خرجت ٠٠

درية ــ بسرعة نزلي الكرنبيت وهاتي القوطة اغسليها كويس ... وصفيها ..

الخادمة ــ حاضر ..

(تبـدأ الخادمـة في تصـــفية الطماطم ، ودرية في تقشير الباذنجان ، وتقليب مافي بعض الحلل على البوتاجاز ، في حـين يدخل الطباخ لاهثا) ..

الطباخ ــ (دون أن يفطن الى وجود درية) لازم شوربة زفت كوارع .. ولازم مواسير عجالي .. والله مافي فايدة ، حتى لما تكون مواسير جاموسي .. (يفطن الى وجود درية فيظهر عليه الرعب) ص .. ص .. صباح الخير .. يا .. يايا ..

درية ــ صباح الخير يا أسطى أحمد ..

الطباخ ــ خير ؟ .. فيه ايه ؟

درية ــ ايه ؟؟

الطباخ ــ حضرتك ..

درية ــ (مقاطعة) هو مافيش ست في بيتها بتدخل المطبخ أبدا ؟؟

الطباخ ــ طب عن اذن حضرتك .. أأمري بس .. وأنا أعمل كل حاجة ..

درية ــ (ضاحكة) ماينفعش .. سيدك نفسه ياكل حاجـة من أديه أنا .. اسمع ..

الطباخ ــ أفندم ..

درية ــ خليك انت في شوربة الكوارع اللي انت جايبها دي .... والمواسير العجالي ولا الجاموسي اللي بتقول عليها ..... إعملها .. وأنا ح أعمل بقية الأكل ..

الطباخ ــ أعمل أنا كل حاجة ياهانم ..

درية ــ لأ .. انت تساعدني بس ..

الطباخ ــ أمر حضرتك ..

(لحظات طوال ينهمك الثلاثة في العمل ، ويبدو عـــلى درية التعب فتجلس على الكرسي) ..

درية ـ طب نزل الحلة •• وهات الزبدة ••
الطباخ ـ موجودة ياست هانم ••

درية ـ دايما حمره بزبدة •• فاهم ؟ •• مش بسمنه ••
الطباخ ـ حاضر ياست هانم ••
درية ـ (للخادمة) جيبى لى علبة السجاير ••
الخادمة ـ (وهى تخرج سريعا) حاضر •• (تخرج) ••
درية ـ (للطباخ) شوف البدنجان ••

الطباخ ـ (وهو يكشف الغطاء) لسه شوية ياست هانم ••
درية ـ ورينى ••
(الطباخ يناولها) ••

درية ـ لأ •• كفاية كده •• مش لازم يتهرى ••
الطباخ ـ أول مرة أعرف ان حضرتك •••

درية ـ (مقاطعة) كنت فاهمنى ايه ؟ •• ماعرفش أطبخ ؟
الطباخ ـ العفو يا أفندم ••
(الخادمة تدخل وتناولها علبة السجاير فتشعل واحدة) ••
درية ـ (للطباخ) قوللى ايه الفرق بين الكوارع الضانى والبتللو •• ؟
الطباخ ـ وفيه كمان الجاموسى •• والبقرى •• والجملى ••
درية ـ ايه الفرق ؟

الطباخ ـ والله ياست هانم مافيش فرق •• وعلى رأى المثل كله عند العرب صابون •• يعنى كلها كوارع ••
درية ـ وليه الناس بتحبها ؟
الطباخ ـ أصلها كلها فيتامينات ، ورخيصة •• وعشان كده بيسموها لقمة الفقير ••
درية ـ فاضل كتير ؟

الطباخ ـ ربع ساعة ان شاء الله يكون الأكل كله جاهز •• بس الكوارع ••

درية ـ (مقاطعة) مش مهم •• بس ربع ساعة يكون الأكل جاهز ••

الطباخ ـ هو جاى لحضرتك ضيوف ان شاء الله ؟

درية ـ أيوه ٠٠ هي الساعة كام دلوقت ؟
الطباخ ـ (ينظر في ساعته) لسة ماجاتش اتنين ٠٠
درية ـ (وهي تنهض وتخرج) اتنين بالضبط يكون الآكل جاهز ٠٠ (تخرج) ٠٠

(درية تخرج وتتجه الى غرفة النوم ، وتفتح الباب وتدخل ، وتبدأ في سرعة تتزين وكأنها على موعد ، وتمشط شعرها ، ثم تتجه الى الدولاب وتفتحه وتنتقي ثوبا أنيقا للغاية وترتديه وتنظر الى نفسها في المرآة طويلا ، ولما تطمئن الى اكتمال زينتها تتجه الى الباب وتمد يدها لتفتحه ولكن الباب يفتح من الخارج وترى فجأة طلعت أمامها) ٠٠

طلعت ـ (وهو ينظر اليها في دهشة) ايه الجمال دا كله ؟
درية ـ مش قوى ٠٠
طلعت ـ خارجة على فين ان شاء الله ؟
درية ـ مش خارجة ٠

طلعت ـ يبقى لازم ضيوف جايين لك ٠
درية ـ (وهي تنظر الى نفسها معجبة في المرآة) ما فيش ضيوف جايين ٠
طلعت ـ مش معقول ٠٠

درية ـ (وهي تنظر الى المرآة) ايه هو اللي مش معقول ؟
طلعت ـ مافيش خروج ، ومافيش ضيوف ، وفيه الاناقة ٠٠ والوجاهة دى كلها ٠٠
درية ـ (وهي تنظر اليه) من النهاردة ٠٠ الاناقة والوجاهة والشياكة دى كلها ح تكون لحاجة واحدة بس ٠٠
طلعت ـ (في دهشة) ايه هي ؟
درية ـ (وهي تعانقه) للزوج فقط ٠٠
طلعت ـ (وهو يعانقها) بتتكلمي جد ؟
درية ـ وحياتك ٠٠
طلعت ـ (وهو يقبلها) ومن النهارده مافيش كوارع ٠
درية ـ وحاجة ثانية كمان ٠٠
طلعت ـ ايه هي ؟
درية ـ (وهي تقبله) ما فيش اكتيول ٠٠

تمت

« الفهرس »

صفحة

١ ـ الزجاجة الفارغة ٧

٢ ـ الدهليز ١٧

٣ ـ أشياء لا تشترى ٣٣

٤ ـ صورة فى الصين ٤٧

٥ ـ الصيد والقنص ٥٩

٦ ـ الشيء الذى نحبه ٧٣

٧ ـ نساء محرمات ٨٧

٨ ـ الظل الأخير ٩٩

٩ ـ قناوى ١١١

١٠ ـ الصيف الذى مضى ١١٩

١١ ـ ساعات الفراق ١٣٥

١٢ ـ للأزواج فقط ١٤١

« كتب المؤلف »

١ ـ هتاف الجماهير .. ..
٢ ـ أرض الخطايا .. ..
٣ ـ يوم الثلاثاء .. ..
٤ ـ آثار على الشفاه .. ..
٥ ـ نساء فى حياتى .. ..
٦ ـ طريق الخطايا .. ..
٧ ـ نساء الآخرين .. ..
٨ ـ امرأة الضرير .. ..
٩ ـ قلب فى لبنان .. ..
١٠ ـ ساحر النساء .. ..
١١ ـ أشياء لا تشترى .. ..

روايات طويلة

١٢ ـ شباب امرأة .. ..
١٣ ـ ست البنات .. ..
١٤ ـ سنوات الحب .. ..
١٧ ـ الأبواب المغلقة .. ..

الكتـــاب الـذهبى

يصدر عن مؤسسة روز اليوسـف

الاشـــــتراكات

مصر : ١٢٠ قرشا عن سنة ـ ٦٠ قرشا عن نصف سنة

الخارج : ١٨٠ قرشا عن سنة ـ ٩٠ قرشا عن نصف سنة

رئيســا التحرير المســئول : فتحي غانم ـ وجمال كامل

المدير العــام : عبد الغنى عبد الفتاح

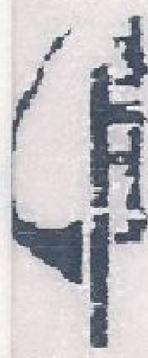
الاعلانات يتفق عليها مع الادارة

٨٩ (أ) شارع قصر العينى ـ تليفونات : ٢٠٨٨٥ ـ ٢٠٨٨٦ ـ ٢٠٨٨٧ ـ ٢٠٨٨٨

جميع الحوالات ترسل باسم « روز اليوسف »

بريد مجلس الأمة





طبعت بمطابع
مؤسسة روز اليوسف